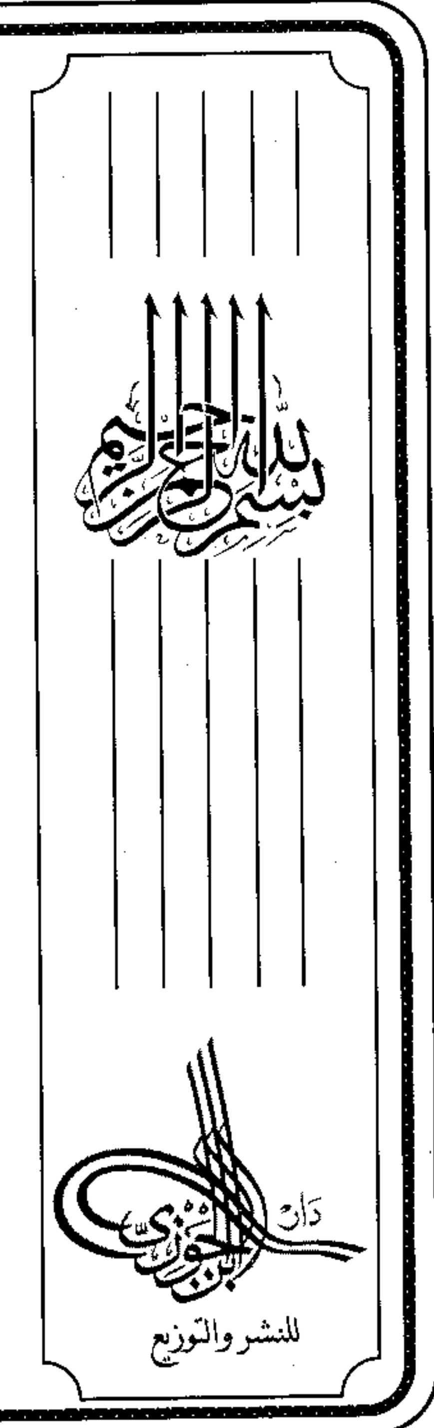
الإسلام والأديان



الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

رقم الإيداع ٢٣٢١٨ / ٢٠٠٥

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية ـ القاهرة
٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢٥١٤٣١٤١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٥١١١٧٥٠



دراسة مقارنة

د. مصطفى حلمي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار ابن الجوزي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩].

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح: ٢٨].

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**» رواه مسلم عن أبي هريرة.

مقدمة الطبعة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد ،،،

فنحمد الله، بعد مرور نحو عشر سنوات -على إصدار الطبعة الأولى للكتاب- تغيرت أمور كثيرة، منها تفكك الاتحاد السوفيتي وتهافت الماركسية، فلسفيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وعلى أثرها ظهر القطب الواحد للسيطرة على العالم وإخضاعه للعولمة، أو الأمركة، ويتصل بصميم موضوع الكتاب عودة الدين إلى مركز الصدارة، ثقافيًّا وسياسيًّا ومنقذًا للحضارة، وربما أصبَح سببًا للصراع بين الحضارات كما يتنبأ هنتجتون المنظِّر الأمريكي.

كذلك صدرت مؤلفات وبحوث لا تكاد تُحصى بتسجيل هذا الحدث الذي فاجأ العلمانيين وجاء على غير توقع، فكان سببًا للارتباك، فحصره البعض في «الأصولية» ولو كان البعض قد أنصت للتفسير الديني للتاريخ والحضارات «كما فعل توينبي» لما اضطر أمام هذه الظاهرة للتمحُّك تعليلًا وتفسيرًا لهول الصدمة التي جاءت كالثورة كما وصفتها كارين أرمسترونج، إذ تبين أن التفسيرات العلمانية للدين -التي احتلت المكانة الأولى في الثقافة الغربية لعشرات السنين- كانت غطاءً مؤقتًا لحقائق ثابتة، كالمياه الجوفية تحت سطح الأرض، ثم اندفعت بقوة لكي تقيم ميزان الاعتدال في الصِّراع الذي كان محتدمًا بين المنطق العقلاني والمنطق الروحي.

يقول الرئيس علي بيجوفيتش رحمه الله تعالى: إن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية في كل مكان قمع فيه الشيوعيون الدين على مدى خمسين إلى سبعين سنة ... نعم هناك أسلمة في البوسنة .. وهي صحوة إسلامية بقدر ما فيها من صحوة أرثوذكسية وكاثوليكية، ولكنَّ الفرق هو أن عودة المسيحيين إلى دينهم لم تلفت انتباه أوروبا المسيحية وهو أمر أفهمه ولا ألومها عليه، أما عودة المسلمين إلى دينهم فقد اعتبرته أمرًا مفزعًا.

[المختار الإسلامي، القاهرة، ربيع الأول سنة ١٤٢٥ هـ مايو سنة ٢٠٠٤م، ص ٩٥].

وسنرى كيف استردت الكنيسة سلطتها في إدارة دفَّة الأمور السياسية، وكذلك كيف ظل اليهود طوال تاريخهم المليء بالهجرات والتشتت في أنحاء العالم يعملون لذلك اليوم الموعود -أي العودة إلى القدس- في سرية وصمت، ثم أعلنوا ذلك جهارًا عندما وجدوا أن العالم مهيَّأ لقبول أهدافهم.

أما الإسلام فبعد أن كانت دولته عالمية في ظل الخلافة انحسر نفوذه السياسي العالمي؛ لأسباب ذاتية وقصور في الأمة الإسلامية، مع هجمات أعدائه التي لم تهدأ أبدًا منذ بعثة الرسول ﷺ.

ويشتمل الكتاب في طبعته الثانية على مدخل للدراسة، وثمانية فصول، خصصنا لكل فصل دراسة ديانة من الأديان بإجمال، وهي على التوالي: البرهمية أو الهندوكية، البوذية، الزرادشتية أو المجوسية، اليهودية، النصرانية، وتناولنا في الفصل السابع الحديث عن إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ بطريقين؛ أحدهما بما ورد في الكتاب المقدس، والثاني بالدليل العقلي المحض.

وجاء الفصل الأخير لإتمام الدراسة في قالب مقارنة مجملة لبيان ظهور الإسلام بالحجة والبرهان.

واللهَ تعالى أسألُ أن يحقق هذا الكتاب غرضه في الدعوة إلى الله ﷻ بالحكمة الموعظة الحسنة، وأن يرسّخ الإيمان ويثبّته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٧ ربيع الثاني سنة ١٤٢٢ هـ

٣٠ يونيو سنة ٢٠٠١ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد،،،

فإن هذه الصفحات تتضمن محاضرات في علم مقارنة الأديان، ألقيتها على طلاب الدراسات العليا بقسم الغقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة أثناء العامين ١٤٠٩ و١٤١٠ هـ، وقد التزمت فيها اختصار المادة العلمية مكتفيًا بالمسائل الرئيسية، مع الإحالة إلى المراجع والمصادر المختصة، والعناية بإجراء الموازنات بعد عرض الآراء المختلفة في تعريف الدين والترجيح بينها، مستندًا إلى الدراسة المستوعبة لأصولها وفروعها للدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الدين».

وإزاء سيل الكتب التي تصدرها المطابع بلا انقطاع عن موضوع الدين وما يتصل به من قضايا رئيسية أو فرعية، فإن التساؤلات المطروحة دائمًا وتحتاج إلى عناية خاصة هي:

١- بأي منهج يدرس أصحاب هذه الكتب قضايا الدين؟

٢- ثم، هل يستطيع المؤلف التخلص من عقيدته عندما يكتب عن دينه؟

٣- ويبقى استفسار أخير عن مفهوم الدين في تصورات الكُتَّاب والمؤلفين، ذلك لأن الدين (مفاهيم مختلفة في أذهان الناس؛ ففي الغرب يعني الدين بصورة رئيسية نظام إيمان وعبادة يتميز عن الولاء الوطني والسياسي .. أما بالنسبة للمسلمين فالدين يعني أكثر من ذلك بكثير، فالإسلام يشمل في معناه ما نعنيه في الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحي مجتمعين»[1].

---

(١) ص٣٢ من كتاب الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس، ترجمة نبيل صبحي، كتاب المختار، بدون تاريخ، سلسلة: نحو طلائع إسلامية واعية.

ونفهم من هذا التعريف - على إيجازه- أحد سمات الكمال للإسلام.

وليس يعني ذلك أننا ندافع عن الإسلام، فهو غني عن ذلك، ولكن إذا استندنا إلى الأصول المشتركة بين الأديان، وعرضناها بمنهجية علمية مقارنة تلتزم بتوثيق المصادر ومخاطبة العقل واستخدام أساليب الجدل المنطقي، إذا فعلنا ذلك سيظهر الترجيح الذي لا يقبل المكابرة.

بمثل هذه الرؤية الواضحة نرى أن لافتة «الحيدة العلمية» لم تعد تقنع أحدًا عند البحث في الأديان، فما من باحث إلا وهو حامل عقيدته التي لا يستطيع التخلي عنها مهما زعم ارتداء ثوب «الحيدة».

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق: (إن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة .. ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه قد عاش فيهم دهورًا طويلة، حتى أصبح جزءًا من كيانهم»[1].

ومع هذا فإذا أردنا البحث عن أفضل الطرق لتحييد المواقف بقدر الإمكان، فيجب علينا إقامة بحوثنا على عناصر محايدة -كالأرقام الرياضية- مُعتَرَفٌ بها في دائرة مصطلحات الأديان وعلى ضوء مفاهيم علمائها ورجالها، فما من دين إلا وله كتاب ونبي «يختلف بشأنه في الأديان الوضعية» ومعتقدات وعبادات وشرائع ونظام للقيم وتصور للحياة والنفس الإنسانية.

---

(١) أوروبا والإسلام ص١٣٥، طبعة دار الشعب بالقاهرة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

فتعالوا إلى التعرف على ما يتميز به الإسلام بأدلة عقلية مجرَّدة

➢ القرآن كلام الله المنزل، لم يكتبه بشر ولم تتدخل الأيدي لنسخه وتبديل معانيه وتغييرها حسب الأهواء.

➢ إثبات خصائص النبوة والرسالة لمحمدﷺ إذا قورنت بالأنبياء والرسل جميعًا وهو القياس الذي التزمه هرقل ملك الروم كما سيأتي، ويبقى ملزمًا لأهل الكتاب لإيمانهم بالرسل والأنبياء قبله، فهو لا يخرج في أخلاقه وأعماله ودعوته عما فعله الرسل السابقون عليه.

➢ عقيدة التوحيد -وهي ميزة الإسلام الكبرى وغايته القصوى- لا تشوبها شائبة من عبادة مخلوق أيًا كان، سواء في السماء كالشمس والقمر والكواكب، أو في الأرض من أوثان أو كهنة أو رجال دين.

➢ إن شريعته بالمقارنة بغيرها تجمع بين الفضل والعدل. وقيمه الخُلُقية البالغة في الرقي حدًا لا يجارى، إذ لو لم نقرأ عمن طبقها وما زلنا نعيش مع من يفعل؛ لظننا أنها مجرد مُثلٍ عليا تصلح لكائن آخر غير الإنسان.

➢ بيان حقيقة الإنسان ودوره في القيام «بالخلافة» بشروطها، والهداية إلى طريق الحياة الطيبة في الدنيا الموصل إلى السعادة في الآخرة.

➢ وعلى الإجمال فإن الإسلام يُشخِّص الإنسان بذاتيته المتفردة، فلا هو كائن «حيواني» بحت، ولا هو كائن «ملائكي» نوراني بحت، بل أصله من طين ثم نفخ فيه الروح[1].

---

(١) يقول نجم الدين البغدادي: (إن العالم على ثلاثة أضرب: عقل محض كالملائكة، وشهوة محضة كالبهائم، ومركب من الأمرين وهم الثقلان، فالطرفان لا مشقة عليهما؛ أما الملائكة فلعدم الشهوة المعارضة لعقولهم، وأما البهائم فلعدم التكليف، والثقلان «الجن والإنس» واسطة عليها المشقة لتنازع العقل والشهوة في مراديهما. فيبعث الإنسان بينهما كالمخلص بين متخاصمين) ص٢٠٤ من كتاب الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان، نجم الدين البغدادي الطوفي «٧١٦هـ» تحقيق د. أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣ م.

➢ والإنسان يظل -منذ ولادته فموته ثم بعثه- مستقلًا بذاته لا يفنى في «الكل» خلافًا لعقائد الهنادكة والبوذية. وهو حرٌّ الإرادة مسئول عن أفعاله ولا يتحمل أخطاء غيره أو يولد حاملًا للخطايا كما يعتقد النصارى.

➢والناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، ولكن يتفاضلون بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، خلافًا لليهود الذين يتوهمون أنهم وحدهم «شعب الله المختار».

➢ ويحذرنا الإسلام من إبليس العدو اللدود وأعوانه ويعرفنا بطرق محاربته ويضعه في حجمه الحقيقي تصحيحًا لعقائد المجوس والنصارى[1].

➢ أمَّته بتاريخها -وأكثر صفحاته ناصعة البياض فلا تجاريها أمة أخرى في جهادها وتضحياتها وبذلها الأنفس والنفائس لا لغرض إلا لتكون كلمة الله هي العليا، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر- لا للسيطرة أو الاستعمال أو استعباد الشعوب وقهرها وسلب خيراتها والاستعلاء عليها.

➢ وربما يندهش ويتعجب الباحثون والمراقبون من غير المسلمين، ولكننا لا نفعل[2]، إنهم لم ينتبهوا إلى أن الأمة الإسلامية هي ثمرة الإسلام؛ كانت تقود حضارة العالم في حالة

---

(١) وتذكر أرمسترونج أن الشيطان في المسيحية كائن ذو شر قاهر على حين أنه حتى في الإسلام كائن يمكن ترويضه والتغلب عليه، ولكنها أخطأت بقولها: (حتى إن القرآن الكريم يومئ أنه حتى الشيطان يمكن أن يتلقى المغفرة في اليوم الآخر) ص٤٥٠ من كتابها «معارك في سبيل الله» ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، ط كتاب الطور سنة ٢٠٠٠م.
والشيطان بموجب خطيئة آدم أصبح يملك إماتة الإنسان، حيث وقف الإله أمام الشيطان عاجزًا لا يستطيع أن يسترد الإنسان أو يخلصه من بين براثنه -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- ص١٨٩ من كتاب الحقيقة المقلقة .. الله والدين والإنسان - للدكتور محمد الحسيني إسماعيل ط. الأهرام سنة ١٩٩٦ م.
ويعظم النصارى أيضًا من شأن الشيطان بحيث يعتقدون أنه نال من مشيئة الله تعالى، ويسمونه في الكتاب المقدس المسيحي أي العهد الجديد: «رئيس هذا العالم» [يوحنا ١٦: ١١] كأنه صاحب الكلمة النافذة والحاكم الذي يقضي في هذه الحياة الدنيا، ص١١٦، تعليق محمد مختار مترجم كتاب «ديدات يواجه راعي الكنيسة في السويد» المختار الإسلامي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
(٢) ينظر كتابنا «الصحوة الإسلامية: عودة إلى الذات» دار الدعوة بالإسكندرية.

قوتها وازدهارها، وظل الإسلام هو درعها، تقاوم أعداءها وهي في حالات الضعف وتكالُب الأمم عليها، وآية ذلك انتصار المجاهدين الأفغان الدال على أن عِرق الأمة ما زال -بالرغم من ضعفها- ينبض بقوة ليطرد عنها الأعداء.

➢ وحري بالعالم الإسلامي أن يواصل دعمه لهذا الجهاد العظيم ويستفيد من آثاره لتقوية حركة الصحوة وامتدادها إلى الجمهوريات الإسلامية الواقعة تحت نير الاستعمار الروسي؛ لأن حركة المقاومة قد بدأت ولا بد من استمرارها، إذ لا يخفى أن حملات القمع تشتد، لأن أهلها مسلمون، وأكد كبيرهم ذلك عندما صرَّح بأن معضلاته اثنتان: الإسلام والأزمة الاقتصادية.

➢ كذلك يعطينا الإسلام التصورات الكاملة عن الحياة الآخرة؛ لأنها الحياة الحقيقة ﴿ وإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأَخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فاقتضت طبيعتها وصفها وصفًا دقيقًا كاملًا لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وعرَّفنا بها، ترغيبًا في حياة النعيم المقيم، وتحذيرًا من الجحيم.

➢ وإننا لعلى يقين من أن أي باحث يستخدم العقل المجرد والضمير الحي في مراجعة ما قررناه بالأدلة، فيسهل عليه رؤية الحق والإذعان له.

وإذا كانت الأديان هي موضوع دراستنا، فإن واقع العصر الذي نعيشه الآن، يفرض علينا تناول بعض الظواهر البارزة بالعرض والتحليل:

➢ سقطت أقنعة المذاهب والأيدلوجيات[١]، وظهرت الوجوه سافرة، فلم يعد يخفى على المتابع للأحداث العالمية الأخيرة عودة العقائد الدينية مرة أخرى شرقًا وغربًا وراء التصريحات والتحركات والقرارات السياسية، وتحول الصراع من مجال المذاهب إلى مجال الدين.

➢ إن هذه الظواهر الطارئة على العصر في السنوات الآخيرة -وما زالت تتوالى- لا تكاد تخفى على أحد، منها: استرداد الكنيسة لسلطانها الذي فقدته منذ بدء النهضة وقيادتها لمجريات الأمور السياسية[٢]، ومحاولة استرداد دورها الذي فقدته منذ الثورة الفرنسية، وحملات التبشير[٣] ونشاط الاستشراق كطلائع للغزو العسكري في البداية، ثم

---

(١) ومن مظاهر تهاوي المذاهب والنظريات أننا رأينا الماركسية يكيل لها أتباعها الطعنات في مواضع قاتلة، وعلى رأسها إباحة تعدد الأحزاب وإقامة السوق الحرة، والسماح للكنائس بأداء دورها والانفتاح على الغرب .. ونتساءل: أين القوميات الآن وفي مقدمتها «العربية» التي استُخدمت طوال سنوات لطعن الوحدة الإسلامية وضرب الإسفين بين الأمة الواحدة؟! وأين الحياد الإيجابي وهناك في كشمير يذبح المسلمون ويقتل أبناؤهم وتنتهك أعراض نسائهم على أيدي الهندوكيين، وتتسرب أيضًا أنباء مفجعة عن اضطهاد المسلمين في الصين؟!

وفي أوروبا المتحضرة التي ترفع شعار الحريات وحقوق الإنسان كشفت عن نفسها حيث كانت تعني «الإنسان الغربي وحده» وهاهي مذعورة ترفع رايات التحذير من الإسلام والمسلمين، لا لسبب إلا بدافع الحقد المتوارث من الحروب الصليبية!

(٢) أمر بابا الفاتيكان في أواخر أبريل ١٩٩٠م بعقد اجتماع غير عادي لكبار الأساقفة في روما؛ لبحث المواقف في أوروبا الشرقية، وصرح بأنه يجب على الكنيسة أن تسعى لملء هذا الفراغ على المستوى الرسمي. «مجلة المختار الإسلامي، العدد ٩١، المحرم ١٤١١هـ، أغسطس ١٩٩٠م ص٧٥».

(٣) كتب «رايتي دافيد» على أثر اعتناقه للإسلام يقول: (كانت المدارس والمعاهد التي درست بها تحارب الإسلام وتحاول صدنا عن سبيله) ص٩١، وعرف التبشير ببلاده أنه: (التعرض للمبادئ الإسلامية والتنكر للقرآن) أي أن نشاط المعاهد التبشرية لم يقتصر على البلدان الإسلامية بل كان دأبها في أوروبا للسيطرة على العقول، ص٩٧ من كتاب «الإسلام يتحدى المذاهب والأديان» محمود حمدي الجريسي، ط. در التراث العربي ١٩٧٦م.

استمراره في تغذية الغزو الثقافي والحرب الفكرية، والكتابات العدائية المغرضة ضد الإسلام والرسول ﷺ[١] وتحريك العملاء وتشجيع الأقلام الحاقدة لتنفث سمومها لإجهاض حركة اليقظة الإسلامية، والتحام المذهب البروتستنتي في النصرانية مع الصهيونية لإنشاء وتدعيم إسرائيل على أساس عقيدة دينية تغذيها أحلام توراتية يشترك في الإيمان بها كل من اليهود والنصارى البروتستانت ومعظمهم من الأمريكيين[٢]. ويأتي

---

(١) ويؤسفنا أن هيئة اليونسكو انضمت إلى زمرة المهاجمين للإسلام، وخانت بذلك رسالتها. انظر التفاصيل بكتاب: مفتريات اليونسكو على الإسلام، محمد عبد الله السمان، المختار الإسلامي «١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م».

(٢) وهناك أيضًا نحو أربعين مليون أمريكي يؤمنون بعقيدة معينة تسمى «عقيدة العصر الألفي السعيد» وخلاصتها أن الله قد وعد بني إسرائيل أن تقوم لهم في آخر الزمان دولة، وهم يؤمنون أن يوم القيامة سيأتي، ومن الخير أن يأتي يوم القيامة سريعًا بعده، وستقوم معركة بين قوى الخير وقوى الشر، وأن المسيحيين سيبتهجون عندما تنتصر قوى الخير، وتتم إبادة كل اليهود، وتسود المسيحية. ص٦٧- ٦٨ من كتاب «العرب وإسرائيل - شقاق أم وفاق» للأستاذ أحمد ديدات وترجمة علي الجوهري، ط. دار الفضيلة بمصر ودبي ١٩٩٠م.

وإذا تتبعنا مواضع التحام المذهب البروتستانتي بالصهيونية، فستلاحظ أنه أثمر الخطوات السياسية المتدرجة نحو إنشاء إسرائيل وتدعيمها، وكان معظم الزعماء السياسيين المسئولين عن ذلك في بريطانيا وأمريكا من البروتستانت. وآية ذلك أن «مارتن لوثر» مؤسس الحركة قد وصف بأنه «شبه يهودي» أو نصف يهودي، واعتبر المبادئ البروتستانتية في القرن السادس عشر بمثابة بعث «دعوي» أو يهودي، وحتى عندما تغير موقف لوثر من اليهود كتب يقول: (من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم في يهودا؟ لا أحد، إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم لا لشيء إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا).

وفي ظل الاستعمار البريطاني لبلدان العالم العربي والإسلامي، كان مارك سايكس -الذي تحول للصهيونية وأحد مساعدي لويد جورج- القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين والتي أدت إلى وعد بلفور، ثم أعطت معاهدة «سايكس بيكو» فلسطين هوية جغرافية لأول مرة في التاريخ الحديث. كذلك فإن التعليل الصحيح لانحياز أمريكا لإسرائيل لا يقتصر على «اللوبي» الصهيوني، ولكن يرجع إلى تغلغل الأفكار العريضة للصهيونية في التفكير الأمريكي، فأثمرت شخصيات لعبت دورها بدافع عقائدي، أمثال: ترومان وكارتر الذي كانت خلفيته البروتستانتية وآراؤه الدينية مرتبطة بسياسته. ينظر كتاب «الصهيونية غير اليهودية - جذورها في التاريخ الغربي» =

التطور الأخير غير المتوقع من قبل؛ أي زوال العداء بين المعسكرين الشيوعي والغربي، والتكتل العدائي نحو الأمة الإسلامية الذي بلغ أشده في هذه الأيام.

➢ كذلك لم يعد بمقدور أحد أن يشكك في تحول اليهودية إلى دين سياسي يغذي الإسرائيليين بأحلام إقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، واتخاذ بروتوكولات حكماء صهيون دليلًا للعمل، ووضع محتويات العهد القديم والتلمود موضع التنفيذ للسيطرة على العالم، فإن هذه البروتوكولات (موجودة في المعابد اليهودية في كل أنحاء العالم بما في ذلك مصر، وأن حاخامات المعابد يحفظونها عن ظهر قلب، ولأنها بروتوكولات سياسة فإن الحاخام يشرح الكثير منها في أيام السبت دون أن يذكر أن هذه هي البروتوكولات)[1].

➢ هذا، وإذا كان الإسلام في غير حاجة للدفاع عنه كما أسلفنا، فإننا سنلتزم -كأحد طرق الاستدلال- بالموازنة بينه وبين غيره من الأديان، سواء أكانت وضعية أو سماوية، وعندئذٍ ستظهر مزاياه تباعًا كلما انتقلنا من مبحث إلى آخر، وستتضح بجلاء الإشعاعات المضيئة للآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٧ من المحرم سنة ١٤١١ هـ

٢٨ من يوليو سنة ١٩٩٠ م

= تأليف ربحينا الشريف، وترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، الكويت «صفحات ١٨ - ١٩ - ٤٥ - ٤٧ - ١٦٩ - ١٧٠ - ٢٠٤ - ٢٧٥».

وقد كتبت في مقدمة بحثها تقول: (وحتى نضع الأمور في نصابها، سنبين كيف أصبح التيار الخفي للحضارة والثقافة الغربية ملوثًا بالأساطير الصهيونية الملوثة، سواء الدينية منها أو العلمانية) ص١٨.

(١) الإرهابيون الأوائل جيراننا الجدد ص١٨، وجيه أبو ذكري، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٧م، وقد جاء هذا التصريح على لسان طبيب أسنان يهودي مقيم في مصر ورفض الهجرة إلى إسرائيل.

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد.

فإن ظاهرة «التدين» قد اجتذبت الكثير من العلماء والباحثين في مجال العلوم الإنسانية، لتحليلها وتأصيلها، وبيان أوجه الاختلاف بين العقائد والأديان، إما بمنهج تاريخي، أو بمنهج مقارن، أو بمنهج تحليلي لبيان النشأة والتطور، وعلاقة العقائد بينها وبين بعض بالتأثير والتأثر.

ولا شك أن علم مقارنة الأديان قد حقق نتائج باهرة تجعلنا في موقف أفضل من أهل القرون السابقة، حيث ظهرت كثير من الأبحاث والدراسات والمخطوطات المحققة كلها تجعلنا أكثر دقة في الحكم، وأكثر اقترابًا من فهم ما يدور حول العقائد والأديان، لعل في مقدمتها التساؤل عن أي العقائد والأديان أحق بالاتباع؟ وتزداد أهمية السؤال إذا عرفنا أننا نعيش عصر العقائد الدينية بعد فشل الأيديولوجيات.

وإذا ثبت إخفاق الأيديولوجيات[١] بسبب عدم تلبيتها لحاجات النفس الإنسانية، أو تحقيقها للسعادة المرجوة على مستوى الجماعات والأمم، وفشلها في تحقيق النتائج المنتظرة عندما نبتت في أذهان أصحابها، بعد ذلك كله يحق للعقيدة الدينية أن تتربع على عرش القلوب، وأن تتخذ منهاجًا لتحقيق الحياة الطيبة للأفراد والمجتمعات، في عصر حضارة متأزمة تضخمت بالمشاكل وأصبح أهلها يضجون بالشكوى. فأي دين أحق أن يتبع ليحقق السعادة المرجوة؟

---

(١) يُنظر كتابنا «الإسلام والمذهب الفلسفية المعاصرة» ص٧٠/ ٧٤. ط. دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

لنتفق أولًا على التعريف المتكامل للدين في ضوء الدراسات التي أجراها العلماء المتخصصون في هذا الميدان.

يعرِّف الدكتور محمد عبد الله دراز الدين بأنه: (الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة، هذا من حيث هو حالة نفسية، ومن حيث حقيقة خارجية، فهو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها)[1].

والدين الحق بهذا التعريف لا تجده متحققًا إلَّا في الإسلام، ونضيف القول بأنه ليس مجرد فكرة أو فلسفة، وليس طقوسًا وعبادات روحية منقطعة الصلة بطبيعة الإنسان، ومكوناته العاطفية، وغرائزه ووجدانه، ولكنه يجمع في إطاره الكامل عقيدة التوحيد إلى جانب تنظيم أنشطة الإنسان في ميادينها المختلفة؛ في الأسرة والمجتمع والدولة، وباقي الأمم، في علاقته بغيره في شئون الاقتصاد والمال وقواعد الحكم السياسية، ومبادئ السلوك والأخلاق، في العلاقات الإنسانية كلها، مع تعريفه بالسنن الإلهية، وحكمة خلقه كإنسان له مكانته وهدفه ومصيره بالمقارنة بباقي المخلوقات التي تشاركه حياته الدنيوية لأنه أكرمها.

أضف إلى ذلك تصويب نظرة الإنسان إلى نفسه ومكوناته الروحية والجسدية وتعريفه بالحياة الدنيا وطبيعتها والغرض منها كدار ابتلاء، ومعبر للحياة الآخرة الخالدة، وضمَّ كل هذا كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ونفذت تعاليمه وأحكامه وتشريعاته بواسطة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما قامت طائفة من أمته -وستظل إلى قيام الساعة- ظاهرة على الحق لا تنحرف عنه، ولا تغير ولا تبدل في أصوله وأحكامه أو تعاليمه.

وسنرى بمشيئة الله تعالى أن دارستنا ستجيب على التساؤلات التي تدور في خلد

---

(١) د. دارز الدين ص٢٥ «بحوث ممهدة لدارسة تاريخ الأديان» دار القلم، الكويت ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

الإنسان، وهي كثيرة ومتشعبة مثل: ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ فإن كانت فما هي طبيعتها؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة؟ ثم ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع؟ ومن الذي يدبره بمثل هذه الدقة والنظام والحكمة البالغة الشاملة والقانون المحكم المتين؟ وما هي صفاته وصلته بالإنسان؟ وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به؟ وهل هناك قانون خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم؟ فإن كان فما هي تفاصيله؟ وما هي مكانة الإنسان الصحيحة ومنصبه في هذا الكون؟ هل هو حرٌّ طليقٌ لا يتقد بقيود وأحكام أم هو تابع محكوم؟ هل هو مسئول أمام أي قوة ومحكمة أخرى أم أنه حرٌ طليقٌ لا مسئولية عليه؟ ثم ما هو أسمى مطلوبه؟[(١)].

ومن معالم منهجنا أيضًا التحقق من حقيقة التطور الذي يردده الغربيون عن حضارتهم، باعتبارها تعبر عن أرقى الحضارات وأكثرها تطورًا، حيث نرى أن التطور الصحيح لا يقتصر على التقدم العلمي التكنولوجي فحسب، بل ينبغي أن يصاحبه أيضًا «تطورًا» عقائديًّا وأخلاقيًّا، وإذا بحثنا في عقائد القوم نراها قد ثبتت على عقائد الشرك والوثنية للأديان المحرَّفة أو الوضعية، أو بمعنى أدق هي امتداد لها، ومن ثم فإن العقائد قد انتكست من «التوحيد» الذي أتى به الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولا سبيل للتطور الإنساني الحقيقي إلَّا بالعودة إلى «الارتقاء» إلى العقائد الموحى بها من الله عز وجل.

إن عالم اليوم يعيش في «ردة» حقيقية عن الدين الإلهي الصحيح، إذ خضع الإنسان بإرادته إلى عبادة غيره من الكائنات في مذلة وهوان ، بينما في الأصل هي مُسخَّرة ومُذلَّلة له، ولنلقي نظرة إلى القارة الآسيوية أيضًا ذات الكثافة السكانية الهائلة، وفي مقدمتها اليابان المتقدمة علميًّا وتكنولوجيًّا، فقد عبد اليابانيون مظاهر الطبيعة والأسلاف وما «الشنتوية» إلَّا مزيج من عبادة الشمس ومظاهر الطبيعة وعبادة الأسلاف وعبادة الإمبرطور المسمى «ابن السماء»[(٢)].

---

(١) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص٩، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفار عطار جـ١ ص١٨٥. ط. مكة المكرمة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

والبوذية التي تعمل على جذب الكثيرين من الأوروبيين والأمريكين بحثًا عن غذاء للروح في الشرق، هذه البوذية عبارة عن ديانة هندية انتقلت إلى الصين، ونعجب للإنسان المتحضر المعاصر الذي ينزل إلى درك عبادة صنم، إذ من المعروف أن في «لاسا» معبد بوذي فيه تمثال بوذا من الذهب الخالص، والمعبد محلى بأغلى الجواهر، ويعبد هذا الصنم ويُحج إليه من قِبَل من يعبدونه[1].

(١) نفسه ص١٧٥/ ١٨٢.

مناهج البحث في نشأة الدين

وما دامت ظاهرة التدين بهذه الأهمية التي استرعت انتباه الدارسين من العلماء والفلاسفة بالنظر للإنسان «كمخلوق متدين»، والتدين من خصائصه الجوهرية، جاز لنا استعراض مناهج البحث في نشأة الدين، وتتبع آراء واضعيها.

اتفق العلماء إذن على أن ظاهرة التدين أصيلة في النفس البشرية ولكنهم اختلفوا في الإجابة عن السؤال الآتي: ما هي عوامل إيقاظها في النفس؟ وهنا ظهرت وجهات النظر المختلفة التي تجيب عن هذا السؤال؛ أجملها الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللهُ في ستة مناهج سنوجزها في الصفحات التالية، مع حرصنا على توجيه نظر الباحثين بخاصة والقرّاء بعامة إلى ضرورة الرجوع إلى الأصل؛ أي كتاب «الدين» له؛ لأنه يعد من أفضل -بل ربما أفضل- ما كتب في العربية في العصر الحديث عن الدين ومناهج بحث نشأته، كما أن الدكتور دراز لفت نظرنا -ربما لأول مرة أيضًا- إلى وجه جديد من أوجه إعجاز القرآن الكريم، حيث يثبت عالمنا الكبير أن القرآن جمع بين هذه المناهج جميعًا، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

١ - منهج المذاهب الكونية والطبيعية الشاذة «العادية والشاذة العنيفة»

يرى فريق من العلماء -ومنهم العالم الألماني ميلز- أن العالم الأول في إثارة الفكرة الدينية هو النظر في مشاهدة الطبيعة لا سيما الأفلاك والعناصر، ذلك أن التأمل في هذا المجال غير المتناهي يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غلابة، قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لتأثيرها، ينتقل الفكر من الكائن إلى المكون، إذ الإعجاب ببدائع الملكوت يحمل الإنسان بفكرته إلى التساؤل عن المبدع ويحفزه إلى التوجه بفكرته إليه، فيتحول إلى مناجاة مبدعه والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق، والتقديس البليغ، أي العبادة، وهذه المناجاة تنطوي على عنصرين:

١ - أن الشيء الذي تتوجه إليه أهلٌ؛ لأن يستقبل حديث من يناجيه.

٢ - أنه أسمى مقامًا وأكمل صفة من الإنسان لأنه يستطيع ما لا يستطيع الإنسان[١].

ولكن يُعترض على هذه النظرية بأن استمرار الظواهر الكونية على نسق واحد يجعلها أمرًا

---

(١) د. دراز «الدين» ص١١٤.

مألوفًا، فظهر من العلماء من يرى أن إيقاظ التأمل في النفس يرجع إلى أن الحوادث الأرضية المفاجئة والعوارض السماوية النادرة كالبرق والرعد والعواصف والصواعق والخسوف والطوفان والزلازل، هذه الحوادث لها تأثيرها على المشاعر؛ كتأثير دقِّ الجرس في تنبيه الغافل وإيقاظ الوسنان، فتحفز بني آدم إلى السؤال عن مصدرها، وإذا كان لا يرى سببًا ظاهرًا اضطر عقليًّا أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة. هذا هو رأي العالم الإنجليزي «جيفونس» إذ يعلل التديُّن بشعور الرهبة والخشية لأنه أسبق في النفس من شعور الإعجاب.

ولكن العالم الفرنسي «ساباتييه» يرى أن شعور الرهبة والخوف من القوة العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية، ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة وشلَّ الحركة وولَّد اليأس، فلا بد من شعور آخر يوازنه ويلطفه من حدته وهو الأمل والرجاء اللذان يبعثان على الدعاء والتضرع، وهذه هي حقيقة الدين[١].

٢- منهج المذاهب الروحية «أو الحيوية»

ويقصد بالروح -الخاصة الإنسانية بكيان مستقل عن الروح المشترك بين الإنسان والحيوان- أن مبدأ الحياة التفكير والإرادة المنظمة والعاطفية والضمير، والدليل على ذلك أننا نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون، فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة، فيعود إليهم شعورهم المنظم،

المذهب الروحي إذن بعكس المذهب الطبيعي، فبدلًا من استنتاج الكائن الغيبي من مطابقة الآثار العظمى في عالم المادة يشتق المذهب الروحي صفاءه من جنس عمله نفسه، ومن نوع التجارب التي دلَّت عليه فهو لا ريب روح عظيم؛ ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية، وهو لا شك عقل خلَّاق؛ ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن إمدادها[٢].

---

(١) نفس المصدر ص١٢٥.

(٢) نفس المصدر ص١٣١، والتعبيرات ترجمة عن أصحاب المذهب، ولا نتفق معهم إسلاميًّا «كالقول بالعقل الخلَّاق».

٣- منهج المذاهب النفسية

يستمد أصحاب هذه المذاهب من التجارب النفسية -في حياة الإنسان العادية المألوفة له- دليلًا على أنها توجه النظر إلى الحقيقة العليا، فيحلل «ساباتييه» شعور الطفل بما فيه من مناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وتنتهي التجارب النفسية إلى أن تصبح النفس مدركة ومُدْرَكة وحاكمة ومحكومة معًا.

وتفسير هذه التجارب ونتائجها أن رغبة العلم تنتهي بالاعتراف بالجهل، ورغبة الاستمتاع تنتهي بالتقزز، والإسراف على السعادة يذهب براحة الطمأنينة، كأنها تحمل في نفسها جرثومة فنائها، فإلى أين المفر؟

إن العلم ليس سبيلًا للسعادة في الصراع بين قانوني الطبيعة والأخلاق، فكيف السبيل من الخروج من هذا المأزق؟ لا مفر من اتخاذ الدين سبيلًا لحل هذه الأزمة، ولكن «برجسون» يستخلص من الشعور بالواجبات الاجتماعية نشأة العقيدة الإلهية، إذ لما كان نظام المجتمع وتماسكه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته وتضحيته بجانب من حريته كان لا بد من قوة أخرى دافعة لهذه التضحيات؛ أي العقيدة الدينية.

كذلك فإن الحياة اليومية والحوادث المستقبلة مليئة بالنماذج المعبرة عن تطلع النفس البشرية إلى من يحقق أملها، فالتاجر الآمل في الربح والمريض المنتظر الشفاء والزارع الدائب العمل في حقله مؤملًا الحصاد، وكل ذي حاجة يسعى لإشباعها، كل هؤلاء لهم آمال تبعثها تصوراتهم أمام النفس، إرادةً خفية يركن إليها القلب ويعتمد عليها، تلك هي إرادة الله «الإله المستعان».

أما «ديكارت» فإن أحد الطرق عنده في إثبات وجود الله تعالى مستمد من فكرة الكمال، إذ إنها أسبق في الفطرة من فكرة النقص، فإن من لا يعرف الشيء لا يفتقده فيقول: إذن كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن كامل أكمل مني؟

٤- منهج المذهب الأخلاقي

وصاحب هذا المذهب هو الفيلسوف الألماني «كانط» وله دعائمه في إثبات صحة ما

يذهب إليه، ومنها أن كل إنسان -حتى الطفل المميز- يجد في نفسه استحسانًا لبعض الأفعال واستهجانًا لبعضها، ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يُفعل وبعضها يجب أن يُجتنب، وهذا هو أقصر الطرق -في رأي الدكتور دراز- لشرح مذهبه؛ إذ يُمكن عند سرد المثال الانتقال مباشرة من القانون الأخلاقي المجمل الذي تخضع له إلى واضع هذا القانون وغارسه في النفوس [١]. ولكانط تفسيرات أخرى نضرب صفحًا عنها لبُعدها عن غرضنا في التبسيط والإيجاز.

٥- منهج المذهب الاجتماعي

وينسب إلى «دور كايم» الذي يرى أن التدين وليد أسباب اجتماعية ... ويعلل ذلك بأن خير وسيلة لتفسير ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن تدرس في بداية نشاطها قبل أن تخالطها عناصر غريبة عنها، وأن ذلك إنما يكون ببيئات الأمم البدائية، وهي في نظره تلك الأمم التي لا تتميز فيها الأسر الخاصة بخاصة مستقلة، بل تقوم على نظام القبائل لا الأسر.

واستخلص «دور كايم» من اجتماعات القبائل واحتفالاتهم دليلًا لمذهبه، إذ رأى أن من طبيعة الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن مشخصاتها الفردية وتنمحي وتذوب كلها في شخصية واحدة هي شخصية الجماعة. وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر [٢].

ولا يَسلم هذا المذهب من انتقادات عديدة تأتي عليه وتنقضه من أساسه منها:

١- أن تحديد الدين بهذه الطريقة «أي دراسة الظاهرة الدينية في أقدم عصورها» يعد عملًا مجافيًا لقانون المنطق السليم، إذ لا يحق لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول أطوار الجنين.

٢- تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكس افتراضه، فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يثبت منها أنها كانت قائمة على النظام الأسري.

٣- كذلك قام أحد الباحثين «روبرت شمت» بدراسة دقيقة في أستراليا فأثبت أن

---

(١) كتاب «الدين ص١٤٦.

(٢) نفس المصدر ص١٥٣.

قبائل أستراليا الوسطى أحدث القبائل هناك وأكثرها تقدمًا، عندهم عقيدة «الإله الأعلى».

٤- يعترف «كونت» بأن عددًا من قبائل أستراليا قد وصلوا إلى فكرة «الإله الأعلى» أو «الإله الأحد» وأنه كائنٌ أزليٌّ أبديٌّ، تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذي يثير البرق ويرسل الصواعق وإليه يُتوجَّه في الاستسقاء وفي طلب الرزق، وهو الذي خلق الحيوان والنبات وصنع الإنسان من الطين ونفخ فيه من الروح، وهو الذي علم الإنسان البيان وألهمه الصناعات وشرع له العبادات، وهو الذي يقضي في الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسيء، ولكنه يعمد إلى تجاهل ذلك ويعمد إلى ضرب من اللهو الخليع الذي يأتيه بعض القبائل في حفلات، تضم كل شيء إلَّا الدين والعبادة.

٦- منهج المذهب التعليمي أو مذهب الوحي[1]

وهذا المذهب يقرر أن الأديان لم يسر إليها الإنسان، بل سارت هي إليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحي.

هذه النظرية التي أخذت بها طوال القرون الوسطى أوروبا وأيَّدها بعض علماء التاريخ حتى في القرن التاسع عشر لا تزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم، كما أننا نجد في الكتب السماوية مصدرًا في الجانب الإيجابي منها[2].

****

من هذه النظرة الجامعة لمناهج العلماء في بحث منشأ العقيدة الإلهية يستنتج الدكتور/ محمد عبد الله دراز أن (مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس والآفاق، وأن بواعثه النفسية مركَّزة في الوجدانات، غير أن الناس ليسوا على درجة في سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل) ومع اختلاف الناس في وسائل الاقتناع، تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله ﷻ.

---

(١) كتاب الدين ص١٥٧.

(٢) نفس المصدر ص١٦٤.

وهاهي النماذج القرآنية على الترتيب:

١- ففي المنهج الطبيعي مثل قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٦-٧]، وقوله: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ [القصص: ٧١]، ويلفت القرآن الأنظار إلى عنصر الاختلاف بين المتشابهات اختلافًا لم يتهيأ للعلم البشري معرفة أسبابه ولا التحكم في عوامله مع اتحاد البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة، فينبه على موضع العبرة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢].

كما ينبه القرآن -في الشق الثاني من المنهج الطبيعي- إلى الحوادث المروعة في قوله: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد: ١٣]، ويضيف إلى ذلك الإنذار بالأحداث المتوقعة أو المحتملة فيقول: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

٢- ونرى عناصر المنهج الروحي مبثوثة أيضًا في كثير من الآيات؛ لبيان استقلال الروح البشري وانفصاله عن الجسم وبقائه بعد الموت في حالة برزخية بين الدنيا والآخرة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٣- ويشير القرآن إلى ما لاحظناه في المذاهب النفسية من حيث قصور الإرادات الإنسانية عن بلوغ أهدافها وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا وضرورة استسلامه لها في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٤-٢٥]، كما يضيف القرآن عنصرًا آخر عظيم الدلالة على الألوهية، وهو تحول الإرادات وتحولها من الكراهية

إلى المحبة، وعدولها إلى الألفة من غير تدخل الأسباب الطبيعية في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦]، ويجمع الله تعالى ذلك كله في قوله سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٤- حتى المذهب الأخلاقي نجد لبَّه وجوهره في القرآن حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨].

٥- بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على الأفراد فنجد القرآن يسجله في مثل قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، إلَّا أن تقرير ذلك جاء في موضع الذم والتقريع، فينفي هبوط الإنسان عن عرش كرامته الإنسانية وهبوطه إلى مستوى القطعان من الماشية: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ونراه يهيب بالناس أن يميزوا بين الطيب والخبيث: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٨].

ويرسم القرآن الحكيم طريق تحرر العقول من الأَسْر الاجتماعي القاهر بالدعوة إلى التفكير الفردي الهادئ المتحرر من كل القيود إلَّا قيد البداهة والمنطق السليم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ: ٤٦].

٦- وأخيرًا ترى المذهب التعليمي ساريًا في القرآن كله مع التوجه المستمر إلى الآيات الواضحة، بالإضافة إلى إرسال الرسل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، هكذا يلتقي في محيط القرآن ما تشعب عند العلماء، وإزاء هذا كله لا يسع الباحث المنصف من الإقرار بأن القرآن ليس صورة لنفسية ولا مرآة لعقلية شعب ولا سجلًا لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح مهما تباعدت الأقطار والعصور أو تعددت الأجناس واللغات والألوان، إذ سيجد فيه كل طالب للحق سبيلًا مهما يهديه إلى

الله على بصيرة وبينة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧][١].

إن مثل هذه الدراسة المقارنة التي تفرد بها الدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خير الجزاء- لدليلٌ جديد تفرد بإبرازه بعد دراسته العميقة المقارنة، نقول: إنه دليل جديد يضاف إلى غيره من الأدلة على إعجاز القرآن، وإنه كلام الله ﷻ.

(١) ينظر كتاب «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز، مصدر سابق.

مدخل الدراسة

أولًا: من معالم العصر

(أ) العودة إلى الدين بعد انحسار الأيدلوجيات.

(ب) بحث آثار التغريب في دراسة الإسلام طبقًا للاتجاه العلماني والمذهب الوضعي.

ثانيًا: حملات تشويه الإسلام بأقلام المستشرقين وأبواق أجهزة الإعلام الغربية

أولا: من معالم العصر

(أ) عودة الدين بعد انحسار الأيديولوجيات

عندما أرّخ الدكتور حامد ربيع للدور الذي عاد الدين ليؤديه في العصر الحديث حدَّد عام ١٨٩١م كبداية، إذ أعلن البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر عن «الأشياء الجديدة» ومؤدَّاها التعبير عن إرادة الكنيسة في التدخل في الأحداث وتأدية وظيفتها التاريخية بأساليب جديدة، وإعلان رأيها بإيمان وثقة في مشاكل المجتمع، وبعدها بعدَّة أعوام برزت مفاهيم الصهيونية السياسية وهي تعبير عن اليهودية غلَّفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم، مع إضفاء الطابع الديني على الوجود السياسي الذي ميَّز الدولة العبرية[1].

يقول د. حامد ربيع: الكنيسة تعلن صراحة عن أنها تؤمن بأن عليها وظيفة سياسية لا بد وأن تؤديها من خلال منطلقات الصراع اليومي بل والجسدي، الحاخام اليهودي يعلن أن وظيفته أساسًا وظيفة سياسية بل وإن منطلق تلك الوظيفة هو القيادة الجماهيرية. الجيوش العصرية تعرف أيضًا رجال الكهنوت، مسيحيين كانوا أم يهودًا، الذين يرافقون قواتهم دفاعًا عن مبادئهم القومية ودون أن يعني ذلك سوى تأكيد للارتباط بين الدين والسلطة[2].

أما الشعار الذي رفعه العلمانيون لإبعاد الدين عن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية –بمقولة: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله– فقد رفعته الثورة الفرنسية ولم يدم طويلًا أو يستقر تنفيذًا وعملًا، إذ بمتابعة تاريخ هذه الثورة اتضح أنها عندما قامت على

---

(١) باختصار من كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» جـ١ ص٤١/ ٤٢ تأليف ابن أبي الربيع، وتحقيق د/ حامد ربيع، دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
أما عن أدوات الكنيسة التي تباشر وظيفتها فهي:
١ – الأحزاب الكاثوليكية ٢– النقابات الكاثوليكية
٣– الجمعيات الكاثوليكية ٤– الجامعات الكاثوليكية
وهي تملك استقلالًا حركيًا مع اتفاقها مع الكنيسة في أهداف مشتركة ص٤٢.

(٢) د. حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك جـ١ ص٤٥.

أساس الشعار العلماني؛ أي تقييد نطاق الدلالة السياسية لكل ما له صلة بالمفاهيم والأوضاع الدينية، فإن مثل هذا التصور إنما يعبر عن وضع استثنائي وفترة مقيدة من حيث دلالتها عندما نتذكر حقيقة ما سبقها وما لحقها من أحداث.

ومن هذا الحيز الضيق الاستثنائي يسجل رد الفعل الخاطئ في منطقتنا العربية، فيقول مستطردًا: (الثورة الفرنسية أحدثت القطيعة التي لم تعرفها التقاليد العربية إلا فقط خلال القرن العشرين، وهي في حقيقتها رد فعل فاشل لفهم خاطئ لحقيقة العلاقة بين القيم الدينية والقيم السياسية)[1].

ويذكر الأستاذ الدكتور حامد ربيع في دراسته السياسية الموسوعية أن الدين كأحد متغيرات الوجود السياسي يفرض علينا ثلاث ملاحظات:

أولًا: ما يسمى بنهاية أو فشل الأيديولوجية السياسية كما أعلن ذلك علماء التحليل السياسي، فالديمقراطية لم تستطع أن توَصِّل إطارها الفكري في مذهب متكامل، والنازية أثبتت الفشل الكُلِّي والشامل، والنقابية: لم يقدر لها بعد التطبيق، والماركسية والشيوعية اختلطت كل منهما بالأخرى وانتهت بدورها بدرجة أو بأخرى بأن تعلن عن إفلاسها، وبصفة خاصة في المجتمعات المتخلفة والجديدة التي تمثل أكثر من ثلثي العالم.

ثانيًا: إزاء فشل الأيديولوجيات القائمة ما كان يستطيع الفرد إلَّا أن يتجه إلى «الأديان».

ثالثًا: باستعراض دور الدين على خريطة العالم المعاصر يتبين أن الفاتيكان يمثل اليوم إحدى القوى الضاغطة الدولية التي تكاد تسيطر على جميع مسارات التعامل في النطاق الدولي، فالصهيونية في حقيقة الأمر لا تجد قوة حقيقية تساندها سوى النفوذ الكهنوتي والتي تتعاطف معها قوى الكنيسة في جميع أجزاء العالم.

وعند البحث عن دور «الإسلام» يستند الدكتور حامد ربيع إلى التقرير المشهور لمعهد هوفر الأمريكي والمتعلق بتخطيط السياسة العالمية ابتداءً من نهاية القرن العشرين،

---

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك جـ١ ص٣٩.

هذا التقرير يحدثنا عن تطور معين في المجتمع الأمريكي نحو تضخم العنصر الأسود المسلم وزيادة قوته في نطاق القيادات، ويقابل ذلك تطور مماثل في المجتمع الروسي، بشكل أقوى[1].

ثم توالت البحوث والدراسات حول هذه التقلبات المفاجئة المثيرة في أحشاء الغرب الديني والسياسي.

فنرى كارين أرمسترونج -أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد- تقرر أن الدين أصبح من جديد قوة يُعمل لها حساب، وانتشرت صحوة دينية واسعة لم تكن تدر بخلد الكثيرين في الخمسينات والستينات، إذ كان العلمانيون يفترضون أن الدين خرافة تجاوزها الإنسان المتحضر العقلاني، وأنه على أحسن الفروض مجرد نشاط فردي عاجز عن التأثير في الأحداث العالمية.

ولكن ثبت الآن كذب تلك النبوءة، ففي الاتحاد السوفيتي عاد الرجال والنساء إلى المطالبة بحقهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وأصبح الناس في الغرب يظهرون وعيًا جديدًا بالحياة الروحية[2]، ثم تمضي في وصف التغيُّرات الجديدة في الحياة الدينية بأنها أشبه بالثورة، فتقول: (فربما هجرنا إلى الأبد أسلوب القديم إلى ديننا وثقافتنا أو أديان الآخرين وثقافاتهم، ولقد شبَّه بعضهم التأثير المرجح لذلك بالثورة التي أحدثها العلم في نظرة الرجال والنساء إلى الدنيا على امتداد العالم بأسْره)[3].

---

(١) الدكتور حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، لشهاب الدين أبي ربيع، تحقيق ودراسة، مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، تنظر تعليقاته المستفيضة بالجزء الأول ص١٨٣ و١٨٤ واقتراحاته للإعداد للمد الإسلامي المنتظر.

(٢) محمد ﷺ ص١٥. ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني. ط. سطور سنة ١٩٩٨م.

(٣) نفسه ص١٧.

(ب) بحث آثار التغريب في دراسة الإسلام طبقًا للاتجاه العلماني والمذهب الوضعي

موقف الاتجاه العلماني من الدين

يُعرِّف أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان -يرحمه الله- الاتجاه العلماني بأنه الاتجاه الذي: يستبعد الدين من مجال التربية والتعليم وشئون السياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك من الأمور العامة... [١].

وبعد بيان نشأته في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، للأسباب التي أشرنا إليها يعود فيوضح أن الشريعة في الإسلام منزَّلَة (لحسن تسيير شئون الدنيا في ظل أصول وقواعد إسلامية بحتة ... فقد كفل الإسلام للمسلمين تغطية أمور معاشهم الدنيوية والأخروية عن طريق الشريعة•المنزلة من عند الله، ولهذا فإن روح الإسلام وطابعه إنما يتطلبان أن نرسخ دعائم هذا المبدأ القائل بأن الإسلام دين ودولة ... فلا علمانية في الإسلام ولا تربية حقة بدون الإسلام.. ولا علم ولا سياسة بدون الدين)[٢].

وبالنظر لعلاقة العلمانية بالإسلام، فإن أقل ما توصف به أنها نظرة قاصرة، ناشئة عن تقليد الثقافة الغربية، وإخضاع الثقافة الإسلامية -مع خصوصيتها المميزة، عقائديًّا وتاريخيًّا- للملابسات التي مرَّ بها تاريخ أوروبا الديني والسياسي.

أضف إلى ذلك أن المنحازين للعلمانية في عالمنا الإسلامي قد تجمدوا عند مرحلة ما قبل العصر الحديث، في أوربا وأمريكا، إذ تخطت العلمانية هنالك الحواجز، وتضاءلت تحت ضربات النفوذ الديني المتنامي لكل من رجال الكنيسة بمذاهبها كلها، من روسيا الأرثوذكسية شرقًا، إلى أوربا بغالبيتها الكاثوليكية وأمريكا بغالبيتها البروتستانتية غربًا،

---

(١) كتاب «أسلمة المعرفة: العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية» د. محمد علي أبو ريان دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م ص٨٤، ويلفت نظرنا إلى أن البعثات التي أرسلتها فرنسا علمانية سميت باسم البعثة العلمانية الفرنسية، وهو الاسم الذي تحمله مدارس الليسيه اليوم في مصر **Mission Laique francaise** ويقصد من وراء **Laique** أي: بمعزل عن الدين.

(٢) نفسه ص٨٦.

تكاتفًا مع حاخامات اليهود أيضًا كما أشرنا سلفًا[1].

الخلط بين العلمانية والعلم

والفكرة الأخيرة التي يجب مناقشتها عند الحديث عن العلمانية، هي صلة الإسلام بالعلم، لأن فكرة العلمانية تُطرح علينا بشكل ملحٍّ، بمفهوم أنها تعني الاهتمام بالعلم كطريق للتقدم الحضاري سواء الطبيعي أو الإنساني (ويقع الكثيرون ممن يطلق عليهم عادة اسم المثقفين في هذا الخلط، فما بالنا بالأفراد العاديين؟! وقد سارع «العلمانيون» إلى استغلال الالتباس ليوحوا بأن دعوتهم هي صنو العلم والمعرفة، وغير ذلك من القيم الإيجابية، وأن من يعارضهم هم دعاة الجهل والتخلف»[2].

وفات هؤلاء أن العلمانية تعبر عن واقع تاريخي ومرحلة مرَّت بها الحياة الدينية والثقافية الأوروبية على أثر الأزمات التي أحدثها رجال الكنيسة في وجه النظريات العلمية المنبثقة من الملاحظة والتجربة، والتي كانت مخالفة لتفسيرات الكتاب المقدس، إذ يصف لنا توينبي ذلك بالتفصيل فيقول: (فما برح العلم خلال مائتي عام ينتزع من الكنيسة مجالاتها، مجالًا بعد آخر، من ذلك أن العلم قد قبض على ناصية علوم: الفلك، أصل الكون، التاريخ، الأحياء، الطبيعة، النفس.. وأعاد العلم صياغتها على قواعد لا تتمشى مع التعاليم الدينية المقررة)[3].

ولم تظهر قط مثل هذه الأزمة في تاريخ الإسلام الحضاري حيث استوعب الإسلام النظريات العلمية التي اكتشفها العلماء من واقع الملاحظات والتجارب، وسيظل الأمر

---

(١) وكان بابا الفاتيكان قد صرح بمواجهة العلمانية حيث قال: (أوروبا بحاجة للقيام بجهود جديدة لمواجهة تتحدى العلمانية ليصبح المسيحي الحقيقي متعلقًا بدينه وتعاليمه وليس بأية أفكار أخرى من شأنها عزل الدين عن الدولة، واقتصار مداه على دور العبادة فقط) مجلة البيان، رجب ١٤٢٤هـ، سبتمبر ٢٠٠٣م ص٩٦.

(٢) د. محمد يحيى، في الرد على العلمانيين ص١٢ «ورقة ثقافية» الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

(٣) توينبي: مختصر دارسة التاريخ جـ٤ ص١٧٨/ ١٧٩.

كذلك، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن من يقرأ كتاب الله ﷻ يقف أمام العديد من الآيات الكونية، وأمام الآيات القرآنية التي تصف «الآيات» في الطبيعة، تقول كارين أرمسترونج أستاذ الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد: ويحثُّ القرآن المسلمين على بذل الجهد في مخيلتهم وفي أذهانهم على النظر إلى العالم من حولهم نظرة رمزية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وجاء ضمن تعليقها على موجبات هذه الآية، وغيرها في القرآن الكريم: ... إن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل، فالآيات موجهة إلى «قوم يعقلون» و«لقوم يعلمون» والقرآن يحث المسلمين على أن «ينظروا» إلى الآيات في العالم الطبيعي وأن يتدبروها بعناية، وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكي التي مكنت المسلمين من إرساء وتصوير تراث رائع في العلوم الطبيعية والرياضيات، ولم ينشأ في يوم من الأيام أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي[1].

ولم يُثر موضوع الخصومة بين الدين والعلم إذن لدى المسلمين قبل انتقال عدوى الفلسفة الأوروبية إليهم، فكان العلم عند المسلمين بمعناه العام ثمرة العقل والوحي، واقتصر التمييز فقط بينهما حول أهمية العلوم بحسب ثمرتها ووثاقة دلالتها، كالمقارنة مثلًا بين علوم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة علوم الدين الوصول إلى الحياة الأبدية، وثمرة علم الطب الوصول إلى الحياة الدنيوية، أو أن علوم الدين أصولها مأخوذة عن الوحي، والطب أكثر أصوله من التجارب. كذلك وضعت العلوم غير المتصلة بالعقيدة والفقه والأصول موضع المقارنة بينها وبين غيرها من العلوم؛ كالطب مع الحساب مثلًا، فللطب

---

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» ص١٥٣/ ١٥٤، ترجمة د. فاطمة نصر و د. محمد عناني، ط ٢ سطور سنة ١٩٩٨م بالقاهرة.

شرف الثمرة إذ هو يفيد صحة البدن، وللحساب وثاقة دلالة إذ كان العلم به ضروريًّا غير مفتقر إلى التجربة، وهكذا اتسع ميدان المعرفة أمامهم ولم يتعسفوا في الفصل بين الدين والعلم كما فعل أتباع العلمانية، وكانت همة علماء الإسلام منصرفة إبان عصور حضارتهم في طلب أنواع العلوم والإقبال عليها بجدية وحرص ونهم، أيًّا كانت طبيعتها، فنرى الراغب الأصفهاني يقرر أنه ينبغي ألا نترك شيئًا من العلوم أمكننا النظر فيه واتسع العمر له إلَّا ونسعى لطلبه، فإن ساعدنا القدر على التزود منه فبها ونعمت، وإلا عاديناه بسبب جهلنا به، فالناس أعداء ما جهلوا، ويُروى عن بعض الفضلاء أنه رُئي بعدما طَعِنَ في السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فسئل فأجاب: (وجدته علمًا نافعًا، فكرهت أن أكون لجهلي به معاديًا له) ثم ينصح كل عاقل ألا ينبغي الاستهانة بشيء من العلوم، بل يجعل لكلٍّ حظه الذي يستحقه ومنزله الذي يستوجبه، ويشكر من هداه لفهمه وصار سببًا لعلمه[1].

هذه هي حقيقة حضارتنا، تشكل فيها العلوم بأنواعها باقة من الزهور اليانعة، ولا يُسمح بقطع أغصانها والفصل بين فروعها.

ولكن لما انتقلت عدوى الصراع بين الدين والعلم إلى العالم الإسلامي -كأحد نتائج الغزو الثقافي، وحاولت إبعاد العقيدة الدينية والتخلي عنها بحجة إحلال العلم وحده بديلًا لها- اضطر علماء الإسلام للتصدي لهذه الدعوى فأثبتوا أن العلم في محيط الحقل التجريبي لا يُغني عن العقيدة الدينية شيئًا، إذ نجح العلم الحديث حقًّا في الإبانة عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لأسئلة أخرى، فمهما حقق لنا العلم من وسائل الراحة، وقدم لنا من مخترعات تيسر سبل الحياة وتذلل العقبات أمام الجهد الإنساني، فلا يمكن إهمال الأسئلة الدائرة بخلدنا مثل: مِنَ أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ ومتى؟ وكيف؟ أو مشاكل الحياة والموت، والخير والشر إلى غير ذلك مما تشكل استفسارات عجز العلم -وسيظل- عاجزًا عن تقديم الإجابة عنها، بل إنه تخلى عنها

---

(١) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١١١/ ١١٣.

طواعية لأنها خارجة عن نطاق بحثه[١].

المذهب الوضعي

يُنسب هذا المذهب إلى أوجست كونت الذي افترض ما يسمى بقانون الحالات الثلاث التي مرَّت بها البشرية، فبدأت بمرحلة التفكير اللاهوتي أو الخرافي، ثم مرحلة الميتافيزيقا المجردة وأخيرًا الحالة العلمية أو الوضعية[٢].

وقد تعرضت فلسفة كونت الوضعية لكثير من سهام النقد والمعارضة، استهدفت قانون الأطوار الثلاثة الذي قسَّم به تاريخ الإنسانية في تعسف واضح، إذ ثبت أن الصناعات اخترعت في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي، كما وجدت مشاهدات فلكية وأنواع من العلوم، كهندسة إقليدس وطب أبقراط وطبيعيات أرسطو في الدور الذي عدَّه فلسفيًّا، فإذا انتقلنا إلى الطور الوضعي وهو العصر الحديث فإننا نعثر على كثير من دعاة الدين والأخلاق والتأمل الميتافيزيقي بخلاف ما كان يظن كونت[٣].

كذلك قام الدكتور دراز بقلب قانون كونت المفترض رأسًا على عقب، إذ يقول: (إن النظرة الواقعية تقع في البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية؛ لأن مبعثها الحاجة العاجلة وصورة الحياة اليومية، وإنها وظيفة الحس لا العقل، ثم تنبثق بعدها نظرة التعليل بالمعاني العامة، وهي مرحلة النضج والكمال، وتأتي بعد المرحلة الأولى.

أما النظرة الروحية أو الدينية التي تخيل كونت أنها في أول المراحل فهي في الواقع تأتي في آخرها حيث لا تولد في النفس إلَّا بعد اتساع أفقها، حيث تتجاوز ظاهر الكون إلى ما ورائه.

وهكذا ينقلب ترتيب كونت الخيالي رأسًا على عقب؛ لأن الأوضاع الطبيعية

---

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى ص٣١ ترجمة د. عبد الصبور شاهين.

(٢) ليفي بريل «فلسفة أوجست كونت» ص٣١ ترجمة د. محمود قاسم، وَ د. السيد بدوي، مكتبة الإنجلو، بدون تاريخ.

(٣) د. توفيق الطويل.. أسس الفلسفة ص١٨٠/ ١٨١ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥م.

للحاجات النفسية تترتب - لا كما تصوره في مخيلته- ولكن كالآتي: حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح).

ويستطرد الدكتور دراز ليقوض دعائم الافتراض الكونتي بقوله: (على أن الذي يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات، وإنما هو دخولها جميعًا في كيان النفس الإنسانية، فكما أننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان)(١).

وصدق تنبؤ الشيخ دراز، إذ تشير الدراسات الأخيرة المعاصرة أن الدين بعامة يؤدي دوره في تغيير المجتمعات الإنسانية وقادة حركتها، ويتميز الإسلام بصفة خاصة بدوره الذي أثار العلماء والفلاسفة في الشرق والغرب لفاعليته وإيجابيته.

يقول الدكتور حامد ربيع: (يمكن القول بصفة عامة: إن الإطار الدولي المعاصر يملك مجموعة من العناصر جميعًا تدفع لخلق مناخ معين يسمح للإسلام بالإيناع الحقيقي، بحيث يمكن القول: بأن هذا الإطار هو تربة صالحة لاستقبال الإسلام ولتحقيق عملية إخصاب لم يُقدَّر للإنسانية في تاريخها الحديث من قبل أن تعاصر مثيلًا لها)(٢).

كذلك لم يدر بخلد كونت وهو يتخيل قانونه أن الحضارة الإسلامية لها تاريخها ومقوماتها المنبثقة من العقيدة، وأن ذروتها تحققت أيام السلف الصالح وفي الأزمنة التي ارتفع فيها المسلمون إلى مستوى هذا السلف، فهل يحق لنا إذن أن نصف الآخذين بقانونه في مجال الدراسات الإسلامية بأنهم مقلدون بل إنهم في ضوء حقائق العصر الذي نعيشه رجعيون؟!.

لقد كانت فلسفة كونت موقوتة بظهور النزاع في الغرب حول فصل الدين عن مجالات النشاط الإنساني ومقوماته، في ميادين العلم والأخلاق والاقتصاد والسياسة

---

(١) د. محمد عبد الله دراز «الدين» ص٨٩، دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
(٢) حامد ربيع «الإسلام والقوى الدولية» ص٣٣، ط. دار الموقف العربي- القاهرة ١٩٨١م.

وغيرها، بسبب ظروف وأوضاع خاصة، منها سلطان رجال الكنيسة وتدخلهم للوقوف في وجه الاكتشافات العلمية المخالفة لتفسيرات الكتاب المقدس، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى بأوجست كونت فيلسوف الاجتماع إلى القول بأن المسيحية انقضى زمنها ولا بد من الاستعاضة عنها بديانة أخرى، وظلت فكرته مصاحبة للجمهورية الفرنسية الثالثة التي فصلت بين الدين والدولة، ومن ثم فقد اعتقد أنه تم تحلل أجزاء الديانات من الوجهة العقلية، أي إنها لا تصمد أمام النظر العقلي.

ولكن مرد الخطأ هنا أنه إذا كانت هذه الظاهرة صادقة فيما يتعلق بالديانة المسيحية بأوروبا، فهي ليست كذلك بحال من الأحوال فيما يتعلق بتاريخ التفكير الإسلامي[١]، فمن الواضح لكل دارس محايد للتاريخ، أن المسلمين أقاموا صرح حضارتهم في دولتهم العظيمة التي امتدت -على عَجَل- من الأندلس إلى قلب القارة الآسيوية مارة بشمال أفريقيا كلها، تم بناءً على فهمهم الصحيح للإسلام واتباعهم لمنهج أسلافهم فهمًا وتطبيقًا[٢]، فإن الإسلام ليس مظاهر كهنوتية أو حياة منعزلة عن الواقع، بل هو نظام كامل للحياة يوجه الإنسان لكي يحقق كمالاته التي استحق بها خلافة الله تعالى في الأرض، أي يحصل لنفسه وللجماعة الإنسانية أيضًا أسمى درجة من الكمال الإنساني في الروح والخلق والمادة والعقل، وينظم علاقته بربه ﷻ وعلاقته بأخيه الإنسان في كل مظاهر الحياة)[٣].

وأخيرًا، يأتي القول الفصل والقرار النهائي من أوجست كونت نفسه حيث أصابته أزمة نفسية في نهاية عمره.

يصفه الدكتور رشدي فكار في هذه المرحلة بقوله: (وبدأ يقلب يمينًا وشمالًا وكان

---

(١) د. محمود قاسم، كتاب مبادئ علم الاجتماع لروجيه باستيد ص٣٣٨، ط. ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

(٢) جوستاف لوبون، سر تطور الأمم ص٩٤، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١هـ - ١٩١٣م.

(٣) د. محمود عبد الله، موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري ص٣٠ «كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة».

رائعًا أن يرشح في النهاية دين الإسلام كدين وضعي للحالة الوضعية، وقال: إنه لا يمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلَّا الإسلام؛ لأنه دين عَارٍ من الحماقات، يتميز ببساطته وعقلنيته وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله)[1].

ويضيف إلى ذلك أيضًا أن كونت يرى أنه إن كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الإسلام، فحينما يسود العلم، فسوف يبحث عن الإسلام وهاهي العقول القادرة الآن في الثمانينات تتساءل حول الإسلام، وسوف يتبلور هذا الأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شدة تأزم الإنسان[2].

---

(١) د. رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر، ص٥٩، خميس البكري، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٢) نفسه ص٤٥.

ثانيًا: حملات تشويه الإسلام بأقلام المستشرقين وأبواق أجهزة الإعلام الغربية

حملات تشويه الإسلام

إن ظاهرة العداء للإسلام بخاصة من خارج عالمه لا تخفى على أحد، وهو الدين الوحيد دون غيره من الأديان الموضوع في قفص الاتهام، الموصوف بأسوأ الصفات من أناس أعماهم الحقد، ووضعوا على أعينهم غشاوة فأعمت أبصارهم.

وتجري عملية تشويه الإسلام على قدم وساق في أجهزة الإعلام في الغرب استمرارًا للعداء المتوارث منذ الحروب الصليبية، تقول كارين أرمسترونج: (وفي يومنا هذا تلهو الكتب وبرامج التليفزيون بإبراز عناوين مثل: حنق الإسلام، وسيف الإسلام، والحنق المقدس، والرعب المقدس. لكن هذا تشويه للحقيقة)[1].

ويأتي هذا التعليق في موضعه تمامًا بعد إبداء دهشتها من تلقيب الإسلام في الغرب بدين السيف منذ العصور الوسطى (رغم أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة الخاصة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت)[2].

وقد وقف المدافعون عن الإسلام لإزالة الشبهات ورد كيد الكائدين إلى نحورهم: فمنهم الأستاذ العقاد الذي كتب منذ الستينات في القرن الماضي مبديًا استياءه من تحامل كُتَّاب الغرب -المستشرقين وغيرهم- على الإسلام، وكأن «علم مقارنة الأديان» أصبح عندهم هو إفراز لنفوس حاقدة عجزت عن اتخاذ الموضوعية منهجًا للبحث والدراسة.

وللإنصاف يصف بعض الباحثين في الغرب من طلاب العقيدة الذين داخلهم الشك في عقائدهم التي ولدوا عليها وغلب عليهم الإيمان بأن الشرق هو مصدر الأديان، ومنهم من وقعت الجفوة بينه وبين رؤساء دينه فاصطنعت أقواله عن الإسلام وتاريخ الأمم الإسلامية بحماسة تشبه حماسة المؤمن بدينه وإن لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين

---

(١) محمد ﷺ ص٢٤٧.

(٢) نفسه.

بالعقائد الإسلامية[١].

فيما عداهم، يندر الإخلاص في مؤلفات القوم، فمنهم «سماسرة التبشير» الذين يتخذون تشويه الإسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها إلى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والأمريكية[٢].

ومنهم المحترفون المهرة في فنون الدعاية وتمويه الواقع وتلبيس الحق بالباطل (ولا نبالغ في التقدير إذا قلنا: إن تسعة أعشار المبشرين المحترفين في العصر الحاضر من هذا القبيل)[٣].

معللًا ذلك بقول الدكتور جونسون: (إنه الديانة الوحيدة التي تعد على الدوام تحدِّيًا أو مناجزة لجهود التبشير والمبشرين) وتتخطى رؤية العقاد عصره عندما يتنبأ منذ نحو أربعين سنة بما نعاني منه الآن بوصف الإسلام بالخطر عليهم، معللًا ذلك بدعاية كل من الطائفتين: طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار[٤].

ويسجل طابع التفرقة العنصرية لحضارة أوربا بقوله: (فقد لوحظ أن مستشفيات الصليب الأحمر كانت تهمل الجرحى المسلمين أثناء حملة فلسطين وتميز عليهم الجرحى اليهود، ويحدث هذا في المستشفى الواحد بغير مبالاة ولا محاولة الاعتذار عن هذا التمييز[٥].

ثم جاء الدكتور عبد الرحمن بدوي في عام ١٩٩٣م ليسجل نفس الظاهرة التي لوحظ أنها استفحلت واتسع نطاقها، فلم يفلت القرآن والرسول ﷺ والشريعة والتاريخ والحضارة من الهجوم العدائي السافر المتبجح.

---

(١) العقاد «ما يقال عن الإسلام» صفحات ٨، ٩، ٥٢، ١٢. ط دار الهلال سنة ١٩٧٠م.

(٢) العقاد .... نفسه.

(٣) العقاد .... نفسه.

(٤) العقاد .... نفسه.

(٥) العقاد .... نفسه ص٦٤.

لقد استقرأ الدكتور عبد الرحمن بدوي من مؤلفات كُتّاب الغرب مواقفهم المعادية للإسلام وفق منهج وثائقي موضوعي، وكان هدفه (كشف القناع عن العلماء المزعومين الذي قدموا الضلال والخداع لشعب أوروبا ولغيره من الشعوب الأخرى)[١].

ويقول في كتابه: «دفاع عن محمد ﷺ ضد منتقصي قدره»: في الواقع إن دعوى الموضوعية عندهم تبدو في أبهى صورها جزئية، ومنهجهم الذي يسمونه نقديًا علميًا يتكشف عن سراب خادع.

وقد أصدر هذا الحكم بعد اطلاعه على الأعمال التي كُتبت لأهداف دفاعية خاصة بإثبات عقائد النصارى، أو أعمال من سمّاهم بالموتورين.

ويقول في كتابه «دفاع عن القرآن ضد منتقديه»: فإنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر يبذل هؤلاء المستشرقون كل ما في وسعهم ليبدوا موضوعيين في كتاباتهم وفي جعل كتاباتهم أكثر دلالة وأكثر جدية وموضوعية، وأكثر تدقيقًا في المنهج اللغوي، لكن دون فائدة؛ ذلك لأن الدوافع الداخلية التي تضطرم بالحقد في قلوبهم ضد الإسلام وكُتّاب الإسلام المقدس ونبي الإسلام ﷺ ظلت كما هي بل زادت تأججًا.

ويأتي تسجيل هذا الواقع المؤسف أيضًا من عالمة مقارنة الأديان أرمسترونج، فتصف أفكار الغربيين بأنها كانت وما زالت فجّة ورافضة، وتبدي دهشتها من تناقضهم بين الالتزام المعلن بالتسامح والتراحم وبين الواقع، وتعلل ذلك بضعف أساسي للحضارة الغربية وللمسيحية في العالم الحديث يتمثل في (عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب، ليس مع من هم أدنى منهم، بل مع أنداد لهم»[٢].

ولكن رُبَّ ضارة نافعة، إذ يرى الدكتور جمال حمدان أن حملات التشويه والإساءة للإسلام دال على الاعتراف بأن العالم الإسلامي «ليس جثّة هامدة أو كمًّا مهملًا» آملًا ارتفاعه إلى مستوى التحدي واستثارته ليثبت ذاته ونديته (ويفرض احترامه والاحترام

(١) ص٨ الدفاع عن القرآن ضد منتقديه.

(٢) محمد ﷺ ص٣٩٣، سبق بيانه.

المتبادل والمساواة المتبادلة؛ ليبدأ سلام الشجعان وصلح الفرسان، وربما تكون هذه العداوة هي مفجر الفرصة والنجاح»[1].

---

(١) د. جمال حمدان: «صفحات من أوراقه الخاصة» ص١١٦، ط دار الغد العربي سنة ١٩٩٦م إعداد وتقديم د. عبد الحميد صالح حمدان، ويقول ص١٣٩: (كان الغرب يتحدث عن الخطر الأحمر أي الشيوعية فابتكر الآن تعبير «الخطر الأخضر» إشارة إلى خطر الإسلام، ويتوقع د. مصطفى محمود أن السنين القادمة هي ملحمة الإسلام في ظهوره الثاني، وما نرى الآن من أحداث هي بشائر ولوائح وعلامات «سقوط اليسار ص١٠٨» دار المعارف سنة ١٩٩١م.

الفصل الأول
منهجنا في البحث

تبين لنا أن الساعين لدارسة الإسلام من منظور غربي علماني، أو بمنطق الفلسفة الوضعية، سيؤدي إلى خلط المفاهيم، ومن ثم سيتعذر التقييم الحق للإسلام ومعرفته المعرفة الحقَّة كدين خاتم، دعامته الوحي الإلهي المحفوظ بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، ومحافظته على الحضارة الإسلامية طيلة نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان.

كما تبين أيضًا أن حضارة العصر كابدت الأهوال عندما ألقت بالدين وراء ظهرها، واستبدلته إمَّا بالروحانيات العلمانية -كما تسميها أرمسترونج- أو بالأيديولوجيات وخاصة الماركسية، ففي فشلهما الدليل الساطع على قصور العقل البشري عن وضع الأنظمة للحياة الإنسانية.

وبتحليل أكثر بيانًا لم تفلح اختراعات العلمانية في الاستغناء عن الدين، فقد أخذ الأفراد في الغرب -كما تذكر أرمسترونج- يطورون روحانية علمانية ويسعون -عن طريق الأدب والفن أو الممارسات الجنسية والتحليل النفسي والمخدرات أو حتى الرياضة- وراء حسٍّ بمعنى متسامٍ يُضفي على حياتهم القيمة ويصلهم بتيارات أعمق للوجود كان من عادة الديانات السماوية أن تكشفها[1].

ولكن خابت الآمال في شغل الفراغ الذي كان يشغله الدين، بل كانت النتائج وخيمة؛ لأن التعليم العقلاني لم يقضِ على البربرية، إذ لقي سبعون مليون شخص في أوروبا والاتحاد السوفيتي حتفهم فيما بين عامي ١٩١٤ و١٩٤٥م، كما فُجرت أول القنابل الذرية في هيروشيما وناجازاكي باليابان، فاتضحت القوة المرعبة للعلم (والجرثومة العدمية التي تتواجد في قلب الحضارة الحديثة)[2].

---

(١) معارك في سبيل الإله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، ص٣١٦-٣١٨، كارين أرمسترونج ترجمة د. فاطمة نصر، و د. محمد عناني. ط. كتاب سطور ٢٠٠٠م.

(٢) معارك في سبيل الإله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»، ص٣١٦-٣١٨، كارين أرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر، و د. محمد عناني. ط كتاب سطور ٢٠٠٠م.

ونخلص من هذا أن بني آدم في حاجة إلى مصدر آخر للمعرفة، ونظم الحياة خارج نطاق العقل الإنساني وأسمى منه، وهذا ما نعنيه بالوحي الذي أتى به الأنبياء والرسل عليهم السلام[١].

وربما نحتاج إلى وقفة لنميز بين «الفلسفة» أيًا كانت مذاهبها كنتاج إنساني كان ثمرة الفكر اليوناني القديم والأوروبي الحديث، وبين «الاستدلال العقلي» الذي يعتمد على البدهيات والأوليات المنطقية، ويستخدمه المسلم المعاصر متحررًا من آصار الفكر الفلسفي الذي فُرض علينا فرضًا عقب الاستعمار الأوربي.

أجل، فقد فرضت أوروبا المنتصرة أرسطو «أستاذًا للفكر الإنساني» إلى يومنا هذا دون أن يتنبه أحد إلى أن تعاليم «الأستاذ» أو «المعلم الأول» لم تنجب إلَّا جنرالًا فاتحًا مستعمرًا وغازيًا وإمبراطورية قامت على أنقاض الاستقلال وحرية وإرادة الشعوب.. إلَّا أن هذا العمى لم يكن عن غفلة وإنما لكي يُتَّبَع وهو أيضًا الذي صاغ جوهر الفكر الغربي ومفاهيم الحضارة الغربية عن الخير والشر والإنسان وحقوق الإنسان.. فالحرية والتحرر والعدل.. إلخ، لا تتعارض في المفهوم الغربي منذ أرسطو إلى اليوم مع غزو واسترقاق أو حتى إبادة البرابرة «أي شعوب الشرق» ومن يومها والحضارة الغربية تؤمن بأن رسالتها الإنسانية ونشر الحضارة يتطلب إدخال «المتخلفين» عنوة تحت سيطرة هذه الحضارة، فقد كان حلم الإسكندر كما يؤرخه الغربيون إلى اليوم، وعلى سبيل الفخر ومدح الإسكندر بأنه كان (أول زعيم عالمي يأمل أن يتوحد العالم يومًا تحت حكومة واحدة»[٢].

فهل تحقق حلم الإسكندر فيما نعيشه الآن تحت مظلة «النظام العالمي الجديد»؟ أما

---

(١) يعرف اسبينوزا النبوة بقوله: (النبوة أو الوحي هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما) ص١٢٣ ونحن لا نقره على آرائه الأخرى عن الأنبياء، ولكن يكفينا إقراره بأن الوحي معرفة يقينية، وبذلك يختلف عن «الظن» عند الفلاسفة، كتاب «رسالة في اللاهوت والسياسة» ترجمة وتقديم د. حسن حنفي، ومراجعة د. فؤاد زكريا، المطبعة الثقافية ١٩٧١م.

(٢) مقال بعنوان «المواجهة الأبدية بين الإسلام والغرب»، محمد جلال كشك مجلة «رسالة التوحيد» ص١١ ربيع ثان ١٤٠٦هـ القاهرة.

فلسفة أرسطو، فقد تركت أثرًا لا يُنكر في الفكر الديني هناك، لا سيما في الأب توما الأكويني ١٢٢٥/ ١٢٧٤م، وهو أعظم الفلاسفة المدرسيين جميعًا، ففلسفته تُدرَّس في جميع المعاهد التعليمية الكاثوليكية التي تعلِّم الفلسفة... وهو في معظم الموضوعات يأخذ برأي أرسطو أخذًا أمينًا[١].

كبل المسلمين لعدة أجيال، ومن ثم يصبح هدفنا الأول هو التحرر الحقيقي بالعودة إلى الذات، ومعرفة حقيقة أمتنا ورسالتها بناء على المعرفة الصحيحة لعقائدنا بالمقارنة بغيرها[٢].

ولتحقيق هذا الهدف فأمامنا طريقان:

الأول: الخضوع لحقائق الوحي والعمل على ضوئه بدل الفكر الفلسفي بقصوره وضعفه وأهوائه الذي فُرض على مناهجنا التعليمية وأقحم على ثقافتنا أيام الهيمنة الاستعمارية.

الثاني: اتباع المنهج العلمي الصحيح لمقارنة الأديان الذي خطَّه علماؤنا، وسبقوا به غيرهم فاعتمدوا على حقائق الوحي الإلهي فحافظوا عليه وصانوه بأدق مناهج علمية عرفتها البشرية وميزوا بين الدين الحق وغيره، فإننا كما يحدد ابن حزم لا نصدق في ديننا بشيء أصلًا إلَّا ما جاء في القرآن وما صحَّ بإسناد الثقات، ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى

---

(١) رسل: تاريخ الفلسفة الغربية جـ٢ ص٢٣٤.

(٢) هذا، وقد عمَّت البلوى فأصبح أغلب مثقفينا يدرسون الدين والتاريخ والحضارات وعلوم النفس والتربية والسياسة والاجتماع بمناهج الغرب، بل لم تسلم اللغة والأدب أيضًا، مما دفع بالدكتور عبد العزيز حمودة عند الحديث عن مفردات الحداثة الغربية إلى القول: (وإذا كنا ننشد الأصالة فقد كان الأحرى بنا أن ننحت مصطلحنا الخاص بنا، النابع من واقعنا بكل مكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ لأن الهوَّة بين الواقعين الغربي والعربي واسعة سحيقة، لا يكفي الادعاء الأجوف بإقامة جسور فوقها لأن ينسينا إدراك الاختلاف، وحينما ننسى ذلك الشعور بالاختلاف نقع في المحظور؛ لأننا نتناسى مجموعة من المحاذير التي تجيء مع هذا الإحساس بالاختلاف).
ص ٣٤ من كتابه «المرايا المحدَّبة- من البنيوية إلى التفكيك» سلسلة كتاب «عالم المعرفة -الكويت» رقم ٢٣٢ ذو الحجة سنة ١٤١٨هـ - أبريل سنة ١٩٩٨م.

رسول الله ﷺ فقط، وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل)[١].

وأتى ابن الجوزي ٥٩٧هـ بعد ابن حزم ليؤكد ضرورة الاستناد إلى الأدلة في البحث عن الدين الحق، لا على مجرد العادات وتقليد الآباء، فبالدليل نميز في الشرائع بين ما يصح وما لا يصح، وإذا أثبتنا الإله فينبغي أن نعرف بالدليل ما يجوز عليه مما لا يجوز[٢].

(١) الفصل جـ١ ص٢٢٤، مكتبة المثنى بغداد.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٢٤٩ تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٩م.
ومن المتفق عليه عند أمثال ابن حزم وابن الجوزي والعامري وابن تيمية وغيرهم أن الأدلة الشرعية كافية بذاتها في مخاطبة العقول، ولم يلجئوا إلى طلب العون من الفكر الفلسفي كما حدث في التاريخ الديني لأوروبا، فقد احتل الوحي الدرجة العليا عندهم مصدرًا ومنهجًا، يقول ابن تيمية: (... بل إن غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه) موافقة صحيح المنقول ... جـ١ ص١٤.

العودة إلى العقائد الدينية من جديد
«بحث في الظاهرة وقضاياها»

قلنا: إن فشل الأيديولوجيات يعني أن الفكر البشري -الذي أثمر الماركسية والوطنية والديمقراطية والقومية وغيرها- عاجزٌ عن تحقيق الحياة المحققة للإنسان سعادته، ولا سيما بعد أن أخذت هذه الأيديولوجيات أشكالًا جديدة في النصف الأخير من هذا القرن، كما يصفها الدكتور رشدي فكار.

وما دامت التجارب التي استغرقت عدة أجيال قد باءت بالفشل، فقد عادت البشرية إلى العقائد الدينية من جديد، وأصبحنا نعيش في ظل «اليقظة الدينية»، حيث تتطلع المجتمعات الإنسانية إلى ما هو خارج عن نطاق العقل والتجارب التي خضعت للأهواء والمصالح، ولم تعد تعبِّر عن قيم ومعنويات، ويذكر الدكتور رشدي فكار: (أن الأيديولوجيات أخذت تتجه أكثر فأكثر في الدولة المتقدمة إلى «المصلحية»، بمعنى أنه لم يعد لها هدف قيمي إنساني بقدر ما هي مجرد تبرير لمصلحة أي نفع استهلاكي أو ربح إنتاجي» ويقول: (لنتدبر ونعمق النظر في المجتمعات الصناعية الكبرى .... تجري الانتخابات تلو الانتخابات وتنتصر شعارات على شعارات وحقائق المجتمع هي هي.. المحافظون والعمال في إنجلترا، الديمقراطيون والجمهوريون في الولايات المتحدة، وحتى في المجتمعات التي تزاول ما يسمى بالديمقراطية المباشرة في ظل النظم الموجهة نجد أيضًا أن الأيديولوجيات تبريرية مصلحية) وهكذا، إلى أن يوضح في النهاية أن القضية تحولت إلى مجرد شعارات، ويختتم عبارته بقوله: (ومستودعات الشعارات موجودة تخرج منها الشعار المناسب للوقت المناسب)[1].

وإذا كان الدين هو الذي يتقدم في العصر الحاضر لكي ينقذ البشرية من أزماتها، فأي دين يحمل الرسالة الصحيحة المحققة لأهداف الإنسان في هذه الحياة وما بعدها؟

إننا نحتكم إلى العقل وأحكامه في إثبات الوحي والنبوة، وما يتصل بهما من بناء

---

(١) د. رشدي فكار: الشباب وحرية الاختيار ص٩ «كتاب المختار» بدون تاريخ رقم (٤) سلسلة «نحو طلائع إسلامية واعية».

عقائدي وأخلاقي يرتقي بالإنسان إلى المكانة اللائقة به، ويضع له الأنظمة في مسالك حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكفيلة بتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا.

ولنصل إلى نتائج في هذا الغرض؛ علينا أن نتدرج في تقديم البراهين واضعين نصب أعيننا اجتياز المراحل الثلاث الآتية:

١ - نظرية المعرفة ووسائل الإدراك الإنساني

إذا كانت المعارف والعلوم الدنيوية تحتاج إلى التجارب القائمة على الحس والمشاهدة والعقل، فهل تسري على الحقائق الدينية نفس الوسائل؟

تتطلب الإجابة عن هذا السؤال تشخيص وسائل الإدراك الإنساني لكي نقتنع بأن القضايا الدينية تسمو بحقائقها ووسائل إدراكها الأرقى والأوثق من الحس والمشاهدة والعقل.

ومن المقرر بين العلماء أن علم الإنسان: (جزئي، زمني، فإنه حادث لم يكن من قبل فإنه لا يدون ولا يبقى، بل يزول بأضداده، وبآفات مثل بطلان الحاسة والنسيان، وجزئي في البعد والمسافة، لا يرى ولا يسمع إلَّا من قريب ولا يرى إلَّا المقابل، وجزئي من حيث المتعلق، لا يعلم الإنسان إلَّا بالصورة والمثال)[1].

هذا فيما يتعلق بوسائل الإدراك، أما عن المصدر فإن الله تعالى هو خالق الإنسان، وهو سبحانه الذي علمه ما لم يعلم، يقول الأستاذ جار الله في تفسير قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، أن علم الإنسان وعلم الملك بالأسامي فقط، أما الحقائق فلا

---

(١) موسى جار الله، الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص١٢: ١٣ ط لاهور، باكستان ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م. ويقول ابن خلدون: (واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها والأمر نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه) ثم يضرب أمثلة بالأصم والأعمى وينتهي إلى تقرير أن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول الوجود أوسع نطاقًا من ذلك والله من ورائهم محيط ...) الفصل العاشر، في علم الكلام.

يعلمها لا بشر ولا مَلَكٌ؛ لأن التعليم والإنباء لم يتعلق إلَّا بالأسامي في الآية الكريمة[١].

وما دامت وسائل الإنسان قاصرةً عن معرفة الحقائق، وفي قمتها عالم الغيب فلابد من وسائل أخرى للمعرفة، بما يدخل في نطاق عالم الغيب.

ثم جاء العلم الحديث ليدعم فكرة قصور وسائل الإدراك في الإنسان مما ينبثق عنه ضرورة وجود عالم آخر، ومن ثم فقدَ المحتجون بالعلم إنكار عالم الغيب أمضى أسلحتهم، إذ لا يستندون إلى دليل «علمي».

ويقرر وحيد الدين خان أن مقولة أنه لا إيمان إلَّا بالمشاهدة مقولة مجردة من النظرة العلمية، ثم يستطرد فيرى أن القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحي والإله ما لم نشاهدها بأعيننا في وضح النهار ... أن كل ذلك مخالف للعلم الحديث، فإنه لأول مرة في التاريخ المعلوم حدث أن العلم الإنساني أثبت بنفسه أن: «علم الإنسان محدود»، وأنه سيظل «محدودًا».

ثم يبين أثر ذلك على الإيمان حيث يريد الإنسان الوقوف على حقيقة الكون، ولكنه يعجز بسبب محدودية إدراكه، مما يدل على أن الإنسان يحتاج إلى مرشد أعلى (وبتعبير آخر: إن هذا الاعتراف الذي أثبته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات السماوية للإنسانية كلها[٢]، وذلك كما رأينا بسبب قصور وسائل الإدراك الإنساني.

ونحن نرى أن الإقرار بهذه النتيجة الواقعية الملموسة لا يتعلق بعصر دون آخر، ولا بأمَّة دون أخرى، بل هي ثابتةٌ في تاريخ الإنسان قديمًا، وثابتةٌ في واقعه المعاصر، كذلك

---

(١) موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، ص٩ وعلم الملك: (نوع من الإدراك وليس المقصود به الأسماء). يُنظر أيضًا كتاب «السموات السبع» للدكتور، محمد جمال الدين الفندي حيث يقول: (إذا لم تعد الغيبيات التي نعبِّر عنها بعالم ما وراء الطبيعة من الأشياء المنبوذة علميًّا أو التي يمجها العلماء كما كان الحال من قبل، خصوصًا وأن العلم يعجز عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة وعن كشف اللثام عن أصل الأشياء وكنهها) ص٩، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢) وحيد الدين خان، قضية البعث الإسلامي، المنهج والشريط ص١٤٩ دار الصحوة، ترجمة محسن عثمان الندوي، ومراجعة د. عبد الحليم عويس ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

فإنها تتعلق بالإنسان بما هو إنسان، أي خارج الأوطان والقوميات والحضارات مهما ارتقت وتقدمت في العلوم والمعارف.

ولابد هنا من التنويه بالدراسة العلمية الموثقة للدكتور مهندس: محمد الحسيني إسماعيل، حيث استخلص من بحثه للمراحل التي تبلورت فيها العقيدة المسيحية في شكلها النهائي الحالي عبر المجامع الكنسية، متخذًا من هذه المجامع التي حضرها آلاف المشتركين من أساقفة ورجال دين ورجال فكر وفلاسفة شاهد الصدق التاريخي، على قصور الفكر البشري تجاه الدين، وكان من عناية الله لأ ألا يترك أمرًا من أمور الدين للإنسان حتى لا يضل ولا يضلل (ولهذا كان قوله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أي لا اجتهادات متروكة للإنسان تجاه النص الإلهي، كما لا توجد أدنى مسئولية تقع على عاتق الإنسان، لا في صياغة النص الإلهي ولا في حفظه، فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بهذا وذاك)[1].

وله دراسة ثانية بنفس المنهج بكتابه: «الدين والعلم وقصور الفكر البشري»، إذ نوَّع فيه الأدلة متسلحًا بمخزون من النظريات العلمية الفيزيقية والرياضية، مع اطلاع عميق للمذاهب الفلسفية اليونانية والحديثة والمعاصرة، فضلًا عن استيعاب تعاليم الديانات الأخرى من مصادرها وتبع تطوراتها التاريخية.

والكتابان جديران بعناية الباحثين في علم مقارنة الأديان، وخلاصتهما تمثلان فتحًا جديدًا في دراسة الأديان بالمنهج العلمي الدقيق.

وما دام تاريخ البشرية المدون قد أثبت وجود الرسل والأنبياء بالتواتر وآخرهم موسى وعيسى ومحمد -صلوات الله عليهم- فإن المصدر الأصلي للدين الصحيح هو الوحي، وليس خيالات الفلاسفة الزاعمين التلقي عن طريق الإشراق أو الاتصال بالعقل الفعال، ولا تنبؤات الكهنة الذين أفسدوا العقائد والأديان.

---

(١) الحقيقة المطلقة... الله والدين والإنسان، دكتور مهندس: محمد الحسيني إسماعيل ص٢٥١-٢٥٢. مطابع الأهرام سنة ١٩٩٥م.

وإذا اتضح ضرورة الوحي كمصدر للعقائد الدينية الصحيحة ومتعلقاتها من معارف يقينية، وأوامر ونواهي إلهية لتقويم الإنسانية، فما هي عوامل الانحراف عن الدين الصحيح، وأشكاله التي نراها في المجتمعات؟

٢- بعض عوامل انحراف الأديان وأشكاله

إن ما يثير التأمل عند الحديث عن الكهنة (أو رجال الدين الزاعمين بأنهم وسطاء بين الله والناس» أن بعض الانحرافات في العقائد الدينية أفسدت بسبب هؤلاء.

أ- فقد قالوا العبارة المشهورة: (الكاهن نائب الله، والملك ظِلُّ الله في أرضه)، والأمثلة على ذلك نلاحظها في الهند حيث كان الإله تحت اسم «برهما»، ولكن انحدرت العقيدة هنالك إلى الظن بأن «برهما» حل في «الرهماثان»، وهو رئيس الكهنة حلولًا وراثيًا يتوارثه بعد الكاهن الأعظم من يحل محله، وبتوالي الأجيال أصبحت الطبقة أعلى من غيرها، ثم اخترعوا نظام الطبقات.

ولما جاء «بوذا» ليحارب نظام الطبقات ثم مات، ظهر الكائن الذي ينوب عنه (ولم يقف الأمر عند هذا الحد أيضًا، بل أقيمت لبوذا تماثيل وأصنام تعد بالآلاف، وطبعًا حلت روح بوذا -ليس في الكاهن فقط- وإنما في الكاهن والصنم»[1].

ب- ومن فكرة الحلول انبثقت عقيدة تناسخ الأرواح والشرك في آن واحد حيث تحل روح الميت المقرب للكهنة -وهو مقرب بالضرورة للآلهة- في جسد نقي طاهر، (بعكس الأشرار الذين ليسوا بكهنة وأبناء كهنة، فإن أولئك يتقمصون أجساد الحيوانات)[2].

كذلك نرى تجسيد تميز طبقة دينية على غيرها سلطانًا ونفوذًا، نراه في النظام الكنسي، الذي يوسط رجال الدين بين الله والعباد حيث جاء الإسلام بإبطاله، يقول جارودي:

---

(١) الدين والفلسفة والعلم، السيد محمود أبو الفيض المنوفي، ص١٠١، ط. دار الكتب الحديثة بالقاهرة، بدون تاريخ.

(٢) المرجع نفسه ص١٠٢.

(لقد استبعد القرآن على سبيل المثال ملكية الحق الإلهي الاستبدادي، بالمعنى الغربي للكلمة؛ لأنه لا يوجد في الإسلام كهنة ولا كنيسة مؤهلة قانونيًّا بالتكلم وبالحكم باسم الله)[١].

جـ- ويلحق بالكهنة أيضًا المتنبئين الكذبة[٢] وهم أحد منابع الفساد في الأديان، حيث يزعمون أنهم كالأنبياء، وأنهم يأتون بالخوارق والمعجزات ويفتنون الأتباع بأعمال السحر وخوارق العادات.

وكان ذلك دافعًا لعلماء الإسلام من تحذير المسلمين من فتنتهم، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن تيمية الذي أوضح بإسهاب الفروق بين الأنبياء وبين الكهان والسحرة وغيرهم من أصحاب الشعوذة، شارحًا الفروق المميزة بين الأنبياء الصادقين وغيرهم، نجملها باختصار فيما يلي:

---

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص٨٤، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان، بيروت- دمشق ١٩٨٣م.

ويقول المهتدي إلى الإسلام أحمد سامي عبد الله: (ولقد تركت الركوع والسجود للمسيح وبعض البشر من الكهنة والأساقفة والبطاركة والقمامصة الزاعمين أنهم أكثر قرابة إلى الله وأنهم الوسطاء في مغفرة ذنوب البشر..) ص٢٧ من كتابه «ولماذا وكيف أسلمت» ط. رابطة العالم الإسلامي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) وبعض دجاجلة الصوفية، وتحت عنوان «الغش والتدليس في الديانات» يذكر ابن تيمية ألوانًا منها، ويضيف إليها الدين، يظهرون الخزعبلات السحرية والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات ليصد بها عن سبيل أو يظن بها الخير فيمن ليس من أهله، ص٥٤ من كتاب «الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية»، تحقيق صلاح عزام، دار الشعب فبراير ١٩٧٦م.

كما ينطبق التحذير أيضًا على كل من يخالف طرق الأنبياء والرسل في العصور المختلفة، بما في ذلك العصر الحاضر، كما سيأتي، وإذا كان جلُّ نقد شيخ الإسلام مقتصرًا على ما عرفهم في عصره كشخصيات الكهنة المشركين وأهل البدع من أهل الملل، فقد ظهرت شخصيات أخرى، لا تتبع نفس الطرق والحيل، ولكنها تشترك مع أسلافها في الهدف والمرمى، حيث تصرف الشعوب والأمم عن طريق الأنبياء والرسل وتدعو لاتباع مذاهبها وفلسفاتها ونظمها المخترعة.

أولًا: يُخبر الأنبياء بالصدق ولكن الكهان يكذبون.

ثانيًا: أن الأنبياء لا تأمر إلَّا بالعدل ولا تفعل إلَّا العدل، وهؤلاء المخالفون لابد لهم من الظلم.

ثالثًا: تأتي آيات الأنبياء على خبر الله تعالى وأمره على حكمة فتدل على أنهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوتهم سواء كانوا هم المخبرون أو غيرهم، ولكن السحر والشعوذة التي أتى بها الكهان أمر معتاد لغير الأنبياء.

رابعًا: لو افترضنا جدلًا أن الأنبياء والنبوة تنال بالاكتساب فإنها تنال بعبادة الله تعالى وطاعته، وهي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل، بينها تحصل الخوارق لمخالفيهم مع الكذب والإثم.

خامسًا: إن أفعال الكهان والمشركين أمور مقدورة للإنس والجن، وآيات الأنبياء لا يقدر على مثلها لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

سادسًا: إمكان معارضة ما يأتي به السحرة والكهان، وآيات الأنبياء لا يمكن لأحد معارضتها.

سابعًا: تأتي آيات الأنبياء مؤيدة لصدق أصحابها، وتأتي آيات مخالفيهم دالة على كذب أصحابها.

ثامنًا: إن آيات الأنبياء لا يقدر عليها مخلوق -حتى الصالحون- أي آيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين.

تاسعًا: لا تأتي خوارق الأنبياء بناءً على أفعالهم، بل الله تعالى يفعلها آية وعلامة لهم، فأمر الآيات إلى الله تعالى لا إلى اختيار مخلوق، والله سبحانه وتعالى يأتي بها بحسب علمه ومشيئته ورحمته كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق ما يشاء من المخلوقات، ولكن الخوارق ليست آيات، فتارة تكون بدعاء العبد، والله تعالى يجيب المضطر- وإن كان كافرًا، وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه وبمن يطيعه من الجن

والإنس في حصولها، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك.

عاشرًا: أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلَّا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده، والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء، وأما الكهان والسحرة والمشركون وأهل البدع من أهل الملل فإنه يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء، فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

حادي عشر: أن النبي هو وسائر المؤمنين لا يُجبرون إلَّا بحق، ولا يَأمرون إلَّا بعدل فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، ولا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك، ولا القول بغير علم، فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلَّا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

وكما أنهم لا يختلفون، فلا يناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم واحد -وإن تنوعت الشرائع- فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية الصحيحة التي كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم، وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة، لا يناقض بعضها بعضًا، والكهنة يأتون بخلاف ذلك[1].

تكفينا إذن هذه الموازين أو بعضها لنستخدمها في التمييز بين الرسل وأتباعهم من هداة البشرية إلى الحق والخير، وبين المضللين أيًا كانت صفاتهم وأفعالهم.

ومهما اختلفت شخصيات المعاندين للرسل فإن المعارك ما زالت دائرة، كل ما هنالك أنها تأخذ أشكالًا وصورًا أخرى على مدى العصور؛ فإذا كان الإمام ابن تيمية يتصور المعارك الدائرة في عصره ويحذر من مدعي النبوة والكهنة الكذبة، فإن الإمام أبو الحسن الندوي في عصرنا الحاضر يحذرنا من صنوف جديدة من البشر تحاول بدورها

---

(١) النبوات ص٣٠٠-٣٠٣ المطبعة السلفية بمصر.

أيضًا أن تسلك بالأمم والشعوب طرقًا غير طرق الأنبياء والرسل (فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة -مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء -إلَّا بثورة قادتها على تعاليم النبوة والأنبياء وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون واستغنائهم -وبالأصح استكبارهم- عن ما أكرم الله به النبي العربي الأمي ﷺ)[1].

وفي ضوء هذه الإيضاحات يتحصن المسلم فيميز بين الحق والباطل مهما تعددت صوره ويفلت من خداع الكهنة والدجاجلة وأمثالهم الذي يفتونون الناس بحيل الدجل والسحر.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رأي فريد أيضًا في تفسيره لدعاء الاستعاذة من المسيح الدجال في الصلاة أثناء التشهد الأخير، وكأنه يريد به التحذير الشديد من كافة الدجاجلة المشابهين للدجال المعني بالحديث -وهو كبيرهم- ويتوسع في تعميم فتنته، فيجعلها تشمل كل باطل مخالف للشريعة مقرون بباطل فيقول: (وفتنته لا تختص بالموجودين في زمانه -بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقر بها يخالف الشريعة لخارق فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان، لكن هذا المعين فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها، سواء أدركه أو لم يدركه كان معصومًا مما هو دون هذه الفتنة ... ويمضي فيحذرنا من صنوف البشر المدعين للألوهية أو النبوة أو الولاية أو المهدية[2] ويستند إلى حديث الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم**

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، الندوي ص١٠. ط. المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م. ويذكر الإمام الندوي السمات التي يتميز بها الأنبياء:

١- علومهم مصدرها الوحي ٢- قيامهم بتصحيح العقائد وإفراد الله تعالى بالعبادة

٣- التشديد على جانب الآخرة ٤- الإيمان بالغيب ٥- البعد عن التكلف

نفس المرجع ص٣١، ٣٥، ٤٢، ٤٧، ٥٢.

(٢) بغية المرتاد ص٤٨٣، تحقيق د. موسى بن سليمان الدوين، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

وأصل الدجل: التغطية والتمويه والتلبيس ص٤٨٥.

ثلاثون دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله »[١].

نموذج من الدجل العصري

حصر ابن تيمية الكهنة والمتنبئين الكذبة المعروفين في عصره كما رأينا، ولكن ظاهرة الدجل ما زالت تعيش في العصر الحاضر أيضًا حيث اتسعت دائرته، فشملت أصحاب المذاهب من الساسة الذي يخضعون الشعوب تحت شعارات ظاهرها العدل والحرية، وباطنها الظلم والقهر، وكذلك الثورية ومؤسسها في العالم الإسلامي أتاتورك المُعادي للإسلام والزاعم لنفسه رسالة الارتقاء بتركيا، ويُلحق بالكهنة أيضًا المنكرون للنبوات، والمنادون بالتجديد في الدين حسب أهوائهم وفلسفاتهم، وبلا أي سند من أدوات الاجتهاد الشرعي التي اشترطها علماء المسلمين فيمن يتصدى للاجتهاد.

كذلك لم تمنع الحياة العصرية بزينتها وزخارفها وآلاتها التكنولوجية الإنسان الغربي المعاصر من الوقوع في براثن «كهنة» عصريين، عرفوا كأسلافهم القدماء حاجة النفس البشرية الفطرية إلى التدين، ولكنهم فاقوا أسلافهم في الخداع والتمويه، واستخدموا أساليب جديدة في النفاذ إلى النفوس القلقة والتي تفتقد الإيمان الصحيح بشُعبه وبراهينه.

حدث هذا -كما يذكر الدكتور عبد الفتاح الحسيني في العقد السابع من القرن العشرين- إذ قام بعض أصحاب الألاعيب التجارية بترويج قطع من الصخر المصقول يمكن اقتناؤها لتكون صحبة لمن يشعر بالوحدة، وسرعان ما استشرى التقليد بين الناس، وقامت صناعة خاصة بجمع الأحجار وتصنيفها وصدرت كتيبات ومنشورات لإرشاد الناس لأحسن السبل للاستفادة مما تقدمه قطعة الحجر من حظ وراحة بال أو اللجوء إليها لاستلامها العون في اتخاذ قرار! وزاد الحماس حتى لم يكد يخلو بيت في الولايات المتحدة الأمريكية من قطعة حجر ظنًا أنه حجر ثمين بينما الحقيقة أنه لا يتميز عن أي حجر بالطريق!

---

(١) جامع الرسائل ص١٩٧ تحقيق د. رشاد سالم، والحديث رواه البخاري ومسلم، كما رواه الإمام أحمد في «المسند».

وغالى بعض الناس فمهدوا للحجر فراشًا وثيرًا، فلا ينام الطفل دون احتضانه ولا تدخل الفتاة سريرها حتى تُحَيِّيْ قطعة حجرها وتُقَبِّلَها.

ويمضي الدكتور الحسيني ليحدثنا عن اغتنام بعض علماء النفس الفرصة فكتبوا عن التأثير النفسي للحجر الأليف، ودوره في علاج الأمراض العقلية والعصبية والنفسية، ثم يسجل طرق النصب والاحتيال التي يقوم بها تجار الحجر للمحافظة على مراكزهم، فقاموا (بسك شهادات... يحمل اسم تدليل لقطعة الحجر وتاريخها ونوعها وما تفعله من معجزات، وادعى القائمون على تلك التجارة أن أحجارهم ليست من الأحجار التي يصادفها الناس في الطريق، بل إنهم يقومون باقتنائها بطرق علمية حديثة ويشارك في انتقائها علماء نفس وأطباء وعلماء اجتماع ومهندسون متخصصون في طبقات الأرض»[(١)].

٣- عقيدة التوحيد هي الأصل

إذا عدنا لتناول العقيدة الدينية وبيان نشأتها فمن اليسير استنتاج أن عقيدة التوحيد هي الأصل، ثم طرأ «الشرك» على البشرية، وكلما انحرفت عن طريق التوحيد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لتذكير بني آدم مرة جديدة بعقيدة التوحيد.

ومما يؤيد ذلك قصة الخلق في القرآن الكريم، حيث يذكر الإنسان الأول وهو آدم ﷺ، وكان نبيًّا، وهو أول من سكن الأرض من البشر.

وعندما انتكست المجتمعات وتدهورت أخذت في عبادة المخلوقات الأخرى، فعبدوا الشمس لظهورها الدائم والمنافع التي تعود عليهم منها، وما زالت تحتل مكان القداسة عند اليابانيين إذ يعتقدون أن «الميكادو» تجسيدٌ لإله الشمس كما عبدت بعض المجتمعات السماء؛ لأنها تحتوي على الشمس والقمر والنجوم، ومنها يسقط المطر، والبعض عبد الأرض؛ لأنها تنبت الزرع ويعيشون عليها[(٢)].

---

(١) مقال بعنوان «أكبر عملية احتيال في التاريخ» ص٢٠ بقلم الدكتور عبد الفتاح الحسيني، مجلة المختار الإسلامي، العدد ٢١٨، ١٥ شوال ١٤٢١هـ - ١٠ يناير ٢٠٠١م.

(٢) الإيمان بالغيب، بسام سلامة، مكتبة المنار بالأردن ص٤٤، ط. ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

كذلك عبدوا الإنسان في شخصية الأب أولًا؛ لأنه رمز النعمة والقدرة، ثم تحولت إلى عبادة رئيس القبيلة لأنه أكبر قوة وقدرة، وعبد قدماء المصريين فرعون مصر كما يذكر القرآن الكريم: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، وإلى يومنا هذا ما زال ملك اليابان معبود الكثير من أبناء شعبه[١].

ويقول الأستاذ أحمد عبد الغفور: (ومن أثر عبادة الإنسان الباقية عن المتدينين تقديس البطولة والعظمة، فهو مظهر يتفق مع التقدم الحضاري، ومن آثارها عبادة «المعشوقة» التي نجد في آثار الشعراء في عصرنا من يقول لها في أشعاره أو كتابه أو خطابه: أنا عبدك، معبودتي[٢].

إن هذا التدرج في العبادة، أو بمعنى أدق «التدني» من الأعلى إلى الأدنى تتضافر على تأييده الوقائع التاريخية، بالإضافة إلى التفسير النفسي للظاهرة، وكان مؤرخنا الشهرستاني من أوائل من تعرض لها بالتحليل.

فبعد أن أرخ الشهرستاني لبعض ديانات الهند، حيث ذكر أن منهم من عبد الشمس زاعمين أنها ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور الكواكب وضياء العالم، ثم اتخذوا لها صنمًا.

ومنهم من زعموا أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة وينسبون إليه تدبير هذا العالم السفلي والأمور الجزئية فيه، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، ثم اتخذوا له صنمًا يعكفون عليه.

وقام الشهرستاني بدراسة الصلة بين عبَّاد الأصنام وأصول العقائد وتفسيرها تفسيرًا نفسيًّا، حيث وضعوا الأصنام المعبرة عن معبود غائب، إذ الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائبًا منابه وقائمًا مقامه، وفي هذا الصدد يقول: (وإلا فنعلم قطعًا أن عاقلًا

---

(١) باختصار من كتاب «الديانات والعقائد في مختلف العصور» أحمد عبد الغفور عطار ص٧٢-٧٣ جـ١، ط. ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، مكة المكرمة.

(٢) المرجع نفسه ص٧٣.

ما، لا ينحت جسمًا بيده، ويصوره صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل... لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وكان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات لها، وعن هذا كانوا يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣](١).

أما عن الانحدار عن عقيدة التوحيد التي أتى بها الأنبياء والرسل فيرجعه باحث معاصر إلى أن سبب نشر لواء الوثنية يرجع إلى الجهل الذي أصاب الأجيال تلو الأجيال بعد أن بث فيهم (سام ابن نبي الله نوح عن شيث وإدريس فأضاعوها لما طال عليهم العهد، فضلوا السبيل الإلهي المرسوم)(٢).

وهناك من يدافع عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تتعداها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذٍ يستغني الإنسان عن الوثنية، فتصبح التماثيل علامات ورموز(٣).

ولكن سرعان ما يتهافت هذا الرأي أمام الواقع الماثل أمام دارس العقائد والعبادات في المجتمعات الوثنية التي ما زالت تعض على الأصنام بالنواجذ، حيث يعكف الناس عليها بإصرار بصفتها الأهداف النهائية لعبادتهم ولا يتخطونها إلى مرحلة التوحيد كما يتخيل بعض الفلاسفة، (لذلك كان ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم ﷺ من قول وشكوى، حقًّا ومنطبقًا كل الانطباق على عُباد الأوثان والأصنام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، أنها استحوذت على عقول عبادها، وألْهتهم عن عبادة الواحد القهار، فتشاغلوا بها عنه، وحرموا سعادة عبادة الله ولذتها، فكان ذلك هو الضلال المبين(٤).

وتتنوع مظاهر الانحدار والتردي التي يسجلها الباحثون المعاصرون، فلم يعد يثير سخريتنا ما سجله التاريخ عن بعض العرب الذين كانوا يأكلون آلهتهم إذا أصابتهم

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل جـ٢ ص٢٥٩ تحقيق محمد سيد كيلاني ط. الحلبي ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.
(٢) من كتاب الدين والفلسفة والعلم للسيد محمود أبو فيض المنوفي ص٤٩.
(٣) الأركان الأربعة للإمام أبي الحسن الندوي ص٧٦ ط. دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٨٧م.
(٤) نفسه باختصار ص٧٧.

مجاعة، إذا علمنا أن في الحبشة الآن قبيلة «القالا» تعبد السمك ثم تأكله، فضلًا عن عبادة «البقر» في الهند[١].

ونتوقف قليلًا عند عبادة الحيوانات بأنواعها وما تركته من رموز أشهرها «الطوطم» وأصله عبادة الحيوان (وما تزال الطوطمية موجودة حتى عصرنا هذا في قبائل متفرقة في آسيا وأفريقيا وأمريكا، وفي كثير من الجزر في المحيط الهادي وفي أستراليا»[٢].

ولم تنحصر في هذه الأجزاء المتفرقة من العالم بل بقيت في شكل «شعارات» في بيئة الإنسان المتقدم المتحرر (التي نراها في بعض دور النشر والجماعات والجمعيات والدول، حيث يُتخذ الحيوان شعارًا لها، فهذه تتخذ دبًّا وتلك نسرًا، وهكذا...»[٣].

مناقشة منهج التطور في نشأة العقائد الدينية

وهذه الظواهر وغيرها تدعونا إلى مناقشة منهج «التطور» في العقيدة الدينية، الزاعم بأن الإنسانية تطورت من «الحياة البدائية التي تحكمها عبادة الأصنام وتحوطها ألوان الشرك والوثنية» إلى التطور إلى «التوحيد»، حيث يذهب فريق من الباحثين في تاريخ الأديان إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه حتى وصل إلى الكمال بالتوحيد كما تدرج في العلوم والصناعات، ومن هؤلاء سبنسر وتايلور وفريزر ودوركيم، ويقابله فريق آخر من الباحثين يرى أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، والوثنية هي أعراض طارئة[٤].

ونحن نرجح الرأي الثاني عن اقتناع بالأدلة العلمية التي ساقها الدكتور دراز في

---

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص٧٤ ويقول المؤلف: وفي عصرنا هذا يعبد «الكانجارو» في أستراليا، والخرتيت ذو القرن الواحد وعجل البحر والثعابين عند أقوام البوشمن بصحراء كلهارى وقبائل في تسمانيا وعند كثير من الإسكيمو.

(٢) المرجع نفسه ص٧٥.

(٣) المرجع نفسه ص٨١.

(٤) الدكتور دراز، «الدين» بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص١١٢، ط. دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

بحثه المبتكر عن «الدين»، وهي ذات ثلاث شعب:

أولها: التحليل النفسي حيث يؤدي إلى بيان خطأ وضع قوى النفس المختلفة في خياتها الروحية والمادية في نموها على قدم المساواة معًا؛ لأن المشاهدة المتتبعة لمراحل حياة الإنسان تستخلص أن الإنسان كان في بدايته يقنع بإشباع حاجاته الضرورية من مأكل ومشرب ومأوى، ودفعته قلة مشاغله ووفرة وقته إلى التأمل الذي يرهف حاسته الدينية، بينما نرى اشتغال الناس في عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية يؤدي إلى العكس (ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها، ككفتي الميزان: لا ترتفع إحداهما إلَّا انخفضت الأخرى»[1].

الثانية: أن استقراء سير الديانات منذ طفولة التاريخ إلى اليوم يبين أن كلًّا منها بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتها الأباطيل مما يدل على أن البداية خير من النهاية.

الثالثة: إذا بحثنا الظاهرة في ضوء التطور الصحيح -كالفن مثلًا- نجد أنه يبدأ في صورة ساذجة، متحدة، متجانسة، ثم تتدرج إلى التكثير والتركيب، وتنتقل من البساطة إلى التعقيد كلما بعدت عن الأصل، فإذا طبقنا هذا القانون على العقيدة الإلهية يستوجب أنها بالمثل (سارت أيضًا من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة والسهولة واليسر إلى التعقد، بالإضافة الأسطورية والنزوات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم)[2].

ونضيف إليها الواقع المعاصر الذي يوصف دائمًا بالتطور الحضاري، حيث بلغ الإنسان ذروة التقدم في القرن العشرين الميلادي.

وللحكم على مدى صحة هذه المقولة نعود لتذكر حالة العرب في «الجاهلية» وقبل الإسلام، حيث سادت عبادة «الأصنام»، والسؤال الوارد في الذهن الآن: هل تخلص

---

(١) المرجع نفسه ص١١٥: أي أن انشغال الإنسان بأسباب الترف في معيشته يضعف من حاسته الدينية، ومن ثم فلا تتطور، بل تتراجع، ولا تظل في مكانها وذلك بخلاف قانون التدرج في العلوم والصناعات.

(٢) المرجع نفسه ص١١٦.

الإنسان المتطور الذي يعيش في القرن العشرين من الأصنام؟

يرى جارودي أن هناك أصنامًا في العصر الحديث لها قدسية في النفوس تشبه أصنام العرب في الجاهلية، ولكنها لون جديد من الأصنام، يحصرها في «التنمية» و«التقدم» و«الفردية» و«تمجيد الأمة؛ أصنام القوة المسلحة والجيوش الجرارة، وغيرها من أصنام وطواطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات» بينما جاءت عقيدة التوحيد في الإسلام لتنفي كل «صنمية» لأنها الأساس والمنطلق لدى المسلم المؤمن بأنه «لا إله إلَّا الله»[١].

ويشاركه الإمام الندوي الرأي، حيث يرى أن أوربا اتخذت آلهة كثيرة بأسماء طريفة وعناوين جديدة، من «ديمقراطية» و«دكتاتورية» و«رأسمالية» و«اشتراكية» و«وطنية» و«قومية» عبر ثلاثة قرون[٢].

وعلى ضوء هذا التحليل -مرورًا بعوامل أخرى سيأتي ذكرها- يصبح التطور الحضاري الغربي بميزان الدين الصحيح -دين التوحيد- موضع شك كبير، بل إن بعض فلاسفتهم -فضلًا عن جارودي- يعطوننا صورة قاتمة تجعلنا نتتبع عللها غير القابلة للعلاج، فهي تبدو في شكلها الظاهر متطورة من الناحية العلمية والتكنولوجية، ولكنها مهلهلة الأحشاء، منهارة الأعصاب، متجهة نحو الانحدار، ولن تفر هذه الحضارة (من المصير الكئيب الذي أصاب عشرات الحضارات السابقة، ويأتي الأدب الحديث ليقول له؛ أي الإنسان الغربي: بأن الاختلال العصبي هو مصير إنساننا الذي يعيش في هذا القرن، وكذلك فإن الهزيمة لا بد منها، بشكل أو بآخر، ويسخر علم النفس منه، ويؤكد له أن الثقافة سطحية يكمن في داخلها إنسان بدائي «وليس متطورًا» ينتظر الانطلاق للسيطرة[٣].

وظهر الحنين إلى العودة إلى الدين المسيحي من جديد؛ لأنه لعب دورًا كبيرًا في

---

(١) جارودي، ما يعد به الإسلام ص٢٦٧.

(٢) ص٣١ من كتابه: رسالة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين.

(٣) كولن ولسن، ما بعد اللامنتمي ص١٨٩، ترجمة يوسف شورو وعميمق، منشورات دار الآداب، بيروت، إبريل سنة ١٩٨١م.

الماضي (ولم تكن عذابات «الصلب» التي تربعت في صدر المسيحية مصادفة، بل كانت تقدم مستوى تحكم فيه على المضايقات التافهة للحياة اليومية»[1].

ولكن هل يمكن للعقيدة المحرَّفة التي اصطبغت بالصبغة الإنسانية أن تنقذ هذا الإنسان؟

يبدو أن الفرصة قد أفلتت، وأن المشكلات أعقد بكثير من القدرة على الحل، حيث يرى كولن ولسن أن من المتوقع أن تصف الأجيال الآتية النصف الأول من هذا القرن بأنه «عصر اللامعنى»، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفننا وفلسفتنا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التي يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكن استبدالها، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد في اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ إن الأمر ليس إلَّا مسألة تفكير في معرفة المدة التي تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق»[2].

ولنتأمل هذه الصورة المعتمة التي رسمها كولن ولسن كصدى للإخفاق والإحساس بالتشاؤم في المواضيع المتصلة بالعقائد الدينية، وهو يقصد المسيحية المحرَّفة بالذات، حيث فقد الإنسان في الغرب الهدف من الحياة مع شعوره بعدم الأهمية، وأن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة ولا يستطيع الاحتفاظ بها.

---

(١) المرجع نفسه ص١٩٣.

(٢) المرجع نفسه ص١٥، ويصف حضارته في موضع آخر بأنها حضارة متقدمة تنتج عوامل انحطاطية أكثر خلال الملل وفقدان الهدف ص١٧٤، واستعرض الوسائل الحائلة للسقوط، حيث اقترح «برناردشو» الدين وكذلك «أرنولد توينبي»، ثم يذكر أن «الدوس هكسلي» أقرب إلى الحقيقة حين اقترح ضرورة «تعميم المخدر»، ص٢٠٠، كذلك كان «وليم جيمس» يؤيد أن الخمر تنتج خبرة غامضة إلى حد ما ص٢٠٩، ثم يفاجئنا المؤلف في الوقت نفسه عندما يخصص ملحقًا لكتابه ليستعرض فيه «تجربة المخدر».

والأمر المفجع بحق أن ذكر المخدرات لا تأتي في شكل آفات اجتماعية مستهجنة ومرذولة، بل مدمرة للأفراد والمجتمعات، ولكن في صياغة فلسفية مقننة يعتمدها فيلسوف كبير، ويسجلها كاتب ذائع الصيت، وتعلن على الملأ كطريقة من طرق الإنقاذ «الملحق الأول من ص٢١٩: ٢٢٥».

وإذا قوّمنا هذه النتائج بميزان الدين الصحيح نرى أن العقيدة في الإسلام توضح الأهداف والغايات، ويجد الإنسان فيها الإجابات على كل ما يدور في الذهن؛ عن مكانته ومعنى الحياة والمصير، ودور شعائر العبادات من التفسير للمعضلات التي تعجز عن حلها المذاهب الفلسفية فضلًا عن الأديان المحرفة ومن ثم تجعل الإنسان يصمد ويثبت ويمضي قُدمًا إلى الحياة المأمولة في الآخرة وهي الغاية والهدف، فإن الإسلام قادر (على أن يجيب عن كل سؤال في كل قصة إنسانية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفلسفية)[1].

ونكتفي بإيضاح بعض الاستفسارات التي تدور حول بعض أبرز القضايا التي تهتم بها الأديان [2].

أولًا: أهمية مكانة الإنسان

عرف علماء الإسلام التصور لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة المبتدئة بخلق آدم عليه السلام، ثم إهباطه إلى الأرض، ابتلاءً واختبارًا، وكيف تتحقق سعادته الدنيوية بتطبيق شريعة الله تعالى التزامًا بأوامرها وتنفيذًا لأحكامها وارتفاعًا بمستواه الإنساني إلى العمل بمكارمها، حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، ويعود أدراجه إلى موطنه الأصلي -إذا اجتاز الابتلاء الدنيوي بنجاح- أي إلى الجنة.

وإذا أخذنا برأي الراغب الأصفهاني، متوفى ٤٠٢هـ الذاهب إلى القول بخلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، فإننا نجده يضع شروطًا، حيث يميز بين مكارم الشريعة والعبادات؛ لأن الإنسان لا يستحق مقام «الخلافة» إلَّا بتحري مكارم الشريعة، وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل إلى الجود والصبر ليدرك الشجاعة والعلم، والعدالة لتصحيح الأفعال.

---

(١) ديانات أخرى، أنيس منصور ص١٠١، ط. دار الشروق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) الدارس للإسلام سيجد الإجابات عن تساؤلات كولن ولسن -لسان حال الأزمة الغربية- في نظراتها الدينية حول الإنسان وتجاربه وجدوى الصلات التي يعقدها مع ربه ﷻ عن طريق العبادات.

وبعد استكمال هذه الدرجات فإنه أصبح المعنى بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وصلح لخلافة الله ﷻ[١].

فأين هذه المكانة التي سعى المسلمون لتحقيقها في أوج حضارتهم، وما زالوا مطالبين من إحساس الإنسان «العصري» الذي يشعر بعدم الأهمية وأنه «صدفى طارئ»[٢].

ثانيًا: ضرورة الأسوة في اجتياز الحياة الدنيوية

وقد مرّ بنا مما يعاني منه الإنسان الغربي أن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة ولا يستطيع الاحتفاظ بها، ومرد ذلك إلى افتقاد القدوة في السلوك والأعمال واجتياز العقبات في طريق الحياة.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها في ضوء علم النفس، نضع أمام القارئ رأيًا لأحد علماء النفس المعاصرين حيث يرى أن: «المثل الأعلى الصائب» هو من الناحية السيكولوجية، ذلك الذي يستطيع جلب التوافق النفسي، باجتذاب الانفعالات الغريزية جميعًا، وهو الذي يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية، في قالب كائن حي، وهو الذي يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك بإشباع السعي إلى الاكتمال، إن حيازة مثل أعلى أو غرض في الحياة لهي إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن[٣].

وكانت المسيحية المبدَّلة لا تحمل في طياتها الشخص الأسوة في الأعمال الواقعية للإنسان في هذه الحياة، وتقتصر على جانب الزهد فحسب، أو كما يعبر عنها شوبنهور

---

(١) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٢٩، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، مراجعة وتقديم طه عبد الرءوف سعد ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

(٢) ما بعد اللامنتمي ص٢٠٧ وهذا التعريف ليس بآخر التعريفات التي تخبط فيها الفلاسفة من قبل، دعنا من آثار أفكار دارون وفرويد على نظرة الإنسان إلى نفسه وجنسه! ونلاحظ أن فلسفة ما لم تصب في تعريفها للإنسان ووضعه في مكانته الصحيحة اللائقة به حقًا منذ أرسطو إلى الآن.

(٣) هادفيلد: علم النفس والأخلاق ص١١٥-١١٦، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم ومراجعة د. عبد العزيز القوصي، مكتبة مصر سنة ١٩٥٣م.

بقوله: (أما المسيحية فرأت في الدين رادعًا عن الطلب غير المجد للسعادة الدنيوية، وقد استمسكت في وسط الترف والسلطان الدنيويين بالمثل الأعلى للقديس)[١].

ولعلنا ندرك عند المقارنة مدى كمال الإسلام حيث يستوفي القدوة في شخص الرسول ﷺ، حيث يغنينا بسنته عن محاولة التجارب التي تقصر حياتنا عن الخوض فيها.

وهنا يرى الأستاذ محمد أسد، المهتدي إلى الإسلام «ليوبولد فايس قبل إسلامه»: أن من حكم اتباع السنة تمرين الإنسان المسلم بطريقة منظمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، فإن هذا الانضباط السلوكي وفقًا لسنته يؤدي إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التي تعرقل النشاط الإنساني عن التقدم، يقول محمد أسد: (إن الأعمال والعادات التي تقوم عفو الساعة، تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة»[٢].

فهل لنا أن نقف على سبب آخر من أسباب كمال الإسلام، حيث تفتقد العقيدة المسيحية المبدَّلة شخصية الرسول القدوة، بل تخلط بين النبوة والألوهية؟

هذا، بينما تنفرد سيرة الرسول ﷺ بسمات رئيسية بارزة تميزه عن سائر الرسل؛ لأنه آخر رسول للبشرية إلى قيام الساعة، وهو وحده الذي يظل أسوة في كل مسالك الحياة الإنسانية ودروبها المتشعبة.

والسمات التي نعنيها هي:

(أ) أن التاريخ الصحيح يؤيدها ويدل على صحتها.

(ب) أنها جامعة ومحيطة بمناحي الحياة كلها وجميع شئونها وأطوارها، وبهذه المناسبة يفصح لنا جارودي عن أحد أسباب إسلامه بقوله: (لأني وجدت أن النبي ﷺ الذي أتى بهذه الرسالة، ليس نبيًّا فقط بالمعنى التقليدي، الذي وجد في الأديان الأخرى،

---

(١) ويل ديورانت: قصة الفلسفة -ترجمة أحمد الشيباني ص٥٧٧ -منشورات المكتبة الأهلية- بيروت.

(٢) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، ص١٠٤، ط دار العلم للملايين، ببروت، ترجمة د. عمر فروخ.

ولكنه كان أيضًا رئيس دولة وقائد جيش وزوجًا ومشرعًا وقاضيًا.. كل هذه الجوانب التي تعددت وشملت كل نواحي الحياة الاجتماعية) [١].

(جـ) أنها كاملة متسلسلة لا ينقصها أي حلقة من حلقات الحياة.

(د) وهي عملية بحيثُ يُعبر بها عن الفضائل والواجبات [٢].

ثالثًا: العبادة معناها ودورها

ويعطينا الإسلام أيضًا صورة متناسقة تبين العلاقة بين مكونات الإنسان في خلقه من طين، ثم نفخ الروح فيه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٨-٩] لذلك أصبح في حاجة إلى نوعين من الحياة؛ أحدهما إشباع الاحتياجات والغرائز البدنية، والأخرى إشباع الروح المتطلعة شوقًا إلى أصلها بالعبادة، ويصفها الراغب الأصفهاني ٤٠٢هـ بقوله: (هي فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة) [٣].

أما دورها فهو المحافظ على الفطرة التي خلق بها الإنسان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقوله ﷻ: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، والاستفهام في الآية للإنكار والنفي، فلا صبغة أحسن من صبغته تعالى، ويتساءل الراغب الأصفاني: (فكيف

---

(١) الفيلسوف المسلم، أبو المجد حرك ص٢٢٧، درا الفتح، مدينة نصر سنة ١٩٨٥م «رحلة الفكر والحياة».

(٢) الرسالة المحمدية، سليمان الندوي ص٤٢ ط. السلفية.

(٣) بين النشأة وتحصيل السعادتين (٤٨) من سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٢٨، ذو القعدة ١٣٨٠هـ/ أبريل ١٩٦١م.

تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة وهي تزيل رين القلب فتنطبع فيه صورة الهداية»[١].

وترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يحب الإنسان أن يتحرى بها ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويؤديها بانشراح صدر بدلًا من مجاهدة النفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير**»[٢].

وهناك ميزة تتفرد بها العبادات في الإسلام، إذ أطلقها من عقالها التي قيدها بها رجال الكنيسة في الكنائس والأديرة والكهنة في المعابد، وخرج بها إلى ميدان الحياة الإنسانية بكل شعبها، وليس أدل على ذلك من اتفاق العلماء قديمًا وحديثًا على اتساع دائرتها، فهي لا تقتصر على العبادات الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، بل تشمل كافة أعمال الإنسان بشرط توافر النية للاتجاه بها إلى الله تعالى مع تحري الحلال وتجنب الحرام.

فمثلًا نجد الراغب الأصفهاني قد جعل من كل فعلٍ يتحراه الإنسان عبادة، سواء كان الفعل واجبًا أو ندبًا أو مباحًا، ونجده متوسعًا في الأفعال المباحة؛ لأنه ما من مباح في رأيه إلَّا إذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى كان «كالإنسان في تعاطيه عابدًا لله مستحقًا لثوابه»، مستندًا لخطاب النبيﷺ لسعد ﷺ: «**إنك لتؤجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك**»، وعلى هذا الوجه قالﷺ أيضًا: «**من مسلم يغرس غرسًا إلَّا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلَّا كان له صدقة**» رواه مسلم، وفي رواية له: «**فلا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلَّا كان له صدقة إلى يوم القيامة**»، وفي رواية: «**لا يغرس مسلم غرسًا، ولا يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلَّا كانت له صدقة**»، يرزؤه أي ينقصه، ويُنظر رياض الصالحين للنووي باب: «في بيان كثرة طرق الخير»، ولكنه يشترط في هذه الأعمال بطبيعة الحال لكي

---

(١) تفسير القاسمي جـ٢ ص٧٤.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٣٤.

تكون عبادة مراعاة أمر الله تعالى في جميع الأمور، دقيقها وجليلها، وأن يتحرى بها حكم الشريعة [(١)].

ويعرف ابن تيمية العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين من الآدميين والحيوانات، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله ﷺوخشية الله، والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضاء بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، كذلك أدخل ضمنها الإمارة أو الرئاسة (فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها) [(٢)].

ويرى الأستاذ محمد قطب أن الخطأ الأول -والأخطر- الذي ارتكبه المسلمون بعد العصور الأولى المفضلة هو حصر العبادة كلها في الشعائر التعبدية، بينما كان يفهم الجيل الأول الحياة كلها على أنها عبادة فيقول: (فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة، كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها، الصلاة والنسك عبادة، والكدح عبادة، سواء كان كدحًا سياسيًّا أو اجتماعيًّا، أو اقتصاديًّا، أو فكريًّا أو علميًّا... إلخ، والترويح عن القلوب حتى لا تكل ولا تمل عبادة) [(٣)].

هذا هو مفهوم العبادة التي تجعل للحياة الإنسانية معنى، ويحدد لها أهدافًا تستحق

---

(١) تفصيل النشأتين ص٤٨.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص١٨٤.

(٣) ينظر كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحح» ص١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٤ ولمزيد من التفاصيل يراجع فصل «مفهوم العبادة» ص١٧٣ وما بعدها، ط. دار الشروق ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

من أجلها بذل الجهد وتحمل المشاق والصبر عليها.

أما العبادات التي يخترعها بعض رجال الدين وتصبح من أسرارهم الخاصة، ويؤديها الأتباع بمشقة وعسر أو بغير فهم أو اقتناع، هذه العبادت تصبح موضع دهشة واستنكار، فمما أثار دهشة واستنكار الشهيد أحمد سامي عبد الله «المهتدي للإسلام»، أنه رأى العبادات من وضع القديسين بعد رفع عيسى عليه السلام، وأنها لا تتعدى ترتيلات وأناشيد في أوقات غير محددة، ولا يقابلها ثواب أو عقاب، فضلًا عن صعوبة أدائها، إذ لا يستطيع تلاوة الصلوات إلّا من يجيد القراءة والكتابة لأن حفظها عسير[1].

****

---

(١) لماذا وكيف أسلمت؟ ص١١٨، وفي موضع آخر يصف هؤلاء القديسين بقوله: (كانوا قديسين ضالعين في المسيحية أكثر من المسيح نفسه إذ إنهم أتموا له الدين من بعده فتطوعوا مشكورين بوضع الصلاة الجماعية التي يصليها هو ولم يضع أقوالها قبل رفعه إلى السماء، فاجتهدوا هم في وضعها وتنظيم ألحانها، ووضع عباراتها بعد ترك المسيح الأرض بسنين عديدة) ص٨٩ العدد ٦٥ من «دعوة الحق» الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي شعبان ١٤٠٧هـ/ إبريل ١٩٨٧م.

الفصل الثاني
البرهمية أو الهندوكية[(١)]

تمهيد

تفجر العقائد الهندوكية -أو البرهمية- أسئلة كثيرة، فتسنح الفرصة للتطرق إلى قضايا دينية لم تخلُ من تناولها عقيدة من العقائد، سواء كان أصلها سماويًا أو وضعيًا منها: صلة الله تعالى بالمخلوقات، والتساؤل عن وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا أم لا.

ومنها: هل يهتدي بنو آدم إلى معرفة الحقائق من غير طريق الأنبياء؟ إذ لو صح الخبر عن إنكار بعض البراهمة للنبوة والأنبياء فيؤدي بنا إلى العودة في بحث قدرات العقل ومدى إمكان تحمله أعباء أكثر من طاقته وفوق قدراته.

وتتداعى الأفكار للنظر في آراء ظهرت حديثًا لا تُقدِّر النبوة حق قدرها، فتصف الأنبياء، والرسل بالمصلحين والعباقرة أو القادة، أو تعطي صفات النبوة لمن تهوى من البشر[(٢)].

ومنها: هل تحقق وعيد إبليس: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الحجر: ٣٩-٤٠]، فها هي مظاهر الغواية متحققة، حيث تحولت شعوب وقبائل عن جادة التوحيد، فألجأتهم إلى عبادة البشر والحيوانات والشمس والقمر والكواكب وغيرها من الكائنات، وإن لم يكن ذلك استجابة لغواية إبليس، فما السبب الآخر المحتمل؟

---

(١) باعتبار الهندوسية «أو الهندوكية» دين متطور ومجموعة من تقاليد الهند وعاداتهم وصور حياتهم، وأطلق عليها البرهمية ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما «الإله الخالق» أو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرًا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين، ومن براهما اشتقت الكلمة «البراهمة» لتكون عَلَمًا على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلَّا في حضرتهم وعلى أيديهم محمد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣، ص١٩، نقلًا عن د. أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى ص٣٩، مكتبة النهضة ١٩٧٦.

(٢) كما وُصف أحدهم في العصر الحاضر بنبي القومية العربية.

هل هو تقليد الآباء والأجداد، أم تعطيل العقل عن التفكير المنطقي بعيدًا عن الهوى؟

ربما كان التحليل النفسي الاجتماعي الذي أداه ابن الجوزي يدلنا على تفسير جزئي لهذه الظاهرة العجيبة، فقال: (غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم غطى على العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور) [(١)].

وكانت هناك محاولات للإصلاح، مثل ما فعله المصلح الهندي راما كرشنا، إذ رفض الهندوكية، ولم يعد يقدس الجبال والأنهار والحيوانات والأجداد (ولكنه يؤمن بأن العقول والقلوب كلها تتجه إلى قوة واحدة هذه القوة وراء كل شيء وكل إنسان وكل دين) [(٢)].

ولكن تعديلاته كانت جزئية لأنه ظل معتقدًا بوحدة الوجود، فبعد أن درس الإسلام وأقر بأن الإسلام دين حق درس النصرانية أيضًا ثم أعلن وحدة الأديان فهي عنده كلها منسجمًا [(٣)].

ومما يلفت النظر أيضًا في الديانة الهندوكية الاعتقاد بالتناسخ، فتساوي بين مراتب الوجود الإنساني والحيواني وكأنهما نسيج واحد، وسبيكة مختلطة العناصر، فافتقدوا معرفة الروح المميزة للإنسان دون غيره من سائر المخلوقات، وأنكروا البعث والحساب والعقاب في اليوم الآخر.

وتأتي أعجوبة الأعاجيب المتمثلة في عبادة الحيوانات ومنها البقرة، وسنجد الدفاع الحار عن هذا الفعل المنافي لكرامة الإنسان ومكانته! وما أصدق وصف ابن الجوزي لأمثال هؤلاء إذ وضعهم في مكانهم المناسب فقال: (وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر

---

(١) صيد الخاطر ص٣٧٨، تحقيق عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٩م.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص١٢٩، ١٣٠، ط. دار الشروق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ثم انتشرت حركته في أوروبا وأمريكا.

(٣) نفسه ص١٣١ ومن التعديلات التي أدخلت على الهندوكية ما قام به «ناناك» المؤسس لديانة السيخ، فقد تأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وسماحته وأن الله تعالى واحد، ولكنه في الوقت نفسه أنكر القيامة ص٨٤.

وإن هؤلاء أخس من إبليس، فإن إبليس أنف لادعائه الكمال أن يسجد لناقص فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وفرعون أنف أن يعبد شيئًا أصلًا)[1].

(١)السيد محمود أبو الفيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص٤٦، ٤٩.

نماذج من انحدار العقائد من التوحيد إلى الشرك

البراهمة

لعل من أهم النماذج في هذا الصدد هو نموذج ديانة البراهمة، حيث اجتازت ثلاثة أدوار؛ الأول: دور التوحيد عند الهنود القدماء، وربما انحدروا من الأصل السامي «نسبة إلى سام بن نوح معلمهم ومرشدهم وراثة عن أبيه».

الثاني: دور الكهنة البرهميين ونشأة الثالوث الهندي «برهما، فشنو، سيفا».

الثالث: دور الشرك والوثنية، حيث اتسع نفوذ الكهنة فأنشئوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات، وزعموا أنهم يتفردون بمعرفة الحقائق العلوية، وستروا الحقائق عن الشعب فجنح إلى الشرك وتعدد الآلهة، وانحدر إلى عبادة الأشخاص والتماثيل والحيوانات[١].

ولعل الأدوار الثلاثة ارتبطت بعقيدة التثليث في الديانة الهندية البرهمية، حيث كانت الديانة في دورها الأول قاصرة على عبادة إله واحد (تحت إرشاد بعض العباد والحكماء المخلصين، يعبدون القيوم، ويسبحونه دون البحث عن كيفية وجوده أو ماهية جوهره)[٢].

أما الدور الثاني فقد ظهر فيه الكهنة وأنشئوا الطقوس، وأحدثوا عقيدة الثالوث الهندي البرهمي؛ برهما الإله الخالق، وفشنو الإله الحامي للخليقة وسائسها المعمر، وسيفا القوة التي تلاشي أو المفني المعيد[٣].

وكان الدور الثالث معبرًا عن سيطرة الكهنة وتعميق نفوذهم على الشعب لإبقائه على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا إلى تسلم زمامه والاستعلاء عليه حيث وضعوا

---

(١) صيد الخاطر ص٣٧٧.

(٢) المرجع نفسه ص٤٦.

(٣) المرجع نفسه ص٤٧، وهناك رأى لباحثين آخرين يتلخص في القول بأن هذه الديانة تعبر عن عقائد الآريين، ثم تأثرت بعد احتلالهم للهند بفلسفات وأفكار نشأت في الهند، ثم أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصلية، ص٤٠، أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي.

أنفسهم في المرتبة الأعلى من السلم الاجتماعي الطبقي، وجعلوا باقي الطبقات دونهم كما يلي:

١ - طبقة الكهنة والعلماء

٢- رجال الحرب وحماة الأوطان

٣- الزراع والتجار

٤- أرباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون[١]

ونعود فنرى في دور الكهنة كما بيَّنا من قبل، أحد الأسباب الرئيسية في مسخ العقائد وتغييرها والانحراف بالبشرية من عبادة الواحد الأحد إلى تأليه الكهنة والوسطاء، ويعبر عن ذلك الاعتقاد بأن برهما حلَّ في «البرهمانات» وهو رئيس الكهنة[٢]، ونلاحظ أنه لا مكان للنبوة في عقائدهم فما سببه؟

نفي النبوات

ومما يلفت نظر الباحث أن المصادر الحديثة لم تشر إلى أحد المعالم البارزة في عقيدة البراهمة، وهي إنكارهم للنبوات، حيث عرف مؤرخونا -ومنهم الشهرستاني- أبرز عقائدهم وشرحها بشيء من التفصيل مع اهتمامه بصفة خاصة بإنكارهم للنبوات والرد عليهم[٣].

يقول الشهرستاني: (من الناس من يظن أنهم سُمُّوا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصصون بنفي النبوات أصلًا، فكيف

---

(١) المرجع نفسه ص٤٩.

(٢) المرجع نفسه ص١٠١.

(٣) يرى الدكتور محمود حماية أن الشهرستاني قد أخطأ في نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة كغيره من المؤرخين كالباقلاني والبغدادي، ص٢٢٧.

وربما قصد الشهرستاني إحدى طوائف البراهمة، وهي ليست وحدها، بل يشاركها في نكران النبوة طوائف أخرى كالصابئة والدهرية والسمنية ص٢٢٩، ٢٣٠ من كتابه «ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان» ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م.

وعلى أية حال، فقد اهتم علماء أهل السنة بقضية النبوة واحتلت مكانتها بكتب العقائد.

يقولون بإبراهيم عليه الصلاة والسلام؟) ثم يذكر أنهم انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: «براهم» الذي مهد لهم نفي النبوات مقررًا استحالة ذلك بوجوه، ويمضي فيبين لنا أهم هذه الوجوه، وتتلخص في الآتي:

أولًا: أن الذي يأتي به الرسول لم يخلُ من أحد أمرين؛ إمَّا أن يكون معقولًا ، وإما أن لا يكون معقولًا، فإن كان معقولًا فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فلا حاجة إلى رسول، وإن لم يكن معقولًا فلا يكون مقبولًا.

ثانيًا: دلَّ العقل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبده الخلق إلَّا بما تدل عليه عقولهم، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بآلائه علينا، وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما لنا نتبع بشرًا مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب؟ [(١)].

وكان الشهرستاني بارعًا في الرد عليهم إذ اتخذ من إقرارهم بحكمة الله تعالى مدخلًا لإثبات ضرورة النبوة، وحاجة البشرية إلى الرسل والأنبياء، لأنه تعالى كما أنه حكيم فإنه آمرٌ ناهٍ، حكمٌ على خلقه، ولا يحيط العقل بمفرده بالحِكم والأسباب والعلل، ويستطرد فيقول: (وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره، ولا كل نفس بشرية بمثابة من قبل عنه الحكمة، بل أوجبت منَّته ترتيبًا في العقول والنفوس، واقتضت قسْمته أن يرفع: ﴿ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة) [(٢)].

وقد احتلت قضية النبوة مكانتها في كتب العقائد، واهتم أهل السنة والجماعة بشرحها وبيان تفاصيلها للرد على المخالفين حتى من المسلمين أنفسهم، كالمعتزلة القائلين بوجوب إرسال الأنبياء والرسل على الله تعالى بالنظر إلى ذاته، حيث يقول السفاريني:

---

(١) الملل والنحل جـ٢ ص٢٥١: ٢٥٢، تحقيق سيد الكيلاني، ط. الحلبي ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
(٢) الملل والنحل جـ٢ ص٢٥٢.

(والحق أنه جائز عقلًا في حقه تعالى واجب سمعًا وشرعًا)[١]، ثم يبين أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع منَّة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق، والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمدﷺ أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعده ووعيده، ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد[٢].

ويمضي السفاريني فيشرح دور الرسل كوسائط بين الله تعالى وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، إذ أرشدهم إلى توحيده تعالى وإثبات صفاته وإثبات القدر، وذكر أيام الله تعالى في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد، والأمثال التي ضربها لهم، وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه، وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب، وكل ذلك لا يهتدي العقل إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها.

كذلك استند إلى رأي ابن تيمية في حديثه عن المفاضلة بين العقل والشرع، إذ ليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار، فإن الحيوانات تفعل ذلك، بل التمييز بين الأفعال التي تنفع الإنسان في معاشه ومعاده، كنفع التوحيد والعدل والبر والصدق والإحسان والأمانة، والعفة، والشجاعة، والعلم، والصبر، وأداء الحقوق، وإخلاص العلم،

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية «شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية» للسفاريني جـ٢ ص٢٥٦.

(٢) المرجع نفسه ص٢٥٩، ويقول ابن تيمية: (وكمن يقول العلم بالنبوة لا يحصل إلَّا بعد النظر، وأنا لا أنظر، أو لا أعلم وجود النظر حتى أنظر)، ومن جواب هؤلاء أن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم، فليس من شرط حجة الله تعالى علم المدعوين بها؛ ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعًا من قيام حجة الله تعالى عليهم، وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة لا يمنع الحجة، إذ المكنة حاصلة؛ فلذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧]، الرد على المنطقين ص٩٩، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

والتوكل على الله، والاستعانة به، والرضا بمواقع أقداره، والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، ولولا الرسالة لم يهتدِ العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار، بل أن لا بقاء لأهل الأرض إلَّا بدوام آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا دَرَسَتْ آثار الرسل من الأرض وانمحت معالم هُداهم خرَّب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة[1].

وعلى أية حال، فإن علماء الإسلام كانوا محقين تمامًا في الإفاضة بشرح دور الرسل والأنبياء؛ لأن من العلامات البارزة في الإسلام الإيمان بالرسل جميعًا وخاتمهم محمدﷺ، يزداد تقديرنا لاهتمامهم بقضية النبوة إذا علمنا أنه إزاء إنكار النبوات، ظهرت دعوى أخرى لا تقل خطورة في آثارها وهي إنكار ختم النبوة وظهور أنبياء كذبة.

أما باقي عناصر الديانة البرهمية «أو الهندوسية» فإنها تحتوي على خرافات وأساطير وعبادة الحيوانات -على رأسها البقرة التي تحتل عبادتها المكانة المرموقة في عقيدة الهنادك حتى الآن- كما سنرى ذلك على لسان غاندي زعيمهم المعروف، بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والقول بوحدة الوجود، وقبل الخوض في هذه الموضوعات نُعرِّف أولًا بأقدم كتبهم وهي «الفيدا».

الفيدا: Veda أو الويدا

يوصف بأنه أهم كتبهم، ولا يعرف تاريخ كتابتها على وجه الدقة، إذ كانت موجودة قبل خمسة عشر قرنًا، وهي مجموعة أشعار يزعمون أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها[2].

والفيدا أربعة كتب:

١ - الرجفيدا **Rig Veda** وهو أشهرها وأشدها سحرًا للهنود وتأثيرًا فيهم، وتحتوي على أناشيد مختلفة، منها ما يتصل بأناشيد تناول شراب «سوما» المقدس عند الهنود خاصة بأساطير وحكايات خرافية.

---

(١) نفسه «باختصار» ص٢٦٠- ٢٦٢.

(٢) الإمام أبو زهرة: الديانات ص٥١.

وتذكر الرجفيدا آلهة كثيرة؛ منها الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والشجر والمطر والريح والنور والحيوان.. إلخ، (وكل هذه الآلهة التي لا تحصي لكثرتها إنما هي في حقيقتها إله واحد، تعددت مظاهره فسُمي كل مظهر إلهًا»[١]. وتكمن في هذه الفكرة عقيدة وحدة الوجود.

٢ - ياجوروداا **Yajur Veda** وتشمل العبارات النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

٣- ساما ويدا **Sama Veda** وتشمل الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

٤ - آثار ويدا **Athar Veda** وتشمل مقالات في السحر والرقي[٢].

وقد طفحت كتب الفيدا بالأساطير والخرافات، ويصف لنا أحد الهنود المسلمين الذي خاض تجربة البحث عن الحق واهتدى إلى الإسلام فيقول: (لم أجد فيه إلَّا أساطير الأولين عن عبادة النار والبحر والأحجار وغيرها من الجمادات والبهائم التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا، فكيف بغيرها؟ كما يعلل خلق الكون فيها أحيانًا بصورة شنيعة قبيحة تنبعث منها رائحة منتنة يفر منها الإنسان اللبيب)[٣].

ومن النماذج المنفرة والمنافية للعقول السليمة ما أورده كجزء من الباب الأول لكتاب يعتبر المصدر الأساسي لقانون الهندوكيين الذي يبحث في الخلق ونصه: (إن هذه الدنيا كانت غامضة لا توجد لها علاقة ولا وسيلة وليس في مقدرة أحد أن يتوسل إليها بالحجج والبراهين، ثم ظهر «بيرميشور» إله الآلهة بمادة التكوين وأراد أن يخلق خلقًا من ذاته، فخلق الماء وألقى فيه نطفة، فصارت هذه النطفة بيضة فخرج منها «برهما» الخالق وكسر البيضة نصفين، فخلق من أحدهما الجنة ومن الثاني الأرض والسموات وما بينهما

(١) أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص٨٨: ٨٩.

(٢) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٤٢: ٤٣.

(٣) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا جـ٢ ص١١٥، دار القلم الكويت ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

والجهات الثمان والبحور الهادئة، ثم أخرج من فمه «براهمن» ومن عضده «كهترى» ومن فخذه «ويش» ومن رجله «شودرا»، فما دام براهما مستيقظًا فالدنيا باقية، وإذا أخذه النوم تقوم القيامة»[1].

عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة

يصف غوستاف لوبون عبادة الهنود للحيوانات والجمادات والإنسان، بقوله: (وهيهات أن تجد هندوسيًّا لا يعبد عددًا من الآلهة، فالعالم عنده زاخرٌ بها، حتى إنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء)[2].

ويرى الأستاذ عباس العقاد أن عبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمي، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيهم فيحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذاك، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جَدًّا قديمًا أو صديقًا عائدًا إلى الحياة[3].

وتحتل عبادة البقرة بصفة خاصة مكانة بارزة بين المعبودات، كما يأتي الحديث عنها

---

(١) المرجع نفسه ص١١٧.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص٣٦٨ نقلًا عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٢٨.

(٣) الأستاذ عباس العقاد: الله ص٧٧ نقلًا عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٢٩.

نشرت جريدة الأهرام القاهرية بعددها الصادر في ١٠/ ١/ ٢٠٠١م الخبر التالي: مع بداية العام الجديد، أصبحت القرود مشكلة مستعصية في الهند حيث تتجول الآلاف منها بحرية تامة في أروقة المقار الحكومية، وتقتحم المكاتب، وتسرق الطعام، وتدمر وثائق مهمة.

ويشكو المسئولون الحكوميون في الهند من أن القرود ازدادت ضراوة، وأصبحت تنتقل بلا ضابط أو رابط في أروقة وزارات: الدفاع والمالية والشئون الخارجية، ووصلت أيضًا إلى مكتب رئيس الوزراء، ويقدر المسئولون عدد القرود المنتشرة في قصر الرئاسة بنحو ١٠ آلاف قرد، ولأن قتل القرود محظور في الهند طبقًا للديانة الهندوسية، التي تحظر قتل أو ذبح أي كائن حي، فقد لجأت سلطات نيودلهي إلى اصطيادها ونقلها إلى ولايات أخرى، إلَّا أن هذا الحل لم يفلح أيضًا؛ لأن هذه الولايات رفضت استقبال المزيد منها، وقالت: إن لديها ما يكفيها.

وعن قدسيتها، والصلاة لها في كتاب «الفيدا».

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي نصوصًا مهمة تعبر عن مدى التقديس الذي يكنه الهنود للبقرة في أنفسهم، منها نص الصلاة إلى البقرة كالآتي: (أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به، أنت تدرِّين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلًا صغيرًا، أو ثورًا كبيرًا، فلنعد لك مكانًا واسعًا نظيفًا يليق بك، وماءً نقيًّا تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة»[١].

ويقول الأستاذ أنيس منصور: أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضًا، إلَّا أنه ليس محترمًا، وتطبق عليه أقسى أنواع القوانين والعقوبات، فهو منبوذ -وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالي ٦٠ مليون نسمة- لا أعرف بالضبط عدد الثيران، ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرث الأرض ويضربه الفلاحون، واليد التي تضربه هي نفس اليد التي ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته[٢].

ثم يأتي المهاتما غاندي[٣] فيخاطب البقرة ويناديها باسم «أمي البقرة» فيقول: إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية، هي هدية الهند للعالم، هي إحساس رباط الأخوة بين الحيوان، الفكر الهندي يعتقد أن البقرة أمٌّ للإنسان وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند.

عندما أرى البقرة لا أعدني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

وأمي البقرة تفضُل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقة ترضعنا مدة عام أو عامين وتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا

---

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٣٠.

(٢) أنيس منصور، حول العالم في ٢٠٠ يوم، ص٤٥، المكتب المصري الحديث ١٩٨٨م- والطبعة الأولى ١٩٦٣م.

(٣) المهاتما: الروح الكبير ويعني بذلك المفكر العظيم أو الشيخ المبجل.

تطلب منا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي.

وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن عندما تمرض أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئًا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا نتتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة، إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين[١].

ولكن تلميذه «نهرو» اعترض على سجن الناس لأنفسهم طويلًا في طقوس وتعاليم أكلت صحتها ووقتها وطاقتها على العمل، وانشغالهم كثيرًا فيما يجب أن يأكلوه وأن يشربوه، وعن هذا الذي يسمحون له بأن يكون قريبًا يلمسونه أو لا يلمسونه وانشغلوا بالطبقات والطوائف أيها أشرف وأيها أقبح، وتوجه نهرو إلى مواطنيه بالخطاب: (اتجهوا إلى العلم بنفس حماسكم للدين، إنه وحده يخلصكم من ظلام عشرات القرون»[٢].

أما الشاعر الحكيم محمد إقبال، فله موقف آخر يعد دليلًا على تهافت الاحتجاج بتقليد الآباء والخضوع لسنن المجتمع الباطلة ما دامت لا تقوى على الصمود أمام النظر العقلي الباحث عن الحق، فمن المعروف أن إقبال نشأ وسط الأوثان وعبادة البقر، ولكنه رفض اعتناق عقائد هذا المجتمع واختار لنفسه الطريق السوي؛ ولهذا فهو حجة أيضًا أمام المتعللين بظروف البيئة والعصر الذين جعلوا لهما قوة أكثر فاعلية من إرادة الإنسان!

قال محمد إقبال: (إننا وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية إلَّا أننا رفضنا أن نعبد الثور والبقر، وأبينا أن نطأطئ رءوسنا أمام الكهان، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة، ولم نطف

---

(١) المرجع نفسه ص٣٢- ٣٣.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص١٩ ط. دار الشروق ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

حول بلاط الملوك وقصور الأمراء)[١].

نستنتج من هذا أن الاختيار ما زال قائمًا أمام الإنسان الذي يستطيع بمحض إرادته وبموجب اختياره إمَّا أن يحترم كيانه ويعرف دوره وهدفه، ويؤكد عزته وكرامته كإنسان ينبغي ألا يخضع إلَّا لربه ﷻ، ولا يعبد سواه، أو يغفل عن ذلك كله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

تقوم عقيدة التناسخ -أو تكرار الولادة والوفاة، أو تجوال الروح- على أساس فكرة العقاب للذين لم يستطيعوا أن يندمجوا في «الكل» الذي هو الإله في العقيدة البرهيمة لارتباطها بتصور أن الوجود واحد، فإذا ما مات الإنسان الشرير لا تنتقل روحه إلى إنسان آخر (بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الآبدين، إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجردًا تامًّا يصعد بها إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل، فإذا استطاعت الروح التخلص من إسار الشرِّ فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وبهذا الاتحاد تنجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة»[٢].

ونستخلص من هذا تحول دار الدنيا عند البراهمة من دار ابتلاء واختبار والآخرة دار حساب وجزاء، إلى اعتبار الأرض دار جزاء وثواب[٣].

وترجع فكرة التناسخ إلى نظرة البراهمة للنفس كجوهر (خالد صاف عالم مدرك تمام العلم والإدراك ما دام منفصلًا عن الجسد، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه

---

(١) من روائع إقبال - للندوي.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور العطار ص١٠٣.

(٣) أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي- ص٦٥.

ونقص علمه)[١].

ويوضح لنا النص الذي نقله العلامة البيروني في هذه الفكرة توضيحًا تامًّا على لسان قول باسريو لأرجن يحرضه على القتال: (إن كنت بالقضاء السابق مؤمنًا فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى لا ذاهبين ذهابًا لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن، ثم العود له).

كذلك يصف له النفس بأنها (أبدية الوجود، ولا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغرقها، ولا ريح توبسها، ولكنها تنتقل من بدن نحو آخر، كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق، فما عملك لنفس لا تبيد؟!)[٢] وهو بذلك يحرضه على القتال بشجاعة بلا خشية من الموت والقتل ما دامت النفس أبدية الوجود.

وانبثقت من عقيدة التناسخ أيضًا مجاهدة الهندوسي لنفسه والسعي نحو إلغاء إرادته ورغبات نفسه، أو باصطلاحهم «الفناء» في الكل.

وقد وردت العبارة الآتية عنهم: (من لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه في نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقيًا»[٣].

وقد انتقلت الفكرة إلى بعض صوفية المسلمين حيث كانوا يسعون إلى إماتة شهواتهم، وإعدام رغباتهم في سبيل الفناء في الله تعالى، وهو ما لا سبيل للوصول إليه، ولهذا لقوا معارضة قوية من علماء السنة[٤].

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة ص٤٣، الديانات القديمة، ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٢) ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني، نقلًا عن المصدر السابق، صفحة رقم٤٤.

(٣) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٦٦.

(٤) ينظر كتابنا «ابن تيمية والتصوف» ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

وحدة الوجود

ومن تصور التناسخ أو ولادة الأرواح تتضح عقيدة وحدة الوجود؛ لأن العقيدة البرهمية تنطوي على الظن بأن الكائنات تعود كلها في نهاية مطافها إلى المصدر الأول الذي نشأت عنه وهو الله (والإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض له ما يعرض لها، وروحه قطرة من نور الله، انفصلت عن الله إلى أجل محدود، واتصلت به، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ، وتجوال الأرواح، ثم تعود في النهاية إلى الله متى جاء الأجل) وهي تشبه دورة قطرة الماء في دورتها.. من صعودها بخارًا من البحر إلى انتقالها وتحولها من الثلج أو البرد وجريانها في الأنهار ثم رجوعها أخيرًا إلى البحر الذي انفصلت عنه[(١)].

إن هذه الفكرة تقوض الإيمان بالله من أساسها، وهي -كما يصفها الشيخ الغزالي- عنوان آخر للإلحاد في وجود الله أو تعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط، وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

= أما الفناء الصحيح في رأيه فهو يتمثل في تحقيق شهادة أن لا إله إلَّا الله، ويقول ابن تيمية لشرح «الفناء» المجهود عند العارفين أنه تحقيق شهادة أن لا إله إلَّا الله، فلا تشهد لمخلوق شيئًا من الإلهية، فيشهد أنه لا خالق غيره ويشهد أنه لا يستحق العبادة غيره، ويتحقق بحقيقة قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وإلا فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا شهدت حقيقة أنه الفعال لكل شيء ولم تشهد أنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأن عبادته إنما تكون بطاعة رسولهﷺ، لم تشهد حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإذا تحققت بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تحققت بالفناء في التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٨-٩]، وقال تعالى:﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد: ٣٠]، الرد على المنطقيين ص٥٢١.

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور عبد الواحد وافي، ص١٦٥ : ١٦٦.

ولو كانت الأرض لؤلؤًا ومرجانًا ما صح أن تكون «ذات الله»، إن الصاروخ شيء غير الإنسان الذي أطلقه، وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيّره[1]، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨]. ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الزمر: ٦٣]، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [المعارج: ٤].

ونفس الدرجة من الاهتمام لتوضيح هذا المعتقد وقف علماؤنا على امتداد تاريخنا للدفاع عن عقيدة التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، حيث يعتبر فهمها على وجهها الصحيح بمثابة الحصن الذي لاذَ به المسلمون لصد أي غزو ديني من خارج الإسلام للانحراف بعقيدته أو شريعته عما نزل به الوحي.

وفي ضوء دراسة الأديان منهج مقارن، نرى الإسلام وحده متميزًا بهذه الحصانة التي صد بها المحاولات الخبيثة الملتوية لتشويهه أو خلطه بتصورات أخرى منذ محاولة عبد الله بن سبأ ومن تبعه، ممن انحرفوا بالعقيدة، كنفي الصفات الإلهية بواسطة جهم بن صفوان والحلول عند الحلاج، ووحدة الوجود عند ابن عربي والفيض أو الصدور عند ابن سينا.

وتوالت قافلة العلماء المجددين الذي تنبهوا إلى مظاهر الزيغ في العقيدة التي تنحرف بها من التوحيد إلى الشرك أو تخلط بين مشاركة الله تعالى وغيره في الألوهية.

وكان قد حدث في تاريخ الإسلام موقف مشابه عندما تسللت إلى بعض المسلمين من الجهمية «أتباع الجهم بن صفوان» فكرة أن الله تعالى (هو في كل مكان، وليس هو في مكان، ولا يختص بشيء، يجمعون دائمًا بين القولين المتناقضين؛ لأنهم يريدون إثبات موجود، وليس عندهم شيء فوق العالم فيتعين أن يكون هو العالم أو يكون فيه، ثم يريدون إثبات غير المخلوق فيقولون: ليس هو في العالم، كما ليس خارجًا عنه»[2].

---

(١) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة -أنور الجندي ص٨٨- دار الاعتصام ١٩٨٧م.

(٢) نقض المنطق، ابن تيمية ص٥٠: ٥١، تصحيح محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

وهنالك تصدى لهم الأئمة، أمثال: مقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، والإمام أحمد بن حنبل مبينين التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية شارحين ما اختلط عليهم في فهم الآيات القرآنية التي تؤيدها الأدلة العقلية أيضًا؛ قال سفيان الثوري عن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، قال: علْمُه، وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: الله ﷻ فوق السماء السابعة على عرشه من خلقه وقدرته وعلْمه في كل مكان؟ قال: نعم، نعم على العرش «وعلْمَه» لا يخلو منه مكان[١].

ومن هؤلاء الأئمة أيضًا ابن تيمية الذي أزعجته هذه المظاهر، حيث تسللت إلى المسلمين من خلال التصوف فكرة وحدة الوجود عن طريق ابن عربي ٦٣٨هـ الذي جوز هو وأتباعه عبادة كل شيء، وكأنهم ما عبدوا إلا الله؛ لأن المذهب يدور حول أن الوجود واحد.

يقول ابن عربي:

وقد كنت قبل اليوم أكره صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

فأصبح قلبي قابلًا كل صورة فمرعًى لغزلان وديرًا لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف وقرآن

أَدين بدين الحب أنَّى توجهت ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني[٢]

ويقول أيضًا: (فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء)[٣].

ولقد عوضت فكرة وحدة الوجود بسبب انعكاساتها على العقيدة والأخلاق لأنه وفق هذه النظرة تصبح عبادة قوم موسى للعجل هي عبادة لله أيضًا، وتساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله تعالى، كما أدت هذه العقيدة الباطلة إلى تفسيرات مناقضة تمامًا

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة... للالكائي جـ٣ ص٤٠١ : ٤٠٢، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع/ بالرياض.

(٢) ابن عربي: ترجمان الأشواق ص٤٣ : ٤٤.

(٣) فصوص الحكم ص١٩٢.

للتوحيد الإسلامي، ومعاني الآيات القرآنية الجلية الواضحة، ومثال ذلك: رأي ابن عربي المخالف لصريح الآية القرآنية، حيث يصف موسى عليه السلام بأنه كان قرة عين لفرعون الذي آمن عند الغرق، (فقبضه طاهرًا مطهرًا، ليس فيه شيء من الخبث، لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئًا من الآثام)[١].

وعندئذ يعلق ابن تيمية، إذ يرى أن: (قوله لم يسبق إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة؛ لأن النص القرآني صريح في فسق فرعون، وكونه من المكذبين لموسى، الظالمين الداعين إلى النار)[٢].

ويأتي تلميذه ابن القيم ليؤكد عقيدة التوحيد الإسلامية، ومن مقتضياتها التنزيه في أدق صوره وأرقاها؛ لأن الإسلام جاء ليصحح العقائد الباطلة كافة، ويعيد بني آدم إلى الصراط المستقيم في العقائد والعبادات والشرائع، يقول ابن القيم: (وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدَك ملكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلَّا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلَّا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلَّا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع)[٣].

أما أثر وحدة الوجود في مجال الأخلاق، والسلوك الإنساني فإنها تؤدي إلى جبرية

---

(١) فصوص الحكم ص٢٠١.

(٢) محيي الدين بن عربي وغلاة التصوف، لعباس الغراوي ص١٤٢، من الكتاب التذكاري «محيي الدين ابن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده».
ولكن يلاحظ أن ابن تيمية يفرق بين أقوال ابن عربي بكتاب «فصوص الحكم» وبين سائر أقواله فيرى (أن المقالة مع كونها كفرًا فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرًا؛ ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبوت غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى، والله أعلم بما مات عليه) الفتاوى جـ٢ ص١٤٣.

(٣) الفوائد، ص٦٥، الناشر: زكريا إبراهيم، مطبعة العاصمة بالقاهرة، بدون تاريخ.

صارمة وتعطيل للإرادة، وتوقف التفكير، وامتناع التفرقة بين الخير والشر والتمييز بين الثواب والعقاب، وسقوط قيمة الإلزام الخلقي، وزوال المسئولية الأخلاقية بإسقاط ركنيها؛ العقل وحرية الاختيار[١].

أما ديانة السيخ «وهي متفرعة من الهندوكية» فتنسب إلى رجل هندي اسمه «ناناك» ولد بولاية بنجاب سنة ١٤٦٩م وتأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وسماحته، وأن الله واحد وأنه هو الأول والآخر، وإن ظل على اعتقاد الهنادكة بوحدة الوجود. كما ظل متأثرًا بالهندوكية لإنكاره البعث واعتقاده بالتناسخ، مع اختلافه مع الهنادكة في قولهم بالفناء، مفضلًا كلمة الاتحاد بالله، متصورًا أن الروح لا تفنى فيه ولكن تبقى ذات وجود متميز.

كذلك أحل الصفاء محل «النرفانا»؛ أي انعدام الرغبة، وصفاء الإنسان عنده يعني العجز عن الشر، إذ بعد اجتيازه لأنواع من الرياضيات النفسية يصبح الصفاء هو منتهى الإيجابية في تحقيق الخير!

ويقدر عدد السيخ في البنجاب وفي الهند بما لا يزيد على عشرة ملايين، وهم منتشرون في أوربا وأمريكا[٢].

****

(١) فتاوى ابن تيمية، ط. الرياض جـ٢، ص٢٧٩ «توحيد الربوبية».

(٢) من كتاب ديانات أخرى، أنيس منصور ص٨٤/ ٨٥، ٨٩.

أوجه الشبه بين عقائد الهند والنصرانية

يمكن القول بأن هناك أوجه للشبه بين عقيدة النصارى وعقائد البراهمة، وربما كان المسئول عنها بولس، الذي اقتبس (اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيرًا عن خطيئة البشر)[١]، وغير ذلك من الملامح البارزة لعقيدة النصارى.

وهذا ما يدفعنا إلى بيان أوجه الشبه باقتضاب[٢] بين العقائد الهندوسية والنصرانية، كما توجهنا هذه المناسبة إلى التعرف على أحد معالم الإسلام البارزة في الاحتفاظ بأصوله سليمة لم تمسها يد بشر مما ترتب عليه سهولة التمييز بين الأصيل والدخيل، بين السنة والبدعة، ومن ثم فضح كل من يحاول الانحراف بعقائد الإسلام أو عباداته أو شرائعه.

ونرى أن ابن تيمية كان محقًّا في قوله: (إن مثل بولس في النصارى كمثل ابن سبأ في المسلمين)، والقياس مع الفارق كما سيتضح بعد قليل، ولكنه قصد أن كليهما أراد إفساد الدين، وإذا كان نجاح بولس ساحقًا في تغيير العقائد من جذورها وتحويل النصارى جميعًا إلى وجهة أخرى لم يردها المسيح عليه السلام، بل إنه بريء منها، نرى أثر ابن سبأ لم يتعدَّ دائرة الشيعة، أو الغلاة منهم، فقد طلبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقتله وحرق بعض أتباعه، فهرب ولم يستطع -بالرغم من نجاحه المحدود- النفاذ إلى القاعدة الصلبة من صفوف المسلمين حينذاك، وهم جميعًا أصحاب الوعي العقائدي المستند إلى القرآن والسنة، ولأن نور النبوة الساطع جعل ابن سبأ وأتباعه القليلين يختفون في الظلام كالخفافيش.

هذا وقد أورد مورس وليمس صاحب كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»[٣] مواضع المطابقة بين أقوال الهنود على لسان كرشنة -وهو من أشهر

---

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص٩٦.

(٢) للاستزادة راجع كتاب «الديانات القديمة» للشيخ محمد أبو زهرة من ص٣ إلى ص٤٢ الذي اعتمد على كتاب مورس وليمس «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية».

(٣) ومقابلة النص الصريح ابن كرشنة ويسوع المسيح يقع في الصفحات من ص١١٩ إلى ص١٣١، والكتاب نشره وعلق عليه وقدم له محمد بن إبراهيم الشيباني، ط. مكتبة ابن تيمية، الكويت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

فلاسفتهم، ولد حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد، وبين ما جاء بالأناجيل عن المسيح عليه السلام ، وذلك من خمسة وأربعين موضعًا، نجتزئ بعضها فيما يلي:

أقوال الهنود الوثنين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله
كرشنة: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.	يسوع المسيح: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.
- قد مجد الملائكة ديفاكي والدة كرشنة ابن الله، وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.	- دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك.
- كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه في غار بحال الذل والفقر.	- كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار.
- وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد كي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة.	- وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله، وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذي ولدوا في الليلة التي ولد فيها المسيح.
- واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة مطرا وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان والقائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا.	- واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر -لما ترك اليهودية- المطرية، ويقال: إنه عمل فيها آيات عديدة.
- وفي أحد الأيام لسعت حية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا	- وبينما كان يسوع يلعب لسعت حية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس

أقوال الهنود الوثنين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله
فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعًا من الموت وعادوا أحياءً.	يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.
- وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص.	- وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.
- كرشنة صُلب ومات على الصليب.	- يسوع صُلب ومات على الصليب.
- ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات.	- ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.
- وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدًا.	- وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدًا.
- ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير يكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.	- ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.
- وهو -أي كرشنة- يدين الأموات في اليوم الآخير.	- ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير.
- كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية.	- يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر أسراره العظيمة الإلهية.

ولا شك أن هذا التشابه يثير التساؤل: أهو التقليد المحاكاة للبيئات والمجتمعات المجاورة؟ أم خضوع للمألوف والمتوارث عن الأجداد الوثنيين مع التبديل والتعديل؟

كل هذا جائز ومحتمل، ونضيف إليه عاملًا آخر، نعطيه قدرًا أكبر من الأهمية والفعالية؛ لأنه ناجم عن أمر صادر من أحد رجال الدين؛ جاء في كتاب يسوع المسيح للقس بولس إلياس: (أنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا غريفوريوس الأول

الكبير إلى القديس أوغسطينوس أسقف كنتبري ببريطانيا يقول: دع البريطانيين وعاداتهم وأبقِ لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد واضعًا إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين)[1].

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذه المقارنات بقوله: (وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرَّفة فقد علم إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم)[2].

وإذا قال قائل بأن الاعتقاد بالتناسخ قد تسلل إلى بعض المسلمين، فإن ذلك يحتاج إلى شرح بيان: **أثر الهندوكية لدى بعض المسلمين:**

يمكن القول بأن الأثر الملموس الذي تركته الديانة الهندوكية في بعض المسلمين كان في نطاق ضيق محدود، إذ سرعان ما اكتشف بطلانه بسبب وعي علماء الإسلام بدينهم وعقائدهم، وقيامهم بدور التنبيه والتحذير من أية عقائد زائفة تتسرب إلى المسلمين عن طريق احتكاكهم بالأمم والثقافات والأديان الأخرى.

خذ مثلًا الاعتقاد بالتناسخ، فقد فضحه الأئمة والعلماء، ومنهم الإمام ابن حزم، الذي حصر القائلين به منبهًا إلى بطلانه؛ قال ابن حزم: (افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين: فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت، وهذا قول أحمد بن حافظ، وأحمد بن ناموس تلميذه، وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي صرح بذلك في كتابه المسمى «العلم الإلهي» وهو قول القرامطة، وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد

---

(١) ملكوت الله: عبد المجيد الجندي ص١٧٣ نقلًا عن: المسيح الدجال، سعيد أيوب ص١٥٤ دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٩م، ونظرًا لأنه كان يعتبر «أول بابا حقيقي» فيبدو أن تعاليمه ظلت سارية وعمل بها البابوات بعده) ... للتعرف على مكانته وأهميته يُنظر كتاب «بابوات من حي اليهود» تأليف: بواكيم بزنر، وترجمة خالد عيسى ص١١٨، ط. دار حسان بدمشق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٢) المرجع نفسه ص٢٩.

المتصورة بصورة الإنسان إلّا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه ألبتة»[(١)].

ومما تسرب إلى بعض فرق الشيعة متصلًا بالتناسخ القول بالرجعة، فهي عودة الروح لحياة جديدة ولكنها في الرجعة تعود إلى الجسم، أي إن الشخص نفسه جسمًا وروحًا يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة علي بن أبي طالب ﷺ، وقال أكثرهم بعودة الإمام الثاني عشر وهو المهدي وسموه: « المهدي المنتظر» وقالوا: إنه سيعود لأرض فيملؤها عدلًا بعد أن ملئت ظلمًا.

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعوى وخرافات بلا دليل[(٢)].

أما انحراف بعض عامة المسلمين الذين أدخلوا في عقائدهم بعض الاتجاهات الهندوسية، فإن ذلك يخرجهم من الإسلام مثل بعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات بعض أتباع «معين الدين شسيتي» وهناك وثيقة نشرها الدكتور أحمد شلبي تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ما سماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة، وتسمى الباب المؤدي لساحة الضريح «باب الجنة»[(٣)].

وإذا أخرجنا هؤلاء بسبب هذه العقائد من دائرة الإسلام، فلا صحة إذن لما يراه جوستاف لوبون من تكون حضارة جديدة نشأت من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسي وتبادل التأثير بينهما وأطلق عليها اسم «الحضارة الهندية الإسلامية».

إننا لا نقر لوبون على رأيه إذ إنه خلط بين الحضارتين، بل دمج بينهما بسبب وجود

---

(١) الفصل جـ١ ص٩٠ نقلًا عن أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي.

(٢) أديان الهند الكبرى ص٦٥.

(٣) المرجع نفسه ص٩٧.

تشابه عرضي بين بعض عامة[1] المسلمين الذين تأثروا ببعض عقائد الهندوس وبين الآخرين الذين تأثروا بدورهم ببعض عقائد الإسلام وشعائره، ووجه القصور في نظرية لوبون وغيره من فلاسفة الغرب أنهم لا يميزون بين الخصائص المميزة للإسلام التي تستند أساسًا على عقيدة التوحيد وبين ما لحق بالمسلمين من آثار ثقافية واجتماعية ظهرت إمَّا بسبب تفشي الجهل بين عامتهم، أو بسبب الغزو الثقافي المتعمد أثناء الغزو العسكري للعالم الإسلامي في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أن لوبون وغيره من الفلاسفة الغربيين لا يملكون الحصيلة العلمية الوفيرة عن الإسلام بشُعَبِه كلها، فضلًا عن الوجدان السليم الذي يمكِّن صاحبه من الفرز بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، ومن ثم اختلطت في أذهانهم العقائد والنحل فأدخلوا في دائرة الإسلام أمثال: غلام أحمد القادياني وفرق الإسماعيلية والبهائية أو البابية، وعلى حين أن هؤلاء قد خرجوا من دائرة الإسلام ولا ينتمون إلى حضارته، بل إنهم بما أعلنوا من عقائد وما ابتدعوا من نحل يعتبرون معادين للإسلام.

ومن هذه النقطة نميز بين من ينتمون إلى الإسلام بعقيدته الصحيحة وما يتصل بها من عبادات وشرائع، وبين المخالفين لها أيًّا كانت جنسياتهم أو ألوانهم أو أوطانهم أو قومياتهم، لننتقل منها إلى تصور عالمية الإسلام.

وخلاصة القول إن دائرة الحضارة الإسلامية تتسع عالميًّا فتشمل المسلمين على وجه الأرض ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وبناءً على هذا التصور فإن علماء الهند المسلمين المستمسكين بالمنهج الإسلامي الصحيح ينتمون إلى الحضارة الإسلامية الأم، ولا صلة عقائدية تربطهم بالحضارة الهندية حتى ولو ولدوا في الهند وعاشوا وماتوا بها؛ لأن عقيدة التوحيد هي الرابطة التي تربطهم

---

(١) من ذلك مثلًا أن بعض عامة المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التي يعبدها البوذيون، وحدث مرة ثورة في كشمير لأن شعرة يقدسها المسلمون سرقت لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول ﷺ، ينظر ص٩٨ وما بعدها من نفس المصدر.

بالأمة الإسلامية، وتفصل بينهم وبين الحضارة الهندية، وقد سجَّل التاريخ أسماء الآلاف من علماء الهند جيلًا بعد جيل الذين أسهموا بجهودهم العلمية في المحافظة على الإسلام وعلومه، وقامت المدارس والجامعات بدورها في توعية المسلمين لمواجهة حملات الغزو الغربي لا سيما في العصر الحديث، وكانت الهند -كما يقرر الشيخ الندوي- في طليعة دول المواجهة الإسلامية وكان الشعب الإسلامي الهندي أرهف شعورًا دينيًّا، وأرق وعيًا إسلاميًّا وأشد غيرة على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى، مستدلًّا على ذلك بمساهمتهم القومية بعد حركة الخلافة، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة وبشعائرهم الدينية(١).

والآن، بعد أن استعرضنا هذه الديانة وآثارها وما يدور حولها، يصح التوقف للاستفادة من ذلك كله في تعليق نوجزه في المسائل الآتية:

١- اتخاذ أديان الهند دليلًا واقعيًّا على التردي من عقيدة التوحيد إلى عقائد الشرك والوثنية (فالديانة البراهمية كانت في أصلها -على ما يبدو من نصوص أسفارها- ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح ... ولكنها تغيرت وحُرِّفت على مر الأيام، وحلَّت محلها عقيدة تثليث)(٢).

ومن هنا يتبين أن منهج علماء السنة والجماعة المرتبط بالنصوص الموثقة كان عاصمًا من الوقوع في الانحرافات العقائدية التي وقعت فيها الأمم الأخرى.

٢- المهاوي التي يتردد إليها الإنسان حيث يتسفَّل إلى عبادة البقر إذا بعُد عن عبادة الله الواحد الأحد.

---

(١) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ص٢٧ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ويعد الإمام الندوي الهند من بلاد الإسلام الأربع، «أي تركيا ومصر وإيران والهند» التي واجهت منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحي، الحضارة والثقافة والفلسفات والمثل الغربية ص٢٣، نفس المرجع.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١١٦ للدكتور عبد الواحد وافي، نهضة مصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣- افتقاد التشريع الإلهي يسبب وقوع المظالم الاجتماعية الصارخة التي نراها في نظام الطبقات في أبشع صورة، بينما نرى العدالة الاجتماعية متحققة في ظل التشريع الإسلامي عندما كان ساريًا في دولة الإسلام[١].

٤- الانحراف عن تصور حقيقة الإنسان بوحدته النفسية الجسمية معًا، حيث أدى الغلو في «الروح» إلى إهمال الجسد وتعذيبه بافتعال التقشف والزهد، بل إحراقه بعد الموت.

٥- تفيدنا دراسة الأديان بمنهج الموازنة في تتبع المؤثرات الوافدة من العقائد الأخرى إلى المسلمين كوحدة الوجود والفناء والتناسخ.

٦- مسئولية الأمة الإسلامية لرفع أنواع الظلم الواقعة على المسلمين في الهند وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا، حيث يعاني المسلمون هناك ألوانًا من الاضطهاد والظلم والاعتداءات على الأنفس والأعراض والأموال لا لسبب إلّا لاستمساكهم بالإسلام، يقول محمد ضياء الرحمن، المهتدي للإسلام: (وكانت العداوة للإسلام والمسلمين راسخة في قلوبنا نتيجة للاتهامات الكاذبة الشائعة عن ملوك المسلمين على لسان المؤرخين الهنادك»...(ومهما يكن من أمر معاداة الإسلام كانت من تراث آبائنا)[٢].

٧- ويبقى من مهمتنا أخيرًا إقناع المدافعين عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تتعداها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذٍ يستغني الإنسان عن «الوثنية» فتصبح التماثيل علامات ورموز، فنقول: إن إقناع أولئك سهل ميسور إذا وضعنا أمامهم الواقع الماثل أمام دارسي العقائد والعبادات في الهند

---

(١) وهذا المبدأ ما زال يشع نوره لطالبي الهداية، يقول محمد ضياء الرحمن -المهتدي للإسلام- وكان هندوكيًّا قبل إسلامه: (من يعتنق الإسلام يصبح فردًا من عشيرة المسلمين لا فرق بينه وبين الذي يولد مسلمًا.كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]، ص١١٩، من كتاب رجال ونساء أسلموا/ عرفات كامل العشي الحلقة/ ٢.

(٢) رجال ونساء أسلموا ص١١٣-١٤١ الحلقة/ ٢ إعداد وترجمة: عرفات كامل العشي - دار القلم، الكويت/ ١٩٩٣هـ - ١٩٧٣م.

وغيرها، والتي ما زال أصحابها يعضون عليها بالنواجذ؛ لأنهم يعكفون عليها بإصرار وبصفة نهائية، حيث يتضح أن المعركة بين التوحيد والوثنية مستمرة، وإن أخذت شكلًا آخر في المجتمعات الغربية التي تعظم التماثيل وتهيىء لها القاعات الخاصة والميادين العامة، وتحفها بمظاهر الإجلال والتقديس الدالة على عقيدة وثنية متغلغلة في النفوس، وليست كما يدعون تعبيرًا عن مظهر حضاري، وإلا فما الفرق بين نظرة الهنادكة للتماثيل ونظرة الغربيين لها؟ إنهم يحيطونها بنفس مظاهر التقديس، بالوقوف أمامها بخشوع وتارة بانحناء مع وضع الزهور والرياحين والاحتفال بأعياد أصحابها.

ويصف الإمام أبو الحسن الندوي العصر إجمالًا بقوله: (... في مكان تعبد الأصنام والأوثان، وفي آخر تعبد العناصر والأجناس والأقوام، وفي أرض تعبد الأهواء والشهوات، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة، وفي مكان تعبد الملوك والسلاطين، وفي مكان تعبد الأحبار والرهبان»[1].

ونتابع حديثنا عن نحلة أخرى، انسلخت من البرهمية وثارت عليها، وهي البوذية «نسبة إلى بوذا» لنرى هل استطاع بدوره حل مشكلات الحياة ولغزها كما زعم هو وأتباعه؟ أم أن الإنسان سيظل يتخبط في متاهات الجهل ما دام بعيدًا عن الإذعان لوحي الله تعالى وشرعه، مصرًّا على وضع العقائد والأنظمة لنفسه؟

*****

(١) ص٢١ من كتابه رسالة سيرة النبي الأمين ﷺ إلى إنسان القرن العشرين، دار حراء، المحلة الكبرى بمصر ١٥ رجب سنة ١٣٩٩هـ.

الفصل الثالث

البوذية

إن الحديث عن البوذية يذكرنا بالطرفين المتقابلين في تصور حقيقة السعادة الإنسانية، وكيفية تحقيها قديمًا وحديثًا؛ أي الفلسفة الأبيقورية قديمًا والنفعية حديثًا، فكان أبيقور يعلن: (علينا ألا نتجنب اللذائذ، بل يجب أن نختارها»[١].

وتبنَّى نفس الغاية ستيورات مل في العصر الحديث مع بعض التعديلات، ويقابلها في الطرف المضاد الفلسفة الرواقية، ورائدها زينون، الذي تخيل السعادة في الزهد وحياة التقشف وإماتة الرغبة في الحياة الطيبة وصبغ الحياة بطابع التشاؤم بسبب الاعتقاد بالجبرية، وعبَّر عنها شوبنهور في العصر الحديث، الذي رأى الكف عن النضال، فلا طائل من وراء أن تناضل الإرادة الفردية، ضد الإرادة الكونية[٢].

وكلتا النظرتين خاطئتان لأنهما افتقدتا التقويم السليم للإنسان وعجزتا عن تقديم الإجابات الكافية الشافية عن الحق متحررًا من الهوى ... لكمال الإسلام، حيث نعثر فيه على إجابات لكل التساؤلات حول حياة الإنسان مصيره ودوره، كذلك يغذي بعقائده وعباداته احتياجاتنا، ويشبع أشواقنا عن طريق منهج معتدل في العبادات وطريق وسط في التقرب إلى الله ﷻ وشريعة قويمة تبيح الطيبات من الرزق وتستجيب لنوازع الإنسان في إشباع اللذات بلا إفراط أو تفريط، بميزان معتدل لا تترجح كفتاه بين ضرورات الجسد وأشواق الروح، مع مزاولة النشاط الإيجابي في العمل والسعي للرزق وتعمير الأرض، فضلًا عن المذهب الإسلامي الأخلاقي المتكامل الأركان[٣]، لذلك سنتحدث عن البوذية كديانة خرجت على البرهمية، ومذهب فلسفي أخلاقي.

---

(١) قصة الفلسفة: ويل ديورانت ص٢٠٣ ترجمة أحمد الشيباني، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٥م.

(٢) المرجع نفسه ص٢٠٢.

(٣) ينظر كتابنا: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، ص١٦٥ وما بعدها، ط. دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

الخروج على البرهمية

أدى نظام الطبقات، واستبداد البراهمة وإحساس طائفة الكشتريا «أي الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب» بالظلم، أدى ذلك إلى ثورتي خروج على البرهمية:

١ - الجينية: وتنسب إلى الزعيم مهاويرا «أي البطل العظيم» ويسمى أيضًا جينا «أي القاهر والمتغلب».

٢ - البوذية: نسبة إلى بوذا[١].

وتتفقان معًا في العزوف عن المتع والملاذ الدنيوية، والميل إلى الرهبنة والتبتل[٢].

وسنكتفي بالحديث عن «البوذية» باعتبارها أكثر أتباعًا، وأبعد نفوذًا في الهند والصين واليابان[٣]، بينما لا يتجاوز عدد الجينيين الآن نحو المليون. أما معالم اختلافهما مع الهندوكية أو البرهمية؛ فإن الهندوكية تتضمن مجموعة كبيرة من الآلهة، بينما (أنكرت الجينية الإله ورفضت البوذية الحديث عنه، ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها، فسرعان ما ألَّه الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا واختلطت التماثيل والآلهة[٤].

لذلك اختلف الباحثون حول ما إذا كانت البوذية دينًا أو فلسفة، والسبب في إثارة هذا الاختلاف أن المتتبع لحياة بوذا يلاحظ أنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، وأن الأساس الذي حاول فيه حل مسألة الحياة أساس فلسفي، فالبوذية بناء على هذا الرأي فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين[٥].

---

(١) كتاب أديان الهند الكبرى، للدكتور أحمد شلبي ص١٠٨: ١٠٩ باختصار.

(٢) حيث اقتحمت حوالي ثلاثين قطرًا في آسيا بل تعدتها إلى أوربا ص١٨٤.

(٣) كان اسمه عند ولادته «سذهاتا» وفي مرحلة الرهبنة (غوتاما) أي الراهب أو «موني» أي المنفرد المنعزل عن الناس ثم في النهاية «بوذا» أي العارف المستيقظ والعالم المتنور.

(٤) المرجع نفسه ص١٩٤: ١٩٥.

(٥) المرجع نفسه ص١٧١ . وتفسير ذلك في رأي أحد الباحثين أن البوذي يستهدف الخلاص من عالم هو دائم الجريان، وجريانه مصدر ألم وشقاء، ولكنه لا يعتمد إلَّا على نفسه لتحقيق هذا الخلاص، فهو إذن لا يصلي إلى إله ولا يتهجد، وإنما ينطوي على نفسه ويتأمل، ص٦٥ من كتاب د/ عادل العوا
=

ويرى الإمام أبو زهرة أن مذهب بوذا إصلاحي اجتماعي خُلقي، أكثر منه ديني[١]. وسيتضح ذلك بصورة أوضح إذا تتبعنا حياته وأفكاره وخططه الإصلاحية:

حياة بوذا

اتفق الباحثون في تاريخ الأديان والعقائد على أن سيرة بوذا لا تخلو من قصص خيالية وأساطير حيكت حوله منذ مولده حتى وفاته، حيث ينسبون إليه معجزات وكرامات.

وعلى أية حال، فسنسرد أهم وقائع حياته توطئة لاستخلاص مذهبه ودعوته التي انتشرت في الآفاق حتى الآن؛ ولد في عام ٥٦٨ ق.م ونشأ في قصور أبيه الذي يعد من طبقة المحاربين، وعاش عيشة ترف، وتعلم الفروسية ثم تزوج في السادسة عشرة من عمره.

ولكن هذه الحياة الرغدة المنعمة لم تَحُل بينه وبين مشاركة التعساء والمصابين أحزانهم، وآلامهم (فقد خرج من القصر ذات يوم فرأى شيخًا فانيًا وعاد إلى منزله يفكر فيما يفعل الزمن بالمرء من تغيير، حيث يسلبه القوة والنضارة والحيوية والعافية، وفي اليوم الثاني رأى مريضًا أتلفه السقم والداء، فرجع حزينًا يفكر: لماذا يمرض هذا المسكين؟ من الذي يغير حاله؟ ولماذا تستحيل حياته عذابًا؟ وفي اليوم الثالث رأى جنازة ميت، فعاد والحزن والألم يعتصران قلبه[٢].

وعمقت هذه المشاهد في نفسه إحساس التشاؤم، ودفعته إلى التساؤل عن كيفية الحل لهذه المشكلات في رأيه، أي الشباب الذي ذوى والصحة التي تفنى والعمر الذي يمضي، وأدت به إلى ما تحفل به الدنيا من ألم وشقاء وتعب، فأخذ يبحث عن سبيل الخلاص،

= «علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي» منشورات عويدات، بيروت -باريس سنة ١٩٨٩م. ويرى أن تطور البوذية أدى إلى تأليه «بوذا» واعتبار رئيس كهنة البوذية في التبت أي «دلاي -لاما» تجسده الدائم ص٧٩.

(١) محمد أبو زهرة: الديانات القديمة ص٧٠، ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور جـ١ ص١٦٧، أحمد عبد الغفور عطار.

مصممًا على البحث عن الحقيقة مهما كلَّفه الأمر، وكان حينذاك في التاسعة والعشرين من عمره، حيث ودع زوجته وابنه وترك القصر هائمًا على وجهه، ثم استبدل ملابسه مع سائل في الطريق، وتوجه إلى الكهوف ليقيم مع بعض النساك البراهمة، فنافسهم في حياة الزهد والتنسك.

ولم يكتف بهذا القدر من الزهد والتقشف على طريقة النساك البراهمة، وإنما أدرك أن البرهمية عاجزة عن حل لغز الوجود ومشكلة الحياة، فانصرف إلى غاية أخرى وازداد قوة على نفسه متقلبًا في أشد ضروب التقشف والحرمان وإذلال البدن، وقضى ست سنوات في هذه الحياة حتى أشرف على الهلاك، وذاع صيته في الآفاق.

وتبالغ الأسطورة في وصف حالته آنذاك فتصوره بأنه أخذ في تعذيب جسده حتى لم يبق به حركة، فبلغ السكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة.

ولما بلغت به حالة التقشف والحرمان إلى فقدان القوة عن الحركة، وعطلت فيه قوى الفكر قرر ترك هذه الحياة المسرفة في تعذيب الجسد عائدًا إلى الطعام والشراب والكساء، فبدأ يستعيد نشاطه وقوته فمضى سائرًا في سبيله حيث وجد شجرة فجلس يستظل بظلها[١]. وعندئذٍ حدثت واقعة حصوله على المعرفة «النرفانا»..

النرفانا

تروي الأساطير أنه أثناء جلوسه تحت ظل الشجرة -وهي شجرة تين في رواية- فاض عليه العلم، وانكشفت له كثير من أسرار العالم[٢]، أو أنه حصل على الإشراقة التي كان يترقبها[٣]، فما هي هذه الأسرار؟ وما صفة هذه الإشراقة وطبيعتها وثمرتها؟

---

(١) نفس المصدر السابق باختصار من ١١٦-١٢٠.

(٢) أبو فيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص٥١.

(٣) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص١٤٢، وزعم بوذا أنه سمع صوتًا من داخله يقول بكل جلاء وقوة: نعم في الكون حق أيها الناسك، هنالك حق لا ريب فيه، جاهد نفسك اليوم حتى تناله.

لندعه أولًا يعبر عن نفسه حيث يقول: (جلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمعا، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق، لينشف الجلد، ولتتقطع العروق ولتنفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان، لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده فينجيني).

وإذا تأملنا إفصاحه عن تجربته الإشراقية نراها لا تروي غليلنا في معرفة «الحق» الذي كان يبحث عنه، وصلة الحق بهدف «النجاة» ومم يطلب النجاة؟[1]

وما دامت قد أعيتنا الحيلة فلنجرب الاسترشاد بشروح الباحثين، ومنهم أحد علماء الهند -محمد عبد السلام الرامبوري- حيث يصف «بوذا» بأنه استغرق في التأمل فغاب عن نفسه، وعن كل ما حوله وانتقل من حال إلى حال وأخذ شعوره يتجلى رويدًا رويدًا فأشرق له الكون، وتجرد عقله من شوائب المادية ورأى العالم في تقلباته ثم يمضي مستطردًا (وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت، فذاق سرورًا ما خطر بباله قبل، ووجد قوة ما استشعر بها قط، فأبصر ينابيع الحياة وأحاط بمنابع الآلام، واستوعب منابت البؤس، واكتشف مقاليد السرور، ورأى سبيلًا يهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرك متمناه ونال مبتغاه وتخلص من تقلبات الحياة ونجا من حزازات الآلام، وتيقظ شعوره وتنورت بصيرته)[2].

---

(١) اتفق الباحثون على صعوبة تفسير النرفانا؛ لأن بوذا نفسه رفض شرحها بطريقة مفهومة كما يقول «ردها كرشنن» ويقرر أنه لا يجدي نفعًا أن نحاول فهمها، بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح النرفانا، نفس المصدر ص١٦١.

(٢) بحث في ثقافة الهند، ديسمبر ١٩٥٢، نقلًا عن أديان الهند الكبرى ص١٦١.

(أما مفهوم التركيز الإبداعي فقد بدا وكأنه أُهمل أو أُشير إليه بطريق عابرة أو اختلط لدى عديد من الباحثين بمفهوم «التأمل المتعالي» أو «الصفاء الروحي أو النرفانا» الآتي من جنوب شرق آسيا، وقد انتشرت التدريبات الخاصة به في الولايات المتحدة وأوربا في العقد الثامن من هذا القرن ١٩٧٠-١٩٨٠ وتتكون من جلستين كل منهما من ١٥-٢٠ دقيقة بوضع الفرد فيها في وضع مريح مغلق العينين ويركز على صوت أو فكرة معينة ويسمح للذهن بالتعامل الحر معها، ويقال: إن هذا يتيح للذهن أن يكون حرًّا في أن يتحرك أكثر إلى المستويات الإبداعية من التفكير).

=

تلك هي خلاصة الصورة البيانية لتجربة بوذا، حيث يدور معظمها حول معاني مبهمة أقرب إلى الصور الخيالية منها إلى التعبير الدقيق عن الأحوال التي مر بها، وكل ما نستخلصه من شرح أحواله أنه تقلب من الآلام إلى السرور بعد أن غاب عن نفسه وعمن حوله، وأشرق له الكون حين تجرد عقله من شوائب المادية، هذا وقد بلغ من سيطرة فكرة النرفانا حدًّا جعلتها تختلط عند كثير من الباحثين بمفهوم التركيز الإبداعي بأوروبا وأمريكا، يقول الدكتور شاكر عبد الحميد بمقال بعنوان: «عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن» ولكن بقي أن نفهم المقصود «بالغناء» حيث تروي الأساطير أن رحلة الروح تصعد إلى «النرفانا» حيث العدم العام، وفناء النفس، الذي يفسره بعض فلاسفة البوذيين العصريين بأنه ليس الفناء المعروف (وإنما هو وجود يفنى في وجود، مثل: فناء ألوان الطيف في الشمس في البياض الناصع الذي لا لون له.... ولا يتم الوصول إلى النرفانا إلَّا بعد صفاء النفس والانفصال عن عالم الحس والواقع، ولا يمكن الوصول إلَّا بتعذيب النفس والعبادة الظاهرة)(١).

وحاصل البحث والتنقيب في كل ما تقدم يدفعنا إلى الكف عن المضي في التفسير والتحليل، مكتفين بقبول التصور العام للنرفانا كطريقة موصلة إلى معرفة الإشراقية بعد تخليص النفس من رغباتها.

إن هذا الإيضاح نجده بالتفصيل لدى الدكتور أحمد شلبي، حيث خلص إلى تقرير أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية إذ كان مفهومها عند بوذا في البداية الاندماج في الله والفناء فيه، وعندما أنكر وجود إله أصبح للنرفانا أحد معنيين:

١- أن يطهر الفرد نفسه بالقضاء على جميع رغباته وأغراضه؛ لأن الأغراض الشخصية الباطلة تجعل الحياة دنيئة أو ذليلة.

٢- إنقاذ نفسه من تكرار المولد بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير

مثال: عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن: مجلة المنهل، العدد ٤٧٤ السنة٥٦، المجلد٥١ صفر سنة ١٤١٠هـ/ سبتمبر سنة ١٩٨٩م. د. شاكر عبد الحميد سليمان آداب القاهرة.

(١)الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار جـ١ ص١٢١.

والشر[١].

..... ولنُقوم الآن النرفانا بميزان الإسلام[٢]

النرفانا في ميزان الإسلام

قبل المضي قدمًا في عرض المذهب الأخلاقي للدين البوذي، نرى ضرورة تحليل موقف بوذا من النرفانا من وجهة النظر الإسلامية.

وتمهيدًا لذلك نرى أولًا أنه من المحتمل أن بوذا أصيب بنوع من المرض النفسي أو العصبي نتيجة حياة الحرمان والتقشف والانقطاع عن الناس والحياة داخل الكهوف، فخيل إليه سماع ذلك الهاتف وسيطر عليه وملك نفسه وساعد على التمكن منه الضعف الجسماني والاستهلاك العصبي الشديد.

أما تقويم ما حدث لبوذا في تجربة النرفانا، فتتلخص فيما يلي:

أولًا: لو سلمنا بصحة سماعه لصوت هاتف فإننا نرجح أنه استمع إلى هاتف شيطاني[٣]، وتفسيرنا يستند إلى الاعتقاد بأن الشيطان يتسلط على كل من يبعد عن ذكر الله تعالى وعبادته، حيث يذكر الإمام ابن القيم أن العبد إذا أصبح وأمسى والدنيا همه، حمَّله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله إلى نفسه، وهذا شأن كل من أعرض عن عبودية الله تعالى وطاعته ومحبته مستشهدًا بقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦][٤].

والذي لا يعرفه أتباع النحلة البوذية أن الإنسان يتلقى هاتفين؛ أحدهما من الشيطان

---

(١) أديان الهند الكبرى ص١٦١.

(٢) وسنقصر التعليق على الرواية المنقولة عن بوذا بأنه سمع صوتًا من داخله، ثم غالى بعض الباحثين الغربيين فاعتبروه حيًّا - نفسه ص١٤٢.

(٣) يقول ابن تيمية: (فكل واحد من بني آدم إمَّا عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ...﴾ [الزخرف: ٣٦]، ص١٨٦، من كتاب دقائق التفسير جـ٣ تحقيق د.الجليند، ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٤) ابن القيم: الفوائد ص٧٧، الناشر: زكريا علي يوسف، مطبعة العاصمة بالقاهرة، بدون تاريخ.

والآخر من الملك، ولما لم يستطع التمييز بينهما فإنه سرعان ما يستأثر به الشيطان لنفسه ويزين له الباطل ويقوده حيث يريد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاعتقادات والإرادات الفاسدة تحصل بسبب شياطين الإنس والجن، والاعتقادات الصحيحة والإرادات المحمودة قد تحصل بسبب الملائكة وصالحي الإنس، فإن سماع الكلم قد يؤثر في قلب المستمع، فالمتكلم فاعل؛ فإن كان السامع قابلًا انتقش كلامه في قلبه، وإن لم يكن قابلًا لهم ينتقش فيه)[١].

إنه يستند في ذلك إلى قول سلف الأمة الإسلامية والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين (فإنهم يقولون: إن الشياطين توسوس في نفوس بني آدم العقائد الفاسدة والأمر باتباع الهوى، وأن الملائكة بالعكس إنما تقذف في القلوب الصدق والعدل).

قال ابن مسعود: (إن للملك لَمَّة وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق)[٢]، وفي الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «**ما منكم من أحد وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلَّا أن الله أعانني عليه فأسلم**» وفي لفظ: «**فلا يأمرني إلَّا بخير**»[٣].

ثانيًا: لا تتحقق السعادة الكاملة الدنيوية، بل يستحيل النجاة من الأحزان فيها؛ لأنها دار ابتلاء وامتحان، وأنها موضوعة على الكدر والمعاناة، فلا راحة فيها، فمن طلب فيها

---

(١) الرد على المنطقيين ص٥٠٩، المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. ويذكر أن العاصم من الوقوع في الزلل هو خبر الأنبياء عليهم السلام.

(٢) الرد على المنطقيين ص٥٠٦، وقد خرَّج محقق الكتاب الشيخ عبد الصمد شرف الدين الحديثين على النحو التالي؛ الأول: رواه مسعد عن عطاء، وابن السائب أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفًا. ورواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود مرفوعًا، والثاني: أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار... وقوله «فأسلم» برفع الميم وفتحها، فمن رفع قال معناه: «أسلم أنا من شره وفتنته» ومن فتح قال: «إن القرين أسلم من الإسلام» وصار مؤمنًا لا يأمرني إلَّا بخير- النووي.

(٣) رواه الترمذي في «أبوب التفسير» في تفسير سورة البقرة عن عبد الله بن مسعود وقال: هذا حديث حسن غريب.

الراحة فإنه يبتغي من الدنيا (ما ليس في طبيعتها لا موجود فيها ولها)[١].

ولكن لا يدفعنا هذا الاعتقاد إلى تبني النظرة التشاؤمية الغالية التي تلقي بشباكها فقط على منابع الآلام ومنابت البؤس، فإن من يفعل ذلك كمن ينظر إلى الحياة الدنيوية بعين واحدة، فإن الدنيا لا تمشي على وتيرة واحدة، بل لا بد فيها من اليسر العسر، والخوف والطمأنينة، والراحة والتعب، والحزن والسرور، والفقر والغنى وهكذا دواليك، إذ ربما لا يسير نهر الحياة في مجرى مستقيم يجتاز خطًّا واحدًا، بل يتفرع وينساب هنا وهناك حسب طبيعة الأرض التي يجتازها مجراه، ولكن لا يمنعه ذلك من استمرار جريانه حتى يصل إلى مصبِّه.

إن البديل إذن مستمدٌّ من نظرة أوسع للحياة وللمصير، يغذيها إيمان لا يتزعزع بالحكمة الإلهية التي تقصر أفهامنا عن إدراكها لأول وهلة، وربما يأتينا الفهم بعد انقضاء الأحداث والوقائع التي نظن أنها -للوهلة الأولى- مؤملة للنفس.

كذلك لا يتحقق التكيف النفسي المؤدي إلى انشراح الصدر إلَّا بالاقتناع بحقيقة الابتلاء في الدنيا، ومن ثم فإن المسلم يكيِّف حياته وفق هذا القالب، ويصحح نظرته ويعد لها أولًا بأول إذا ما مرَّ بتجارب مؤملة، أو عانى من الإخفاق في نيل بعض أغراضه ومقاصده.

وهاهو ابن الجوزي ٥٩٧هـ يضع الصياغة الملائمة للموقف الصحيح المؤدي إلى تقبل آلام الحياة عن اقتناع بمبادئ خمسة هي:

١- إن طلبت النفس أغراضها ولم تصبر على الحرمان فإن ذلك ينافي طبيعة الدنيا كدار ابتلاء واختبار «وهل الابتلاء إلَّا الإعراض وعكس المقاصد»؟

٢- إن النفس مملوكة لخالقها ﷻ وواجبها أداء حقه، ولا يجب على المالك تبليغها ما تهوى.

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ص٣٩، سلسلة الثقافة الإسلامية -ذو القعدة ١٣٨٠هـ/ إبريل ١٩٦١م.

٣- تقف المعاصي عقبة في طريق إجابة الدعاء وتحقيق الرغبات، بينما سبب الراحة التقوى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٤- ربما تطلب النفس ما لا تعلم عاقبته وربما كان فيه ضررها، والمدبر لها ﷻ أعلم بالمصالح: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥- إن المطلوب ينقص الأجر ويحط من المرتبة، فالأولى طلب ما يصلح الآخرة[١].

ثالثًا: إذا حاول الإنسان التحليق بروحه في الآفاق ظنًّا أنه يتخلص من دوافع النفس وهواتف الغرائز، فكأنما يبحث عن المُحال، اللهم إلا إذا توهم الفناء -أي العدم- أمرًا ممكن التحقيق.

فإذا علمنا أن الموت نفسه ليس فناءً، بل هو نقلة من حياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، فكيف نتصور أو نصدق تجربة بوذا التي هي أقرب إلى الوهم والخيال منها إلى الحقيقة والواقع؟ دعك من اتخاذها دينًا يدين به الملايين، ويحقق التساؤل أيضًا ههنا: (وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينًا يدان به؟)[٢].

النرفانا وأثرها عند الصوفية

وكانت للنرفانا بتجربتها النفسية والأخلاقية بريق خاص في دائرة الصوفية كما كان لفكرة «الفناء» عند الهندوس صداها أيضًا كما قلنا من قبل.

إن الحديث عن النرفانا كطريقة للمَعرفة تثير قضية تسللها إلى الصوفية إذ دار النقاش بينهم وبين المتلكمين؛ لأن الصوفية تبنوا المنهج القريب من النرفانا، فمنهم من رأى أن «صاحب» الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران عليه السلام[٣]، ويقصدون الرياضة تصفية القلب والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل والإكثار من العبادات

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص٢٤٤ - ٢٤٥ بتصرف -تحقيق عبد القادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩م.

(٢) الفوائد: لابن القيم ص٩٨.

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص٥١١.

كالصلاة والصوم ومداومة الذكر.

ومثال ذلك ما رواه ابن الجوزي، قال: (فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعًا مقدمًا في الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه، وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله الله إلى أن تنتهي إلى حالة لو تُرك تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنتظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء)[1].

وعارضهم المتكلمون أصحاب المنهج العقلي، ونفوا دور الرياضة وتصفية القلب في نيل العلم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية حاسمًا للنقاش بين الطرفين عندما أوضح بناء على تفسيره للآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن (التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب لنيل العلم)[2].

ويؤيد من جانب ما يأمر به كثير من أرباب العبادة والتصوف بملازمة الذكر يلتمسون الوصول إلى الحق، فإن هذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك[3].

ولكنه في الوقت نفسه يحدد الشرط العاصم للإنسان من الزلل والخطأ -حتى لا يقع

---

(١) صيد الخاطر ص٤٢٠ تحقيق عبد القادر عطا - مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩م.

(٢) المرجع نفسه ص٥١١.

(٣) نقض المنطق ص٣٥، ونذكر هنا أيضًا عبارته الثانية عن الفناء المحمود وهو عنده يعني (تحقيق الحنيفية وهو إخلاص الدين لله، وهو أن يفنى بعبادته عن عبادة من سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيما سواه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين -لا لنفسه ولا لغير نفسه- على قلبه شركة مع الله تعالى) ص٥١٧.

فيه المفتونون بتجربة «النرفانا»- حيث يقيد ذلك بقيد ضروري محكم لا بد منه في طلب المعارف الإلهية وحقائق عالم الغيب، لكي يوازن بين الصواب والخطأ، فيقرر أنه (لا يستغني أحد عن معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه؛ لأن الإنسان معرَّض بعد تصفية نفسه أن يُلقى الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣])[١].

ويلاحظ أن النقاش لم يتوقف عند هذا الحد، فقد كانت للصوفية صولات وجولات حول «النرفانا» أو «الإشراق»، يلاحظ ذلك بوضوح بالقارة الهندية حتى العصر الحديث، حيث نجد الإمام أحمد السرهندي ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٦م، المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني يحدد موقفه وموقف الإمام الدهلوي بقوله: (بأنهما كانا في مقام استولت عليهما فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيَّدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسما بهما إلى مقام أسمى من هذا المقام رجعا عنها)[٢].

والذي يشد انتباهنا متابعة تلميذه الشيخ عبد الباقي الدهلوي له أيضًا ويتضح ذلك من رده على سؤال خلاصته الاستفسار عن إمكان العقل بعد التزكية والتصفية والاقتراب من الله تعالى من غير حاجة إلى نبي يبعث ويتلقى الوحي بواسطة الملك.

وكانت إجابته عن السؤال متضمنة نفس الرأي الذي انتهى إليه ابن تيمية، مما يدل على استقلال المنهج الإسلامي في المعرفة بذاتيته الخاصة وتحذير علماء السنة من الجري وراء المناهج تقليدًا ومتابعة هنا وهناك.

---

(١) الرد على المنطقيين ص٥١١، ويذكر أيضًا أن المعرفة لا بد لها من شرطين؛ أحدهما قدرة العبد، ثم السبب الآخر: كالقوة في السهم والقبول في المحل، ولا ريب أن النظر هو السبب، فإن كان ذلك في دليل هاد -كالقرآن- تضمن ذلك النظر العلم والهدي «نقض المنطق ص٣١-٣٢».

(٢) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص٣٣-٣٤ مؤسسة الرسالة -بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

وبذلك أوصد الشيخ عبد الباقي الباب أمام كل صوفي يحاول اتباع طريقة الكشف المستوحى من «النرفانا»، قال: (مهما اقترب العقل واتصل بالله تعالى إلّا أن علاقته بهذا الجسم المادي لا تزول بتاتًا، ولا يستطيع أن يتجرد عنه تمامًا، فلا بد من حدوث الأوهام والشبهات بصفة دائمة، ولا تفارقه القوة المتخيلة والشهوانية والغضبية بأي حال، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفة مستمرة، أضف إلى ذلك صفات السهو والنسيان والخطأ التي هي من لوازم النوع البشري لا تنفك عنه أبدًا.

ولذلك فإن العقل ليس موضع ثقة في قضية الأحكام الإلهية، إذا تلقاها لم تكن بنجوة عن موضع الشك والارتياب، ولا تفارقه شائبة النسيان ومظنة الخطأ بخلاف الملك الذي هو مصون عن جميع هذه الصفات البشرية، وبعيد عن هذه الرذائل، فلا بد من أن يكون محفوظًا عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان)[1].

انتهينا إذن من عرض النرفانا كطريقة للمعرفة والإشراق عند بوذا وصداها عند الصوفية، وسنبحث الآن في البوذية كمذهب أخلاقي، ومنهج إصلاحي اجتماعي.

المذهب الأخلاقي في البوذية

إن السمات الأخلاقية بارزة أمام دارسي البوذية، بما تشتمل عليه من الحث على الفضائل واجتناب الرذائل.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (الجزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء)[2].

كذلك فإن بوذا أدرك -كشأن أصحاب الدعوات الذين يريدون نشرها بين الناس- دور الدعاة في نشر دعوته، فاعتنى بتربيتهم لاكتساب الخصال النفسية والفضائل الأخلاقية اللازمة لأداء رسالتهم على أحسن وجه، فأخذ يربيهم على الصبر واحتمال أذى المعارضين الخصوم، كما سنرى بعد قليل، وإن لاحظنا أن التربية اقتصرت على طرق

---

(١) المرجع نفسه ص٣٥: ٣٦.

(٢) الديانات القديمة ص٧١.

المعاملة والتفاهم -أي الوسائل دون الغايات- فلم تعد التربية بالعقائد في الأوقات المصيبة، كما تحدد الغايات بوعدها للطائعين بالثواب وبتوعدها للعصاة بالعقاب.

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات المنقولة عن بوذا تمضي فتذكر أنه تردد في أول أمره بين أن ينعم وحده بالمعرفة التي نالها، أو أن يبشر به وينشره ثم استقر رأيه على دعوة الناس إليه بعد أن تغلب الخير على نفسه.

وبعد ذلك جمع عددًا من الشبان بلغ تعدادهم الستين، وأخذ يعلمهم مبادئه ويلقنهم دعوته فاشتهرت دعوته بتسميتها «بالنظام» أو «عجلة الشريعة».

وهناك نموذج من اختيار أعوانه أو مريديه بعد تربيتهم، يعبر عن مدى التصميم على الدعوة والاستعداد لتقبل التضحية مهما كانت الصعاب[١].

كان هذا المريد «ويسمى بودنا» يريد الذهاب إلى إحدى القبائل المعروفة بالشراسة والخشونة، فأراد بوذا اختبار مدى قدرته على التحمل، فقال له: إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب فإذا وجهوا إليك ألفاظًا بذيئة خشنة ثم غضبوا عليك وسبوك فماذا كنت فاعلًا؟ فأجاب بودنا: أقول: لا شك أن هؤلاء قوم طيبون، لينو العريكة، لأنهم لم يضربوني بأيديهم، ولم يرجموني بالحجارة.

فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالحجارة، فماذا كنت قائلًا. أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصي ولا بالسيوف.

فإن ضربوك بالعصي والسيوف؟ أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يحرموني الحياة نهائيًا.

فإن حرموك الحياة؟ أقول: إنهم طيبون لينون إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا كبير ألم.

فَيُعجب به بوذا ويطلب منه الذهاب إلى تلك القبيلة موجهًا إياه بالوصية التالية: (وكما تخلصت فخلصهم، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت

---

(١) باختصار، من كتاب ديانات الهند الكبرى ص١٤٦-١٤٧، للدكتور أحمد شلبي.

فعزهم، وكما وصلت إلى مقام النرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك)[١].

وعلى أية حال، فإذا مرت بنا بعض الصعوبات في تحليل تجربة النرفانا لغموضها، فربما استطعنا أن نتقدم خطوة جديدة لفهمها عن طريق تحليل المذهب الأخلاقي للبوذية وشرح الطريق الذي خطه للقضاء على الآلام، وتحقيق المسرات؛ لأن المذهب نفسه منبثق من النرفانا.

الفضائل الأخلاقية وطرق اكتسابها

تتدرج عناصر المذهب الأخلاقي حيث تبدأ بالنص على أركان أربعة، ثم تتلوها خطوات السير الحثيث في ثماني شعب؛ أما أركان الأربعة فهي:

١- الاعتراف بوجود الألم والشقاء.

٢- التسليم بوجود سبب للألم والشقاء.

٣- التصميم بإمكان إزالة هذا السبب.

٤- وجود السبيل لتحقيق إمكان هذه الإزالة.

وتتلخص سبل إزالة الألم في (قتل الشهوة التي تربطنا بملذات الجسد وتدفعنا لطلبها، مع أن ما نطلبه يزول ويتغير، وكل ما يزول ويتغير ألم وشقاء، ولا نجاة ولا خلاص إلَّا بأن ننبذ ما تريده الشهوة، وفي ذلك قتلها، وفي قتلها النجاة والخلاص)[٢].

لهذا كان عماد بوذا في مذهبه الأخلاقي أن يجاهد الشخص الشهوات ويروض إرادته على الصبر على الحرمان من اللذات، ويتحقق ذلك بسلوك الجادة المستقيمة بتقييد حياته بثمانية أمور هي:

١- الاتجاه الصحيح المستقيم إلى ما تريده، اتجاهًا خاليًا من كل سلطان للشهوة واللذات وما تبعثه من أماني.

٢- الإشراق الصحيح المستقيم، ذلك بأنه عندما يتجه الصحيح المستقيم، بناءً على

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي جـ٢ ص٣٨٩-٣٩٠ نقلًا عن ديانات الهند الكبرى ص١٤٧-١٤٨.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.

الأمر الأول، وتعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء.

٣- التفكير الصحيح المستقيم، وذلك أن العقل عند خلوه من شوائب اللذة أصبح تفكيره مستقيمًا لا تؤثر فيه نزعة هوى ولا جموع شهوة.

٤- ويترتب على الخطوات الثلاث السابقة أمر رابع وهو اطمئنان العقل والقلب إلى الاعتقاد الصحيح الذي يطمئن له القلب.

٥- يأتي بعد ذلك نطق الإنسان وأقواله مطابقة تمامًا لاعتقاده ولما ارتاح إليه.

٦- يصبح السلوك مستقيمًا فيكون العمل مطابقًا للعلم، لا مجافاة بينهما.

٧- تتحقق بعد ذلك الحياة الصحيحة، وقوامها هجر اللذات هجرًا تامًّا ولا تشذ عن السلوك القويم.

٨- ويتوج ذلك كله المثابرة على بذل جهود الإنسان كلها في سبيل أن تكون الحياة مستقيمة[١].

وهنالك أيضًا الوصايا العشر التي تشكل آدابًا عامة صالحة وهي:

١- لا تزهق روح أحد.
٢- لا تكذب.
٣- لا تزنِ.
٤- لا تأخذ مالًا محرمًا.
٥- لا تتناول مسكرًا.
٦- لا تأكل طعامًا غير ناضج.
٧- لا تشهد حفل رقص وغناء.
٨- لا تتزين ولا تستعمل عطرًا.
٩- لا تتخذ أي فراش وثير.

---

(١) الديانات القديمة: محمد أبو زهرة من ص٧٢-٧٤ باختصار.

١٠- لا تقبل من أحد ذهبًا أو فضةً[١].

وقبل تناول المذهب الأخلاقي بالتحليل والنقد التفصيلي، نلاحظ على عموم المذهب خلو الخطوات الثمانية من تحديد أو تعريف للصحيح، فكيف تتحدد الصحة؟ وما مقدارها وحدَّها؟ فإن الناس قد يختلفون في الاتفاق على الصحيح.

كذلك لا نجد ما يقابل الثواب أو العقاب لمن يطيع أو يخالف الوصايا العشر فكيف نلزم الناس على اتِّباعها؟!

نترك الإجابة على هذه الأسئلة الآن، مكتفين بتأمل توجيهاته لأتباعه المنحصرة في «الألم»، إنه يقول لهم: (أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس بل فكروا هكذا: هذا ألم، هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم)[٢].

ومما يلفت النظر -كما أشرنا إلى ذلك من قبل- اقتصاره على توجيه أتباعه إلى الآلام والإلحاح عليها والدوران حولها بشكل يورث التشاؤم، ويصبغ النفس بالكآبة حيث يصبح في مستقرها الآلام، وتدور في داخلها معركة التخلص منها بحيث يظل شغلها الشاغل.

وربما يؤدي استمرار هذه الحالة ألا يتخلص المرء من الألم، بل ربما ازداد؛ لأن المثابرة على ذلك تجمع وتعمق الإحساس بالألم أكثر وأكثر، إن التفكير بهذه الطريقة والاقتصار على متابعة الألم وحده تجعل الإنسان وكأنه يغرق في دوامة من دوامات البحر فتغوص بالسابح ولا تترك له فرصة الطفو على السطح؛ لأنها لا تقدم له طوق النجاة.

وطوق النجاة في رأينا هو النصح بالتوازن في رؤية الحياة، لأن رؤية الألم وحده لا تعبر عن واقعية الخبرات الإنسانية التي تمر بها ألوان من السرور ولا ينكرها أحد؛ فإن الحياة -بالرغم من آلامها- تكتنفها ألوان من السرور والبهجة أيضًا متعددة المصادر؛ كالصحة والمال والأهل والأولاد والتمتع بالنعم التي لا تحصى من مآكل ومشارب

---

(١) المرجع نفسه ص٧٦ وانظر الديانات والعقائد في مختلف العصور ص١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.
(٢) ديانات الهند الكبرى ص١٦٧-١٦٨.

وملابس، بل هناك أيضًا مصادر للسرور والبهجة غيرها، تتمثل في رؤية آيات الله تعالى في الكون والمخلوقات من حوله على الأرض، في رؤية البحار والأنهار والشمس والقمر والنجوم وغيرها من آيات الجمال التي تبهج النفس وتحبب لها الحياة.

وكان الإمام ابن حزم أكثر توفيقًا وواقعية بما اقترحه لنا من علاج نداوي به آلام الحياة، ويرجع توفيقه إلى الانطلاق أولًا من عقيدة إيمانية راسخة، ثم رؤية للحياة أشمل ثانيًا، تتسع لحياة الدنيا والآخرة، فأرشدنا إلى (كل ما يعصم من الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ونخلص في الأخرى من كل هول ومضيق)[1].

ويخبرنا ابن حزم في المقدمة عن خلاصة تجاربه التي كان يراقب خلالها أحوال الناس بغية العثور على غرض واحد يجمعون على استحسانه والسعي إليه، فعثر على غرض واحد سماه «طرد الهم» أي الحزن[2] أو القلق بلغة عصرنا، فإن الناس في رأيه لا يسعون في تحقيق أهدافهم من الأكل والشرب واللبس والأسفار والزواج واللعب وغيرها إلَّا ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال، ومع ذلك فإنها قد لا تتحقق بسبب عوارض كثيرة تعترضها كالعجز وظهور الآفات والخوف من التنافس وطعن الحساد وغيرها من العقبات التي تحول دون تحقيق الأغراض، وفي الوقت نفسه لم يجد عملًا سالمًا من كل عيب خالصًا من كل كدر، موصلًا إلى طرد الهم على الحقيقة إلَّا العمل لله تعالى؛ لأن العامل للآخرة (إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسر إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب وزايد في الغرض الذي إياه يقصد)[3].

فأين ذلك من آراء بوذا؟!

إننا إذا أفضنا في الشرح والمقارنة فلكي تصبح أحكامنا أدنى إلى الصحة بدلًا من الفتنة ببوذا وآرائه التي دفعت بأحد الباحثين إلى القول بأنه نبي، وهو ما لا يمكن تقديم

(١) «كتاب الأخلاق والسير» في «مداوات النفوس» المقدمة، تحقيق أحمد عمر الحمصاني، مطبعة السعادة بمصر.

(٢) يفسر الأصفهاني الهم بأنه «الحزن الذي يذيب الإنسان» المفردات ص٥٤٥.

(٣) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص١٢.

الدليل عليه، بل إن صحت روايات إنكاره الألوهية تجعله أحد الملاحدة[١] وأمام هذه الفتنة نرى ضرورة وضع الأخلاق البوذية في مكانها الصحيح بعد النقد والمقارنة، إذ لا نستطيع الإغضاء عن أثر المديح الذي يملأ الكتب في نفوس القراء ما لم يتسلحوا بالمعارف الصحيحة.

مآخذنا على المذهب البوذي في الأخلاق

١- من الناحية النظرية

عندما اطلعنا على المذهب بدا في ظاهره لامعًا جذابًا؛ لاحتوائه على إرشادات قويمة في شُعبه الثماني تتصل بمحاربة أهواء النفس ورغباتها في اجتناب اللذات -إذا قصد بها اللذات المحرمة وحدها- لأن الاستغراق في اللذات يورث الآلام، فضلًا عن الوصايا العشر الإيجابية، وتقابلها الرذائل المنهي عن الاتصاف بها.

كل ذلك حسن، ويبدو في مظهره أنيقًا أخّاذًا، ولكن إذا دققنا النظر فيه وكانت لدينا فكرة عن النظم الأخلاقية المتكاملة وجدنا المذهب البوذي يتهاوى ويتساقط أمامنا، وهاكم نتائج تأملنا المدقق للمذهب البوذي:

(أ) تنقصه الفضائل المتنوعة بتنوع الحياة الإنسانية في علاقتها المتشعبة؛ كالفضائل في العلاقات الاجتماعية، والفضائل العامة، والعلاقات الدولية وأيضًا في مجال الفضيلة الشخصية نفسها، كمبدأ «النية» باعتبارها لُب العمل الأخلاقي[٢].

(ب) تنقصه أيضًا ما يسمى في علم الأخلاق بعناصر الإلزام «أو وسائل الردع»، وهي التي تلزم الناس بسلوك الطريق القويم، وتردع المنحرفين الخارجين عنها.

(جـ) ويخلو المذهب أيضًا من العقيدة التي لولاها لما استطعنا إقامة بناء أخلاقي

---

(١) تنظر الدراسة التي أجراها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بكتابه «الديانات والعقائد في مختلف العصور» ص١٣٦-١٣٧ وما بعدها حيث ناقش الدكتور محمد توفيق صدقي صاحب كتاب «الصلب والفداء» الذي سجل فيه هذا الرأي.

(٢) انظر الدراسة المستفيضة للدكتور محمد عبد الله دراز بكتابه «مدخل إلى القرآن الكريم» ص١٠٥ وما بعدها.

متكامل، فقد رأينا بوذا أميل إلى إنكار الإله، وكان يتحاشى كل ما يتصل ببحث ما وراء الطبيعة «أو عالم الغيب»، فإنه جعل كل همه صرف أتباعه عن البحث في هذه القضايا، وحثهم عل الخوض فقط في أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم[١].

ونحن نرى في ذلك هروبًا من مواجهة الإجابات عن الأسئلة المنبعثة من بواعث النفس السوية، فضلًا عن ضرورة العقيدة في أي مذهب أخلاقي، فهنالك من ألوان السلوك ما يكون الدافع إليها بعيدًا عن تحقيق أي نفع عاجل، ويتضح ذلك في عقيدة الإسلام خاصة؛ كعقد النية والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى وأملًا في ثوابه، إلى جانب الترهيب من عقابه ﷻ.

وسيتجلى ذلك بصورة أوضح وأشمل إذا ما عرضنا للسمات الأخلاقية في الإسلام بعد أن نستكمل نقدنا للمذهب البوذي لتعذر تنفيذه كمنهج للحياة اليومية.

٢- المنهج البوذي والتطبيق العملي في حياتنا اليومية

والآن، نأتي إلى مرحلة التجريب، فنحاول تنفيذ المنهج البوذي لإصلاح الأخلاق، فماذا نفعل لنحقق السعادة المنشودة ونتخلص من الآلام؟

إذا بدأنا في التنفيذ، فإن أول ما نلاحظه أن الطريقة البوذية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، حيث تجمع بصورة تكاد تتشابه بين الاتجاه والإشراق والتفكير والاعتقاد، وكلها ذات صبغة تأملية نظرية، يختلط فيها الإدراك بالخيال، فلا نقف أولًا على حدود مميزة تعرفنا كيفية اجتياز مرحلة الاتجاه إلى مرحلة الإشراق ثم التفكير فالسلوك... إلخ.

هذا، بينما يبدو من الأمور الثمانية التي يتقيد بها الشخص في شئون الحياة أنها على شكل مراحل متدرجة.

وإذا ما توقفنا لإعادة النظر ومحاولة التطبيع العملي مرة أخرى، اتضح لنا أن هذا المران العقلي التأملي المتخيل عند بوذا يفترض إنسانًا آليًّا يسير على قضبان كالقاطرة، وينتقل تلقائيًّا من محطة إلى أخرى، ويقطع مسافة ما، لينتقل إلى غيرها، لا ينحرف يمينًا أو

---

(١) أديان الهند الكبرى ص١٦٧-١٦٨.

يسارًا بحكم طبيعة الخط الحديدي الذي يحكم حركته.

وإذا سلمنا جدلًا بإمكان نجاح البعض جزئيًّا في رياضة إرادته على النحو الذي اقترحه بوذا، فلا يصلح تعميم الحكم على صنوف البشر جميعًا، أي إذا صلح هذا البرنامج في مرحلة عمر الإنسان المتأخرة وبواسطة الرجال الحكماء الذين يغلِّبون صوت العقل وتضعف شهواتهم وانفعالاتهم، فلا يصلح لمرحلة الشباب المتسمة بالحيوية والنشاط المليئة بالآمال والطموحات.

وإذا ناسب المشتغلين بالفكر والأدب والعلوم فإنه لا يناسب العاملين في حقول الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأنشطة الإنسانية التي تستنفد جهود أصحابها ولا تترك لهم وقتًا للتأمل النظري البحت إلَّا فيما ندر!

أما إذا أريد للإنسان أن يتجه دائمًا «الاتجاه الصحيح» فلا بد من توافقه مع فطرته السوية التي خُلق بها، لأن حرمان النفس من اللذائذ المباحة يمنعها من الاستمرار في الاتجاه الصحيح والحياة الصحيحة أيضًا.

ونحن نملك البديل الإسلامي الكفيل بالمضي قدمًا في الاتجاه الصحيح -أي عبادة الله تعالى في أعمال الإنسان وسلوكياته أثناء اجتيازه للحياة الدنيا- كما سبق الإشارة عند حديثنا عن مفهوم «العبادة» الواسع.

لا يصلح إذن المنهج البوذي للتقويم الأخلاقي أو تدعيم النفس «المطمئنة»، ولكن الذي يصلح منهج آخر «مفصل» بحكمة بالغة على تركيبة الإنسان الروحية والجسدية، وملائم لأنشطته وحركاته، ويمده بالذخيرة الإيمانية لمواصلة حياته مهما كانت طبيعتها، يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي: (وقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس وفي تغيير سلوك العمل الممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يغرسها في نفوسهم؛ ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة؛ الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وإن القيام بهذه العبادات في أوقات معينة بانتظام يُعلِّم المؤمن الطاعة لله تعالى، والامتثال لأوامره، والتوجه الدائم إليه في عبودية تامة، كما يُعلِّمه الصبر، وتحمل

المشاق، ومجاهدة النفس، والتحكم في أهوائها وشهواتها)[١].

نبذة عن السمات الأخلاقية في الإسلام

يطول بنا الحديث لو استقصينا السمات الأخلاقية في الإسلام، ويكفينا عرض بعض الملامح، ثم نترك للقارئ حرية الموازنة مع الأخلاق البوذية، التي تبدو حينذاك كقطرات في مياه المحيط. ومن هذه السمات:

أولًا: أن الشريعة الإسلامية نفسها بأوامرها ونواهيها تصطبغ بالصبغة الأخلاقية، يقول الأصفهاني: (ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحسان والفضل، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى)[٢].

والشريعة في هذا المجال لها دوران:

(أ) دور الردع والإلزام كما يرى ابن حزم، حيث تكف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق، وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب المواريث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل[٣].

(ب) دور الحث على الاتصاف بمكارم الأخلاق؛ كقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا... ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى انقضاء تلك الخصال.

والآيات كثيرة في هذا الغرض، حيث تحقق الأخلاق الفاضلة، بحيث تجعلنا نؤيد الرأي القائل بأن: (الشريعة إنما هي تخلُّق بمكارم الأخلاق)[٤].

---

(١) القرآن وعلم النفس ص٢٥٥، ط. دار الشروق ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٩١ تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، ط دار الوفاء ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٣) الفصل في الملل والنحل جـ١ ص٧٩-٨٠ صبيح ١٣٤٧هـ.

(٤) تفسير القاسمي «محاسن التأويل» جـ١ ص٩٠ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي =

ثانيًا: تنوع الفضائل بتنوع شعب الحياة الإنسانية

(أ) ففي مجال الفضيلة الشخصية يكشف لنا الدكتور دراز عن مبدأ جديد لم تقره الشرائع من قبل، ألا وهو مبدأ «النية» باعتبارها لُبَّ العمل الأخلاقي، فقد كان موسى عليه السلام يغري قومه بأرض الميعاد، والرخاء في الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم، ويظهر من دعوة عيسى عليه السلام طلب الانصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها ولكن في ملكوت السماء[١].

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين، لا كباعث أخلاقي وإنما باعتبار أن الغاية التي يقصدها الإنسان الفاضل أعلى من هذا كله (إنه في الخير المطلق، أي في ابتغاء وجه الله تعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره)[٢].

(ب) الفضيلة في العلاقات بين الأفراد، وتتضح من الآيات القرآنية العديدة التي أتت بتقنين عالٍ في الأدب والذوق الاجتماعي، ومن هذا الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾[الحجرات: ١٢][٣].

(جـ) الفضائل الجماعية والفضائل العامة: يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الأخوة في الله تعالى الأخوة في آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[الممتحنة: ٨].

وفي الوقت نفسه ينبغي إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال

= ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

(١) د. محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن ص١٠٥.

(٢) المرجع نفسه ص١٠٦.

(٣) وينظر أيضًا آية ٢٢ سورة النور، وآية ٥٩ سورة الأحزاب.

تعالى في هذا الأصل: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأمر بالحذر والتحرز من مكائد العدو وانتهازه الفرص فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١]، وقال: ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ﴾[النساء: ١٠٢][١].

أما داخل الجماعة الإسلامية فإن القرآن الحكيم يحدد مبدأين:

أحدهما: دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران: ١٠٣].

والثاني: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[الأنفال: ٢٥]، ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣].

(د) الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان، لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية إقامة علاقات مع دول معادية ولكن الوضع اختلف في عصر النبيﷺ، حيث أصبح أسوة في مجال الأخلاق، وقائدًا في مجال السياسة أيضًا.

ونورد بعض المبادئ التي وضعها القرآن -بالإضافة إلى ما سبق- في الحرب الشرعية لدفع العدوان: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم تتوقف الحرب عند انتهائها: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[الأنفال: ٦١]، والأمر باحترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[النحل: ٩١].

لقد اقتضت مهمة الرسول ﷺ كسياسي وقائد تشريعًا أخلاقيًا لظروف الحرب والسلم، كما تُبين لنا هذه الآيات وغيرها، إلى جانب القواعد التي حددتها السُّنة[٢].

ثالثًا: جاءت طرق الإلزام في القرآن الكريم متنوعة كاملة، ففي الدراسة التي أجراها

---

(١) الإسلام دين كامل، محمد الأمين الشنقيطي ص٢٢-٢٣ مكتبة ابن تيمية - الجيزة.
(٢) المرجع نفسه ص١١٣.

الشيخ نديم الجسر في هذا الصدد بين طرق الإلزام التي فصَّلها القرآن الحكيم وشعبها، كما أوضح الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب، مفصِّلًا أبواب الترهيب والترغيب، متبعًا طرق التربية الأخلاقية التي تهذب النفس وتقومها.

وتكاد تنحصر طرق الإلزام في القرآن الكريم في ستة أنواع، كما استخلصها الشيخ نديم الجسر في بحثه الجامع بين دراسة النفس والأخلاق في الإسلام، نلخصها فيما يلي[1]

١ - الإلزام بوازع العقل

إن مزية الإسلام الكبرى على باقي الأديان هو منحة العقل السلطة في الفهم واستنباط الأحكام، والآيات القرآنية التي تحث على تحكيم العقل وترك اتباع الظن لا تكاد تحصى، ذلك لأن عقل الإنسانية في بدايته وأثناء مراحله الأولى كان عاجزًا أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخير، وأن يحدد مكارم الأخلاق ومساوئها، وكان الوحي السماوي يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل، وعندما تكامل العقل الإنساني، وبلغ حدًّا يستطيع أن يعرف الحق والخير (أنزل الله سبحانه وتعالى آخر كتبه على آخر رسله ﷺ وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الأخيرة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق)[2].

إن آيات النظر العقلي، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن الحكيم، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالأنعام، لا حظَّ لهم في تزكية الأنفس أو تثقيف العقول، وهكذا أبطل القرآن الحجر على حرية التكفير، حيث كانت التقاليد الدينية قد كبَّلت بهذا الرق البشرية (وأن أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على

---

(١) القرآن في التربية الإسلامية، للشيخ نديم الجسر، وهو بحث جامع عميق يحتوي على دراسة قضايا حيوية في النفس، والأخلاق، ويقع في نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبير، منشور في مجلة مجمع البحوث الإسلامية، عدد خاص بعنوان التوجيه الإسلامي للشباب) ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ويُعرف الإلزام بأنه إلزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق وتنفيذ ما شرعه من الأحكام، والأخذ بما وصى به من مكارم الأخلاق، والعزوف عما نهى عنه من مساوئها.

(٢) نفس المصدر ص٨٨.

آيات الله، وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء)[١].

ولئن كان من (أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته، والكف عن معصيته)[٢]، فإن من البديهي أيضًا الإلزام بوازع العقل في المحيط الأخلاقي[٣].

٢- الإلزام بوازع الضمير «أو النفس اللوامة»

ولكن الإلزام العقلي لا يتم إلَّا للقلة من الحكماء، الذين يعبدون الله تعالى، ويطيعون أوامره؛ لأنه سبحانه مستحق بذاته للعبادة، وأن أوامره مستحقة الطاعة.

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل، وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس، ولا ينالها العقاب الأرضي بواسطة البشر، وضمير المؤمن موصول بالله سبحانه وتعالى، فهو يعيش في حراسة ضميره، ويقظة «نفسه اللوامة»، وهي بمثابة «محكمة أمن» داخل الإنسان (لا يمكن خداعها ولا الإفلات منها ولا تجدي عنها المعاذير، لأنها مرتبطة برقابة عليا، إنها لوامة دائمًا، توجه إلى صاحبها إنذارات التأنيب، حتى ترده إلى الخير)[٤].

٣- الإلزام بالترهيب والترغيب

تنوعت أساليب القرآن الحكيم من حيث الترهيب والترغيب؛ ففيما يتصل بالترهيب فإن الله سبحانه وتعالى يحذر العاصي من انتقامه في النفس، والأولاد، والثمرات، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار.

وفي جانب الترغيب وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر، وحفظ النعمة على من يحافظون على سلوك الطريق المستقيم، ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم، فتعويض المحرومين من خير الدنيا في المآكل والمشارب، والمساكن، وغيرها (وهو

---

(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص١٨٣، المطبعة السلفية.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني ص٦٦.

(٣) القرآن في التربية الإسلامية، لنديم الجسر، ص١٠٤.

(٤) دروس ونفوس جـ١، ص٢١٠ للدكتور/ توفيق سبع، ط. مجمع البحوث الإسلامية.

وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين، الذي يملأ الزيغ قلوبهم، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم ونقمتها من الحرمان فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري وفي منتهى الحكمة)[١].

٤- الإلزام بوازع الكفارات[٢]

ومن أساليب تربية الضمير، تفويض الله -سبحانه وتعالى- إلى العبد أن يعاقب نفسه جزاء لما اقترفت يداه، وتكفيرًا عن بعض الذنوب كالصوم، وهي عقوبة جسدية، أو عتق رقبة أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية، وهكذا يظهر لون من امتحان الإيمان وتعود الإنسان على محاسبة نفسه، بعد الإقرار بذنبه والإذعان لحكم ربه (وفيها تربية للضمير، واستحضار للرقابة الإلهية، وتعويد على حفظ الإيمان، والكف عن بعض المخالفات).

٥- الإلزام بوازع الرأي العام

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية هو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر الطاقة، ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق التي لا تمتد إليها يد القوانين، والحديث أيضًا يؤيد هذا الأسلوب وهو قول النبيﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**».

٦- الإلزام بوازع السلطان

وقد لا يصلح مع بعض الناس أنواع الإلزام السابقة، لذلك كان لا بد من وازع أعظم وهو وازع السلطان، حيث قيل: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، (وهي

(١) القرآن في التربية الإسلامية، للشيخ نديم الجسر، ص١٠٥.

(٢) ويرى الشيخ أبو زهرة أن الإسلام جعل كفارات الذنوب تعاونًا اجتماعيًا، فمن أفطر في رمضان فعليه عتق رقبة، أو صيام ستين يومًا أو إطعام ستين مسكينًا، ومن قال لامرأته: أنت حرام عليَّ فإنه لا يقربها إلَّا إذا أعتق رقبة أو صام ستين يومًا أو أطعم ستين مسكينًا، ومن حلف وحنث في يمينه كان عليه عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، ص٢١، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم، وفوض أمرها إلى الحكام)[1].

وبعد هذه الدراسة المختصرة للأخلاق في الإسلام، رأينا كيف تتضاءل الأخلاق البوذية إلى جوارها، وكيف تصبح متجردة من أية مقومات لترتفع بقامتها إلى المذهب الأخلاقي المتكامل كما وجدناه بشموخه وكماله متحققًا في الإسلام، مما يؤكد مصدره الرباني.

---

(١) المرجع نفسه ص١٠٦.

ونتحول الآن لنعقد موازنة أخرى لكي نعرف منها كيف أثرت البوذية في الديانة المسيحية، مكتفين ببعض النصوص المتطابقة في المضمون، ولا تختلف إلَّا في اسم المسيح عليه السلام بدل «بوذا».

البوذية أقوال البوذيين في بوذا	المسيحية أقوال النصارى في المسيح ابن الله
- ولد بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل.	- ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل.
- ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول- ديسمبر».	- ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حلَّ فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول- ديسمبر».
- لما كان بوذا طفلًا قال لأمه مايا: إنه أعظم الناس جميعًا.	- لما كان يسوع طفلًا قال لأمه مريم: «أنا ابن الله».
- لما أُرسل بوذا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة.	- لما أُرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف: «لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل متعلم».
- وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.	- وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.
- ولما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية؛ أي بقوة إلهية.	- ولما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية؛ أي بقوة إلهية.

- وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض.	- وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض.
- ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها.	- ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها.
- قال بوذا: (إنه لم يأت لينقض الناموس، كلا، بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء).	- وقال يسوع: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل).
- وجاء في كتب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا آية كي يؤمنوا به[1].	- وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة؛ أي آية ليؤمنوا به.

---

(١) مختارات من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية»، محمد طاهر التنير، الفصل الثامن عشر، مقابلة النص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح من ص١٣٢ : ١٤٧، مكتبة ابن تيمية بالكويت.

وهناك مقارنات أخرى أجراها السير آرثر فندلاي بكتابه «صخرة الحق» حيث سجل به اكتشاف لوحة أثرية في بابل تثبت أن إلههم «بعل» كان يتصف بنفس الصفات التي أُلحقت بعيسى عليه السلام، وأن هذه اللوحة كتبت حوالي ١٢٠٠ق.م. كما قارن أيضًا بين المسيحية وعقيدة الفراعنة في أوزوريس «من كتاب محمدﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن» ص٧٩-٨١، إبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي بمصر.

ويقول يواكيم برنز: (وبما أن أكثرية المسيحيين كانوا وثنيين متحولين لهذا فإن مسيرة المسيحية نحو الوثنية كانت تقتضي وتستدعي عدة تسويات وتنازلات ... وبالنسبة لكثير من الوثنيين اعتبرت مريم العذراء اسمًا جديدًا لربة الخصب التي كانوا يعبدونها، فالمجموعة الأولمبية اليونانية من الآلهة الوثنية اتخذت أسماء جديدة بتغير بسيط، أو حتى دون تغيير في قلوب ونوايا المؤمنين، «من كتابه: بابوات من حي اليهود ص٩٣».

خاتمة

لقد حققنا -بعد هذا العرض الوجيز والموجز للبوذية- بعض الأهداف على طريق دراستنا للأديان، منها:

١- زيادة الإيمان بأن الإسلام يتفوق على غيره ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٨]، وقد لاحظنا ذلك حتى في الجزئيات والفروع، فإن المذهب الأخلاقي البوذي بدا متهافتًا أمام المذهب الأخلاقي في الإسلام.

٢- تسليح الدعاة بالمعارف اللازمة لمعرفة المدخل إلى دعوة أصحاب الأديان الأخرى إلى الإسلام، أي معرفة المحاسن والمساوئ في عقائدهم، وتقديم البديل الأكثر إقناعًا وواقعية وملاءمة للإنسان أيًا كان عصره وبيئته، وبخاصة ونحن في عصر يتشوق أهله لمعرفة الحق وتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا بعد إخفاق الأنظمة الوضعية، يقول جارودي: (فللإسلام اليوم إمكانيات واحتمالات للانتشار في العالم أكثر حتى من الوقت الذي وصل فيه إلى ذروته، فالمنهج الأمريكي والمنهج السوفيتي قد أثبتا فشلهما، أما الإسلام فهو يمنح الإنسان الأمل في عالم يسوده الآن الخوف حتى على استمراره وعلى بقائه)[١].

٣- إزالة الغشاوة عن أبصار البعض المفتونين بكثير من النحل التي تتمتع ببريق زائف كالبوذية، والتحذير من الوقوع في حبائلها تحت ستار رياضة «اليوجا»[٢]، أو توهم تحقيق السعادة عن طريقها، خاصة إذا جاءتنا عن طريق الكُتَّاب الأوربيين والمروجين

---

(١) من محاضرته التي ألقاها بجامعة الأزهر بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي بعنوان «مستقبل الإسلام في الغرب» ص٤٩، من كتيب صادر من وزارة الإعلام بمصر، ترجمة الدكتور رجاء ياقوت، رئيس القسم الفرنسي بكلية الدراسات بجامعة الأزهر.

(٢) يذكر الدكتور أحمد شلبي أن «منظمة اليوجا» ذات صلة بالصهيونية، وهي منظمة تدَّعي أنها تباشر ألوانًا من الرياضة البدنية والتدريبات الروحية أو ما يسمى «باليوجا الروحية»، وأهم ما تعني به محاربة الأديان، والعمل على تحقيق ما يسمى الرباط الإنساني، ثم يصلون بذلك إلى الدفاع عن اليهود باسم الإنسانية، ص٣٥٩ من كتاب «اليهودية» ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م، وينظر أيضًا كتاب «اليوغا في ميزان النقد العلمي» للدكتور فارس علوان.

لأفكارهم ترفل في ثوب المديح الزائد، ويفيدنا الاستشهاد هنا برأي الأستاذ العقاد حيث يقول: (وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء)[١].

٤- وهناك ملاحظة أخيرة لا بد من ذكرها، إذ تحولت البوذية عندما انتقلت من الهند إلى اليابان، فبعد أن كانت في مصدرها الأصلي مليئة بالتشاؤم والانقباض والحزن، تحولت في اليابان إلى (ديانة مرحة ضاحكة متفائلة، فيها بشر وغبطة وفرح، وحفلات واجتماعات ومعابد وإلهيات وبهجة وأعياد وفيها وعد للصالحين بالجنة وللأشرار بالجحيم)[٢].

وهذا يثبت أنه في غياب عقيدة محفوظة بالوحي ومصونة بمنهج ثابت تتلون العقائد بمزاج الأمم التي تدين بها.

كذلك لا يفوتنا في النهاية التحذير من رياضة «اليوجا» التي أُغرم بها البعض تقليدًا ومحاكاة -لا سيما عندما دارت دورتها وانتقلت من الشرق إلى الغرب بزعم تحقيقها للشباب الدائم الصحة والسعادة، إذ أثبت الدكتور فارس علوان- وهو طبيب متخصص- أنها على النقيض من هذا، فهي علميًّا وعمليًّا تؤدي إلى أضرار وأخطار تصيب الجسم، وتقوض عقيدة التوحيد لأنها تلتزم صاحبها السجود للشمس وترديد اسمها بانتظام: (وفيها تقليد للوثنيين، وتضر بالصحة، وتضيع الوقت، وتدعو إلى التشبه بالحيوانات، وقد يتردى ممارسوها في تعاطي المخدرات...)[٣].

****

(١) «الله»، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ص٧٩، ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٤٩م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار ص١٩٢.

(٣) اليوغا في ميزان النقد العلمي، د. فارس علوان.

الفصل الرابع
الزرادشتية أو «المجوسية»

زرادشت بين الحقيقة والخيال

تعد الزرادشتية من أديان الفرس ونحل المجوس، وقد فصَّل المسعودي هذه الأديان، فذكر منها ديانة الصابئة عبدة الكواكب ثم الزرادشتية، وما تلاها من مانوية -نسبة إلى ماني- وهو القائل بالنور والبراءة من الظلمة، ومزدكية- نسبة إلى مزدك- وكان يدعو إلى المساواة في المال والنساء[1].

وإذا أردنا الحديث عن زرادشت فسنجد أنفسنا أمام روايات مختلفة، كالشأن عندما نفتقد الروايات التاريخية الموثقة الأسانيد بطريقة علمية، لذا فإننا أمام افتراضات حول حقيقة شخصيته وتاريخ حياته وعقائده، اختلط فيها أحيانًا الواقع بالخيال: فمن الباحثين من أنكر وجوده بالكلية، واعتبره شخصية خرافية نُسجت حولها الأساطير والروايات الخيالية التي لا سند لها من الواقع.

وفريق آخر خلط بين زرادشت وبين إبراهيم الخليل عليه السلام لاشتراكهما في اتجاه كليهما (إلى التأمل في كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل، وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة، وما يتعلق بمحاربة كليهما لما كان يعكف عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام، وما يتعلق بإلقاء كليهما في النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه)[2].

ويستبعد الدكتور وافي رأي هذا الفريق لعدة أسباب؛ منها أن زرادشت ظهر في أصح الروايات في القرن السابع قبل الميلاد، على حين أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان ظهوره حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد، وأن إبراهيم عليه السلام نشأ في بلدة «أور» ببلاد «الكلدان»، وإنه سامي الجنسية، على حين أن زرادشت نشأ بأذربيجان في بلاد إيران، وأنه

---

(١) منهج السعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د. هادي حسين جمود، ص١٤٤، مطبعة عصام ببغداد ١٩٨٤م، دار القادسية للطباعة.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د. علي عبد الواحد وافي، ص١٢٦/ ١٢٧.

آري الجنسية، وأن القرآن الكريم يحدثنا عن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة، وإسكانه فيها ابنه إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وبناء الكعبة، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز، ولم تكن له صلة بمكة المكرمة، ولا بالبيت الحرام.

وبعد استبعاد رأي الفريقين السابقين، يصبح الأرجح الأخذ برأي فريق ثالث يذهب إلى أن زرادشت شخصية حقيقية غير إبراهيم عليه السلام، وأنه إيراني الجنسية ولد حوالي ٦٦٠ ق.م. بأذربيجان، وأنه مات قتيلًا في بيت من بيوت النار في بلخ حوالي سنة ٥٨٣ ق.م. أثناء إغارة الطورانيين[١].

وكتاب الزرادشتية هو «زندافستا»، والكلمة مركبة من كلمتين: «زند» ومعناها شرح، وَ«افستا»: النص الأصلي، فمعنى الكتاب: النص والشرح، والكتاب (يتضمن التاريخ الأدبي لأمة في مدة طويلة من الزمن، مثلهم في ذلك مثل كتاب اليهود المقدس أي العهد القديم، ومن المعروف أن هذا الكتاب المقدس ظل قرونًا طويلة يعتمد على الرواية الشفوية قبل التدوين)[٢].

وعندما دانت دولة الفرس للمسلمين الأوائل، وبدأت تتسرب بعض الأفكار -أو ما نسميه بالغزو الثقافي كما سنرى- إلى المجتمع الإسلامي كان من أبرز الآثار التي سجَّلها المسعودي المؤرخ هذا التمييز بين الأصل والشرح أو النص والتأويل، يقول المسعودي: (وكان من أورد في شريعتهم شيئًا بخلاف المنزَّل الذي البستاه، وعدل إلى التأويل الذي هو الزند، قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل، وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل، فلما جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا: زنديق، وعربوه، والثنوية هم الزنادقة، وألحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم، وأبى حدوث العالم)[٣].

---

(١) المرجع نفسه ص١٢٨.

(٢) في العقائد والأديان -الديانات الكبرى المعاصرة، د. محمد جابر عبد العال، ص١٦٤، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م.

(٣) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د. هادي حسين ص١٤٨.

وإننا لنجد تضاربًا كبيرًا بين الباحثين في الديانات عند تناولهم للعقائد الزرادشتية، وربما يرجع ذلك إلى عدة عوامل، منها صعوبة قراءة كتابها المقدس، (فإذا حاول الإنسان قراءة الأفستا فإنه يدرك لأول وهلة أن قراءتها مستحيلة؛ ذلك لأن الفصل فيها لا يتلاءم ليكون وحدة، ولا يتسق أي جزء مع جزء آخر، فهي أجزاء مفككة يتلو بعضها بعضًا، يصدق عليها القول بأنها مجموعة جمل مفككة لا ينظمها عقد واحد)[١].

ومنها النقص في الأسانيد والاضطراب في الروايات التي نقلت لنا عقيدة زرادشت، مع اختلاف وجهات النظر بين من رأى أن عقيدته مستوحاة من تأملاته في الحياة والصراع الدائر بين الخير والشر، ومن رأى أنها جاءته بطريق الوحي باعتباره نبيًّا!.

وممن يميلون إلى الرأي الأول جيمي هنري برستد، الذي تحدث عن عناصر العقيدة الزرادشتية بقوله: (تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر، هذا الصراع الذي كان يراه حوله أينما سار... وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر، واعتقد أن الخير ليس إلَّا كائنًا إلهيًّا أطلق عليه اسم «مازدا» الذي كان اسمًا لأحد الآلهة القدامي، أو «أهورا مازدا» ومعناها رب الحكمة، الذي رأى فيه أنه هو الله ... ويقف ضد أهورا مازدا وأعوانه جماعة شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمن»، وهو الذي أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم «الشيطان»[٢].

أما الرأي الثاني الذي يستند إلى بعض النصوص المرجح أصالتها وتصور زرادشت على أنه نبي فقد ورد فيها ما يدحض الرأي الأول حيث يقول فيها مناجيًا ربه: (إلى أي أرض أفر؟ وإلى أي اتجاه يكون المهرب؟ إلى النبلاء والسادة وهم يقاطعونني؟ ... أم إلى الناس وهم غير راضين عني؟ أم إلى حُكَّام الأرض الخونة؟ كيف أبلغ رضاك يا أهورا مازدا)[٣].

---

(١) في العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال ص١٦٤.

(٢) انتصار الحضارة، جيمس هنري برستد، ترجمة د. أحمد فخري، ص٢٦٠، نقلًا عن المصدر السابق.

(٣) في العقائد والأديان ص١٦٦.

العقيدة بين زرادشت والأتباع

يذكر الشهرستاني أن زرادشت دعا إلى التوحيد وإبطال الأصنام، حيث أورد وصفًا كاملًا لعقيدته، ملخصًا إياها في عبارة قال فيها: (وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث).

كذلك فصَّل عقيدته حيث وصف الله تعالى بأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند، وأنه خالق النور والظلمة، لا يجوز أن ينسب إليه تعالى وجود الظلمة.

أما عن نظرته للعالم أو المخلوقات فهي خاضعة لمبدئي النور والظلمة، حيث فسر عنصر الوجود من نور وظلمة وخير وشر؛ فالأول أي «النور» له وجود حقيقي، والثاني أي «الظلمة والشر» ليس لها وجود حقيقي، مثل ظل الشخص حيث يرى أنه موجود ولكن ليس وجودًا حقيقيًّا كوجود الشخص نفسه.

كذلك يفسر حركة الموجودات بواسطة نظريته عن النور والظلمة كأصلين متضادين، فالخير والشر، والصلاح والفساد، والطهارة والخبث إنما حلَّت حسب تفسيره من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم، والبارئ تعالى هو الذي مزجهما وخلطهما لحكمة رآها في التركيب.

وبينما يحدثنا عن امتزاج النور والظلمة ينقل عنه أيضًا أنهما يتصارعان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الشر، ثم يتخلص الخير فيرقى إلى عالمه الأعلى، وينحط الشر إلى عالمه الأسفل.

وينسب إلى زرادشت أيضًا تكليف الإنسان بحركات ثلاث هي:

١ - الاعتقاد

٢ - القول

٣ - العمل[١]

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني -القسم الأول- تحقيق محمد فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، شوال ١٣٧٥هـ - مايو ١٩٥٦م.

وإذا قصَّر الإنسان فيها خرج من الدين والطاعة، أما إذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر.

ويبدو من عرض الشهرستاني للزرادشتية أنه يلتزم بالوصف ويقرر مشاهداته ويسجل معلوماته المستقاة من مصادرها، إذ يقول: (هذا ما وجدته من مقالات أهل العلم ونقلته على ما وجدته، فمن صادف خللًا في النقل فأصلح، أصلح الله ﷻ بفضله حاله، وسدد أقواله وأفعاله).

لذلك فإن تمييزه بين عقيدة زرادشت وعقيدة أتباعه لا بد أن تؤخذ في الاعتبار عند النظر في تعليل الاختلاف بين العقيدتين، فنلاحظ أن الشهرستاني ميز بين زرادشت الذي نص على أن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم، وبين الفِرق المتسبة للزرادشتية بعقائدها التفصيلية الخارجية عن هذا الأصل.

ونحن نرى أن هذا التغيير ربما استحدث بفعل الأتباع والمريدين -لا سيما المتأخرين منهم عن عصر زرادشت- وهذه هي الآفة الغالبة على معظم أصحاب الديانات والعقائد والنظريات الفلسفية، إذ تَحدث على أيدي الأتباع تحولات ملحوظة، منها ما يتناول الفروع، ومنها ما يتحول عن الأصول الجوهرية ويقطع الصلة بما قاله واعتقده الأوائل، فلا يبقى إلَّا الاسم والنسبة، والدليل على تحول الزرادشتية أن الاعتقاد في النار أخذ يتدرج خطوة خطوة، فبعد تعظيمها في أول الأمر بالاتجاه إليها وإلى الشمس ساعة الصلاة؛ لأن «النور» رمز الإله في زعمهم، انحرف بهم طائفة رجال الدين إلى اتخاذها بذاتها قبلة في العبادات، ثم جاءت الخطوة الأخيرة فعبدوا النار، وصاروا يبنون لها الهياكل والمعابد، بحجة أنها جوهر شريف علوي، وأنها لم تحرق الخليل ﷺ، ويظنون أن تعظيمها سينجيهم من عذابها يوم القيامة!

ومن المؤيدين لهذا الرأي أيضًا في العصر الحديث الدكتور علي عبد الواحد وافي، إذ يرى أن الديانة الزرادشتية كانت في أصلها ديانة توحيد، تدعو إلى عبادة إله واحد هو «آهورا مزدا» وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة، فأهورا مزدا يطلق في «البستاق» على الذات المتصفة بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم، وإنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويعلم حقيقة ما في السموات والأرض، ولا

يصل أحد إلى معرفة حقيقته، بل إن اسم «أهورا مزدا» يدل معناه في الفارسية على ذلك، فهو مركب من ثلاث كلمات وهو «أهو» و«را» و«مزدا» ومعناها على الترتيب: أنا-الوجود- خالق، أي أنا وحدي خالق الوجود[١].

وجاءت المرحلة التالية في تغيير العقيدة بسبب دخول الرمز على الذات الإلهية في الزرداشتية حتى تقوى الجماهير على إدراكها باعتبارها ذاتًا روحانية خالصة مجردة من شوائب المادة، فأشير إليها برمزين أحدهما سماوي وهو الشمس، والآخر أرضي هو النار، (فكلاهما عنصر متلألئ مضيء طاهر مطهر، لا يتطرق إليه الخبث ولا الفساد، وتتوقف عليه الكائنات، وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات نفسه، وترمز إليه)[٢].

وانتهت الزرادشتية كما بيّنا آنفًا إلى تقديس النار في ذاتها وعبادتها بعد أن كانت رمزًا للإله[٣].

منهج العامري (٣٨١هـ) في دراسة الزرادشتية

بقدر اتساع منهج دراسة الأديان وشموله بقدر ما يتمكن الباحث من تقويمها، فإن بعض العلماء من ينظر إلى الأديان بأفعال المتدينين، ومن يقومها بعقائدها وتصوراتها، وهناك من يقدرها بقيمها ومثلها العليا وما تحث عليه من فضائل الأعمال وترك رذائلها، وهناك من ينظر إلى آثارها في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات.

وربما انفرد عالمنا العامري بتقويم الزرادشتية من هذه الجوانب كلها، مقارنًا بينها وبين الأديان الستة الواردة بالآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الحج: ١٧].

ولكن تظهر جدة الدراسة التي أجراها العامري في تناوله للعنصر السياسي التاريخي ولذلك يشير إليها على أنها (الأديان الستة التي لها خطط وممالك)، أي أن كل دين منها قد

---

(١) الأسفار المقدسة ص١٤٣.

(٢) نفسه ص١٤٣/ ١٤٤ وترجمة معنى الإله، نقلًا عن كتاب «زرادشت الحكيم» لحامد عبد القادر.

(٣) نفسه ص١٤٦.

يكون مجتمعًا، وأقام دولة في فترة من فترات التاريخ(١)، غير أن المجتمعات التي نشأت عن الأديان الستة تختلف فيما بينها، فلما جاء الإسلام، ناصبته باقي الأديان العداء لأسباب مختلفة، منها أنه أطاح بنفوذ رجال الدين كما أنه ألغى النظام الطبقي الجائر، لا سيما في المجتمع الفارسي، حيث قسّم ملوك الفرس رعاياهم إلى خمس طبقات؛ أعلاها رجال الدين، يليها الوزراء، ثم قواد الجيش، ثم الكُتّاب، ثم الشعب أو الطبقة العاملة.

يقول العامري: (إن دين الإسلام لما كان ناسخًا للأديان كلها وكان ملكه قادحًا في الرياسات بأسرها، وقد امتلأت القلوب غيظًا عليه؛ لهدمه كراسي علماء الكتابيين، وطيه مقاعد الملوك والسلاطين، ثم كان مع ذلك في نهاية الحسن) ويعني بذلك أنه جاء بمبادئ تهدم هذه المزايا المصطنعة من وضع البشر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣](٢).

وقال الرسول ﷺ: «**إن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب**» وقال أيضًا: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم**»(٣).

وإذا كان الفرس قد أقاموا مدنية الأكاسرة، إلَّا أنهم ابتلوا -في رأي العامري- بمحنتين عظيمتين لا يدانيهما شيء من المحن الدنيوية في الفظاعة والنكر:

إحداهما: عوق الموابذة (وهم أعلى طبقة من رجال الدين الزرادشتي) لدهمائهم -بالقهر- عن اقتناء الحكمة الإلهية؛ أي احتكارهم لتفسير الدين ومنع العامة من النظر والاستدلال، ويفسر العامري هذا الاحتكار بحرصهم على الإبقاء على نفوذهم وسيطرتهم على العامة، وحتى لا يكتشف الناس -إذا ما نظروا وتحققوا- زيف اعتقادات زرادشت (وكان سببه أن زرادشت المتنبي لما أسمى لهم في الأبواب الاعتقاد بتلك الأصول الدالة على نزارة حظه من الحكمة للنظرية؛ نحو كون العالم من قديمين، وحول

---

(١) مقدمة كتاب العامري «الإعلام بمناقب الإسلام» للدكتور أحمد عبد الحميد غراب، ص٤٣، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(٢) نفسه، المتن ص١٩٤.

(٣) نفسه ص١٧٦.

جبلته من امتزاج الضدين وأنواع هذيانه في العفاريت والشياطين، وخطئه الفاحش في شكل الأرض وتخطيط الأفلاك -صيرهم بالمأخذ التقليدي مزجورين عن الحكمة الإلهية، تحرزًا من أن يتنبه الناظر فيها، والمتحقق لبراهينها، على سخافة دعاويه)[1].

والأخرى: التمييز الطبقي، فإن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد، ويزيدنا البيروني إيضاحًا فيصف النظام الطبقي الصارم الذي طبقه الملوك القدماء، فكانوا يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة أو حرفة، ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته[2].

إن الفكرة التي تنبه إليها العامري سبق بها عصره -لا لأنه عرف فكرة المساواة التي نص عليها الإسلام -فهي مطروقة منذ نزول الوحي، وطبقت في العصور الأولى، ولكن العامري تنبه إلى صلة العقيدة الدينية بالبنية الاجتماعية، وقد ثبت أنه بغير الدين الحق لا تتماسك المجتمعات، بل تظهر فيها إحدى الآفتين؛ إمَّا النظام الطبقي المرذول الذي وجدناه في المجتمع الفارسي، وقيام فئة بالإمساك بزمام الأمور في مجتمعاتها، والتسلط على غيرها من الفئات بوسيلة أو بأخرى، أو التعرض للتفتت.

وبتطبيق ذلك على مجتمعاتنا المعاصرة نجد أنموذجًا متحققًا في المجتمعات الغربية:

ويتلخص التحليل العلمي الذي قام به الدكتور حسين مؤنس إلى أن الدين جزء من البنية، بل هو نواة البنية نفسها، فهو وحي من الله وإرادة إلهية، لا ظاهرة اجتماعية أو فكر بشري، وعلى ضوء افتقاد هذه البنية بهذا المفهوم فإنه بالنظر إلى المجتمعين الروسي والغربي نجد أن كليهما استعاض بالنية الدينية وسائل أخرى، فلم تصل روسيا إلى ما وصلت إليه بواسطة المركسية -كما زعمت من قبل (ونحن الآن نراها تتهاوى)- بل بالمذابح التي أنزلها الشيوعيون بالناس في المجتمعات التي يسودونها، وبتخلل البنية الدينية في الحضارة الغربية بدأ الانحدار الذي يعلله «أرنولد توينبي» بسبب التوسع والسيطرة على البشر

---

(١) نفسه ص١٧٤، ونلاحظ أنه اعتبر زرادشت من المتنبئين الكذبة!

(٢) نفسه ص١٧٥ وتعليق محقق الكتاب د. أحمد عبد الحميد غراب.

جعلت منها ما يسميه «الحضارة العالمية أو الجماعة العالمية» نتيجة لابتلاعها لكل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت في تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل البوذية والهندوكية البدائيين .. وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل: اليوجا والكاراتيه، وكل ذلك ناشئ من أن بنية مجتمعاتهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول[١].

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن حالة التقلقل في قواعد المجتمع نتيجة فساد البنية أدت إلى محاولة البحث عن وسائل أخرى ما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضعفت ولم تعد كافية للحفاظ على المجتمع، فاتجهت الكتلة الغربية إلى الحماية الخارجية عن طريق التسلح والإنفاق في غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك.

ونعود إلى العامري في كتابه «الإعلام بمناقب الإسلام» الذي التزم بمنهج المقارنة متتبعًا الأدلة، باحثًا عن آثار الدين الحق وثمراته على الفرد والمجتمع، مميزًا بين ذلك وبين صور التدين المنحرف وآثاره الاجتماعية، وقد شغل أيضًا بتعليل مواقف الخارجين على الدين الصحيح أو المنكرين له، ورأى أنهم لا يتعدون أسبابًا ثلاثة:

١- المشرك وأكثر آفاته هو ما يظهر لحاستي سمعه وبصره في الأوثان المنحوتة من أنواع الأعجوبات، ثم (بمرور الزمن يتطور تعظيم الأصنام إلى عبادتها)[٢].

٢- الملحد بسبب استحباب اللذات الحسية التي تعميه عن تأمل العواقب وتدعوه إلى إشباع نفسه بالشهوات.

٣- الكتابي وأكثر آفاته هو ما وقع في كتبهم من التأويلات المختلة وتسلط على إنجيلهم من الأهواء المضلة.

ويضيف إليهم كلًا من المجوس والثنوية الذين يشبهون المشرك مرة، والكتابي مرة أخرى[٣].

---

(١) التاريخ والمؤرخون، د. حسين مؤنس ص٤٤١/ ٦٤١ باختصار، ط. دار المعارف بمصر ١٩٨٥.

(٢) الإعلام بمناقب الإسلام ص١٦٦/ ١٦٧ وتعليق د. غراب.

(٣) نفسه ص١٦٧.

أثر الفرس في بعض عقائد الشيعة

يبدو أن بعض الفرس ظلوا مستمسكين بعقائدهم الأصلية، محافظين على شعائرهم، حتى بعد اعتناق الأغلبية للإسلام، وكان هذا دأبهم منذ غزو اليونان لبلادهم، فإن الإسكندر الأكبر عندما غزا بلاد الفرس بعد موت زرادشت بنحو ثلاثمائة عام، مزق الأفستا وأقام بدل الزرادشتية عقيدة اليونان، ولكن الشعب الفارسي ظل محافظًا على ديانته، يعلِّمها سرًّا لأبنائه وأحفاده.

وبعد انتهاء الاستعمار اليوناني -أي بعد نحو خمسمائة عام- جمع الشعب ما تبقى من الأفستا في كتاب واحد، بالرغم من ضياع أجزاء كثيرة منها، وبنى معابد جديدة للنيران[1]، مما يدل على أن الغزو اليوناني لم يفت في عضدهم، ولم يستطع اجتثاث العقائد المجوسية من قلوبهم، بالرغم من مضي نحو خمسة قرون، (وبعد أربعمائة عام أخرى غزا العرب فارس وجاءوا بدينهم الجديد الذي أرسل به محمدﷺ وهو الإسلام، ولكن عددًا من الناس في إيران فضَّلوا الموت على اعتناق الدين الجديد، وإن فضل عدد آخر منهم اعتناق الإسلام، أما الآخرون فقد هربوا إلى بلاد سُمح لهم فيه بممارسة طقوس عبادتهم كما يشاءون)[2].

لذلك فإن بعض الباحثين في عقائد فرق الشيعة -لا سيما الباطنية- يلاحظون تشابهًا بينهم وبين الفرس، بل أطلق اسم «المجوس» على «القدرية» أيضًا كما سنرى.

قال الأستاذ أحمد أمين: (والحق أن التشيع كان مأوى لجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ... وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية وما في نفوسهم إلَّا الكره للعرب ودولتهم، والسعي لاستقلالهم)، ويستند أيضًا إلى ما ذهب إليه المقريزي في تعليله لاختفاء بعض الفرس وراء الإسلام بعامة والتشيع بخاصة بمحاربة الإسلام؛ لأنهم كانوا أهل ملك وعلوا على جميع الأمم، يعدون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما

---

(١) قصة الديانات، سليمان مظهر، ص١٣٨، ط. دار الوطن العربي، بدون تاريخ.

(٢) نفسه ص٣١٩.

انتصر العرب المسلمون عليهم -وكانوا يعتبرون العرب أقل الأمم خطرًا- تضاعفت لديهم المصيبة، فرأوا كيد الإسلام بالمحاربة عن طريق الحيلة لعجزهم عن المواجهة الصريحة المباشرة (فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى أخرجوهم بها عن طريق الهدي[١]، ولكنهم لو فحصوا ما دار حول الخلافة منذ تولاها أبو بكر لعلموا أن عليًّا لم يُظلم كما يتوهمون، بل إنه بايع وأقر بخلافة الخلفاء قبله ﷺ جميعًا.

ويرى المستشرق «دوري» أن الشيعة كانت في حقيقتها فرقة فارسية، مستندًا إلى أن الفرس لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمدﷺ لم يترك ولدًا يرثه، فإن عليًّا ﷺ هو الذي يجب أن يخلفه وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي، ويضيف أيضًا أنهم اعتادوا أن يروا في ملوكهم أحفادًا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي وذريته![٢]

ولا نجد للشيعة سندًا يعتد به في هذا الانحراف العقدي، ولو درسوا التاريخ بأمانة لوجدوا الاعتراض التام عليه، إذ عبَّر المغيرة بن شعبة ﷺ عن دهشته واعتراضه على اتخاذ الفرس بعضهم أرباب بعض، حيث كان الأكاسرة يدَّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، ولذلك علَّق المغيرة على ما لاحظه من تلك المظاهر مخاطبًا «رستم» قائدهم: «وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، فلا نفعله» معبرًا بذلك عن عقيدة التوحيد التي تجعل من المسلم عبدًا لله تعالى وحده.

ولما زحفت تأثيرات الزرادشتية على العالم الإسلامي في عصور متأخرة رأينا ابن تيمية يحذر من الوقوع في براثنها مذكرًا المسلمين بالحديث الصحيح: «**لتأخذن مأخذ**

---

(١) فجر الإسلام، أحمد أمين ص٢٧٦/ ٢٧٨ نقلًا عن «الشيعة والتشيع- فرق وتاريخ»، إحسان إلهي ظهير ص٤٠١، ط. إدارة ترجمان السنة بباكستان ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢) ويرى ذلك المستشرق الألماني ولهوزن المتعاطف مع الشيعة، فيذكر أنه لا سبيل للشك في أن آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين، نفسه ص٣٩٤.

الأمم قبلكم؛ شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: فارس والروم؟ قال: **«فمن غيرهما»**.

ويرى شيخ الإسلام أن هذا الحديث ينطبق على كل من اتخذ عقيدة أو سلك سلوكًا مشابهًا لهاتين الأمتين، ونحن نعلم أنهما في عقيدتهما يعبران عن الشرك في جميع صوره، والمتدبر للقرآن الحكيم يدرك لِمَ لَمْ يعن بالرد على منكري وجود الله ﷻ؟ وكأنه لم يفرض وجودهم أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق البداهة والعقل، ولذلك لم يوجه إليهم قولًا يشعر بأن له وزنًا، وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله تعالى آلهة أخرى.

ويقول الدكتور جميل عبد الله: (وكان للزرادشتية الثنوية أثر فعال في طوائف الشيعة والباطنية من قرامطة وحشاشين ونصيريين ودروز وغيرهم، ثم اعترفت به البهائية أخيرًا، ووجدت في الزندافسته -كتاب الزرادشتية- بشارات بالبهاء والباب، في نصوص نقلها البهاء عن الشهرستاني!»[1]

مكانة الشيطان ودوره في الزرادشتية

كان الفصل القاطع بين الخير والشر والتمييز بين فاعل كل منهما في العقيدة الزرادشتية الوثنية أثره في المغالاة في دور الشيطان وتأكيد فاعليته، فمما عرف عن زرادشت أيضًا اعتقاده (أن «أهورا» هو الخالق أو هو الحياة، أو هو خالق الحياة، أو هو الخير، وأنَّ «مازدا» خالق المادة أو هو الشر أو هو الشيطان أو مدمر الحياة أو هو المميت)[2].

لهذا فقد وصف الأديب الإيطالي «جوفاني بابيني» ما فعله زرادشت بقوله: (إن زرادشت هو أول من ارتفع بمستوى الشر في التاريخ، فهو الذي جعل الشيطان شريكًا في

---

(١) ص٩٧ من كتاب «الإسلام في مواجهة الحركات زمن الدولة الأموية» للدكتور جميل عبد الله محمد المصري، دار أم القرى، الأردن- عمان ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص٢٦/ ٢٧.

الخلق، ومِلْحًا لكل طعام، ومرضًا لكل جسم، ولهيبًا يحرق كل شيء)[١].

ولتصحيح هذا الوضع الخاطئ الذي التبس على الكثيرين فلا بد من الاستنارة بعقيدة أهل السنة والجماعة، إذ يتضح على ضوئها أن الإنسان هو الفاعل الحقيقي للشر إذا ما اقترفه وفعله، وليس الشيطان هو الفاعل، فللشيطان الهاتف والوسوسة فقط، ولكنه لا يمسك بتلابيب الإنسان أو يدفعه مستخدمًا قوته أو يجذبه من يديه أو رجليه، كل ما هنالك أنه يغري ويغوي ويظل يهتف حاضًا على فعل الشرّ.

أما «السلطان» الوارد في الآية: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فإن العلامة ابن مفلح يفسر السلطان المنفي في هذه الآية بالحجة والبرهان، واستنادًا إلى قول ابن عباس: (إني ما أظهرت لكم حجة إلَّا أن دعوتكم فاستجبتم لي وصدقتم مقالتي واتبعتموني بلا برهان ولا حجة)، وأما السلطان الذي أثبته الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ [النحل: ١٠٠]، فهو تسليطه عليهم بالإغراء والإضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزجهم إليه كما

---

(١) نفسه ص٣١.

وقد وجد المؤلف صدى لزرادشت عند الفيلسوف الألماني «نيتشه» بكتابه «هكذا تكلم زرادشت»، الذي نسب أقوالًا إلى زرادشت لم يقلها ولكنه -أي نيتشه- أراد أن (يتجاوز الإنسان إلى عبادة الإنسان الأعلى، إلى عبادة النبل والقوة والسمو في الإنسان نفسه... أليس الإنسان أسمى مخلوقات الله؟ إن عبادة الإنسان للإنسان هو تقديس لأقدس ما خلق الله)، ومن المعروف أن «نيتشه» كان فيلسوف القوة ومنظِّر النازية. نفسه ص٣٣.

ولا بد من الإشارة أيضًا في عجالة إلى العمل الأدبي المشهور للشاعر الألماني «جوته» الذي صور في رواية شعرية موضوع غواية إبليس لآدم عليه السلام وانتقل به إلى الأرض، مصورًا مأساة الإنسان مع الشيطان معبرًا عن ذلك في الصراع الذي دار في كيان «فاوست» العالم المسن، حيث انشطر كيانه نصفين وأصبح «مفيستوفيليس» هو الشيطان و«فاوست» هو «الإنسان» ويصور انتصار الشيطان في النهاية بعد أن أغراه بفتاة جميلة، ومات العالم في النهاية على أسوأ صورة، لأنه باع روحه واتبع خطوات الشيطان.

الإسلام حضارة، للدكتور حسين منصور، ص١٤/١٥، واسم العالم في الرواية الشعرية «مفيستوفيلس فاوستوسي» ط. الدار السعودية بجدة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣][(١)].

ولكن لا يحملنا ذلك على الاستهانة بالشيطان، أو التهوين من شأنه، بل ينبغي الحذر منه والتحصن ضده بأنواع الأدعية والأذكار الواردة في السنة، يقول ابن مفلح: (اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات؛ الكفر فإن سلم منه ففي عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المباحات فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة، ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى)[(٢)].

ولكن في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة لا يستقل الشيطان بفعل ما بغير مشيئة الله تعالى وإرادته، مع نسبة فعل الشر إلى الإنسان الفاعل حقيقة، ونكتفي بمثال واحد ضربه الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠]، فإنه تنبيه أن ذلك حكمة من حيث إنه هو المقدر، وتنبيه أن ذلك ليس كما زعم المجوس أن الله يخلق وإبليس يقتل)[(٣)].

---

(١) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، ابن مفلح ص٤٩، الناشر: علي رحمي، دار مرجانة للطباعة بمصر ١٩٨٠م.

(٢) نفسه ص٦٩.

وينظر مادة «شطن» بكتاب المفردات للراغب الأصفهاني ص٢٦١، إذ قال: (شطن: الشيطان النون فيه أصلية، وهو من شطن؛ أي تباعد، ومنه بئر شطون وشطنت الدار وغربة شطون.

وقيل: بل النون فيه زائدة من شاط يشيط احترق غضبًا، فالشيطان مخلوق من النار كما دل عليه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم، قال أبو عبيدة: (الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات، قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

(٣) المفردات ص٣٩٥.

المجوس ونفاة القدر «أو القدرية»

وهذا ما أدى إلى تشبيه نفاة القدر (أو القدرية) بالمجوس، وتضمنت كتب العقائد الإسلامية آراء علماء الإسلام في ذمِّهم وبيان انحرافهم عن العقائد الصحيحة، بل أثبت بعضهم صحة الحديث المروي عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأيام**» رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم[١].

ومهما كان الاعتراف في تصحيح هذا الحديث فإن المتن يعني أن هؤلاء الذين ينفون القدر يثبتون للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تقع الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه!

وفي حديث آخر رُوي مرفوعًا عن أبي هريرة ﷺ: «**تكون قدرية ثم تكون زنادقة ثم تكون مجوس، وإن لكل أمة مجوسًا وإن مجوس أمتي المكذبة بالقدر، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ولا تتبعوا لهم جنازة**». وقال الخطابي في شرح الحديث: (إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله تعالى خالق الأمرين جميعًا»[٢].

ويأتي فصل الخطاب على لسان شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أوضح الموقف العقدي الصحيح بين فريقي الجبرية والقدرية، مرجحًا عقيدة أهل السنة والجماعة باستعراضه

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، للسفاريني، جـ١، ص٣٠٥، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة أسامة، الرياض.
وإن كان ابن الجوزي قد عدَّه من الموضوعات، وذكر الحافظ المنذري أن في سنده انقطاعًا، إلا أن السفاريني يميل إلى تصحيحه.

(٢) نفسه ص٣٠٥، وينظر أيضًا الحديث المروي بصيغة أخرى مع اتفاق المضمون، حيث ورد بلفظ: «**والمكذب بقدر الله**»، ورواه الإمام أحمد عن ابن عمر ولفظه: «**لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون: لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» حسَّنه الشيخ الألباني ص٣٨ من كتاب «منهاج السنة النبوية» رجائي بن محمد المكي المصري -مكتبة التوعية الإسلامية بالجيزة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

لقصة خلق الإنسان منذ البداية، وطاعة آدم عليه السلام لربه تعالى وعصيان إبليس، مبيِّنًا أن الإيمان بالقدر لا يتنافى مع الإقرار بمسئولية الإنسان عن أفعاله.

قال ابن تيمية: (فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهًا للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذَّب بالقضاء والقدر كان مشابهًا للمجوسيين، ومن آمن بهذا وبهذا فإذا أحسن حَمِد الله تعالى، وإذا أساء استغفر الله تعالى، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، فهو من المؤمنين، فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصرَّ واحتج فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميًّا ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيًّا، فالسعداء يتبعون آباهم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس)[(١)].

دور الفرس في الغزو الثقافي

ونأتي أخيرًا إلى بعض الأدلة التي نقدمها لمن يشكك في الغزو الثقافي الغربي المعاصر، إذ إنه في حقيقته كسلسلة في حلقات الغزو المتكررة في تاريخنا، ولكن لم تستطع تفريغ نتاجها كاملًا أيام سطوة الحضارة الإسلامية، فحوصرت وضعفت فاعليتها بما لا يقاس بما أدته في العصر الحاضر بسبب سطوة الحضارة الغربية وانحسار حضارتنا.

وعلى أية حال فإننا نقدم في هذا الحيز من البحث بعض الأدلة من تاريخ احتكاك ثقافتنا بثقافات الأمم قبلنا -كالفرس واليونان- وأمامنا علامات ودلالات على طريق الغزو الديني والثقافي، رأينا شقه الأول -أي الديني- في التشيع، وسنراه الآن بشقه الثاني- أي الثقافي- في بعض الأعمال الأدبية وقد يجتمعان معًا ويختلطان بحيث يتعذر فرزهما؛ كما قام العامري بإبراز حقيقة ربما كانت خافية من قبل، وهي أن كتاب «الأدب الكبير» لابن المقفع، يحتوي على ترجمة ملخصة للوصايا الأخلاقية والآداب الموجودة في «الأوستا» الكتاب الديني للزرادشتية[(٢)]، ويذكر المسعودي ضمن الأخبار الموضوعة من خرافات مصنوعة بكتب منقولة إلينا من الفارسية، والهندية والرومية، مثل: كتاب «خزار أفسانه» وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية «ألف خرافة» والخرافة بالفارسية يقال لها:

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٨ ص٦٤ طبعة الرياض.

(٢) مقدمة كتاب «الإعلام» للدكتور أحمد غراب ص٦١/ ٦٢.

أفستانه، والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة»، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد ويناززاد)[١].

كذلك أورد الجويني بكتابه «الشامل في الأصول» ما ذكرته طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن أن الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقفع تواصوا على قلب الدول وإفساد المملكة واستعطاف القلوب، وارتاد كل منهم قطرًا، فقطن الجبائي في الإحساء، وتوغل ابن المقفع في أطراف بلاد الترك، وقطن الحلاج ببغداد[٢].

وجاء ابن تيمية فنوه بجهود العلماء قبله الذين قاموا بالكشف عن أستار هؤلاء المتآمرين على عقائد الوثنية ضمن عقائد المسلمين بإلباسها ثوبًا إسلاميًّا خادعًا لستر حقيقتها الباطلة، قال: (وكذلك ذكر الكاشفون لأسرار القرامطة وألا تكون لأستارهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب ٤٠٣هـ والقاضي أبي يعلى ٤٥٨هـ وطوائف كثيرة ما وجدنا مصداقه في كتب القرامطة من أنهم وضعوا لأنفسهم اصطلاحات روجوها على المسلمين، ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس الثنوية)[٣].

وكشف الدكتور عبد القادر محمود النقاب عن دور كل من الفرس واليهود في تأسيس الحركة الشعوبية بزعم أرستقراطية الدم الفارسي وعقيدة شعب الله المختار، وكان دور علماء وأدباء وشعراء الفرس إفساد الدين بالزندقة وإفساد العلم بالأكاذيب، وكان أصحاب رسائل إخوان الصفا وابن المقفع وبشار بن برد وابن الراوندي والرازي الطبيب والمعري[٤].

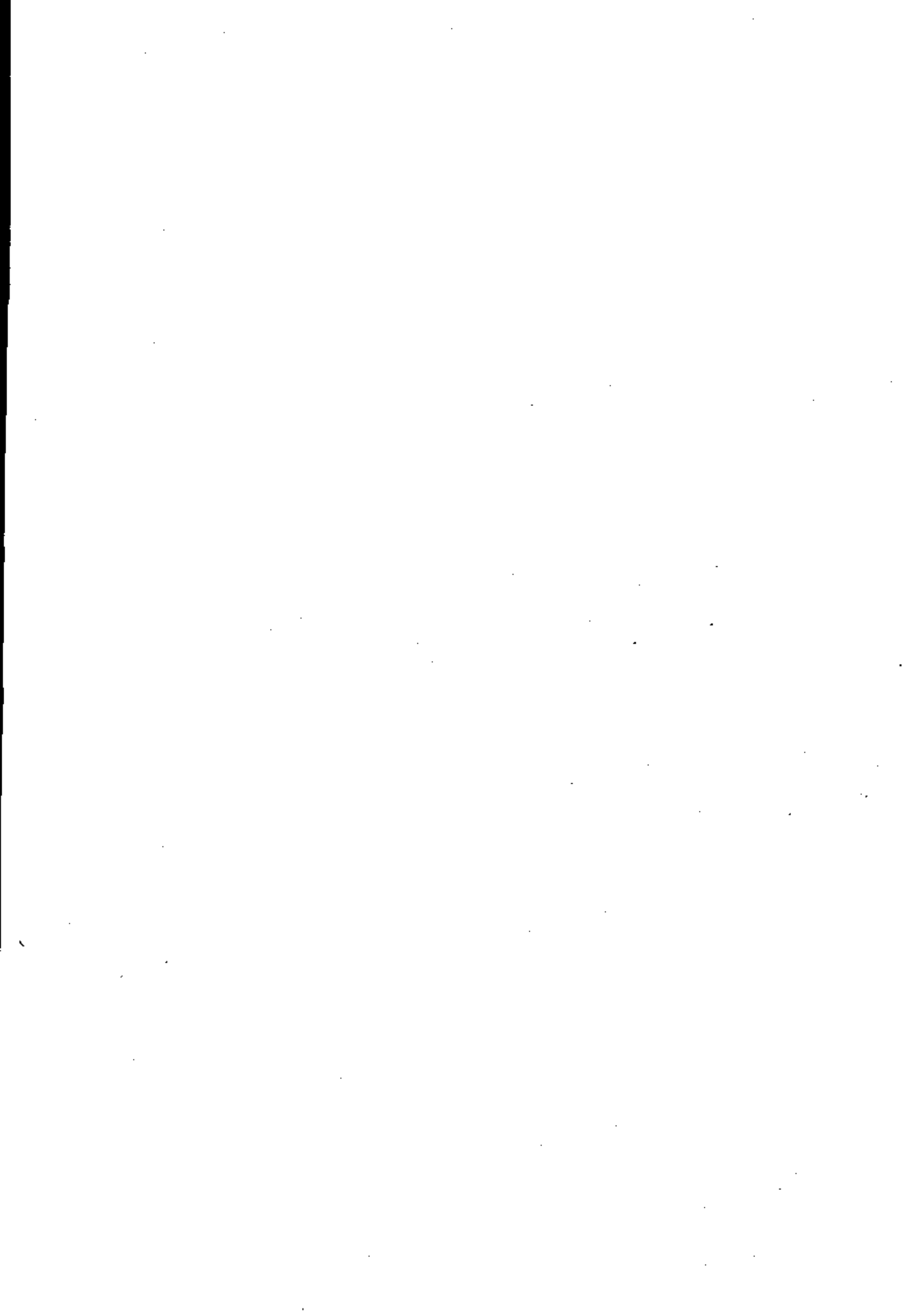
---

(١) مروج للمسعودي جـ٢، ص٢٦٠ ط دار الفكر ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٢) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٥٨٤، وإن صح النقد الموجه منه للجويني في الخطأ التاريخي، ولكن ألا يتفق الثلاثة في الهدف ولو اختلفت عصورهم؟ مع العلم بأن زمان الحلاج والقرمطي متقاربان.

(٣) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص١٩٣/ ١٩٤، تحقيق ودراسة / موسى بن سليمان الدويني- مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٤) يُنظر كتابه «الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث» ص١٤/ ١٥، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦م.



الفصل الخامس

اليهودية

تمهيد

إن ما يغنينا عن الاستطراد في عرض العقائد والأديان باستقصائها جميعًا أننا اكتفينا بتلك التي سادت في أقطار واسعة من العالم واعتنقتها الملايين كالهندوسية والبوذية والزرادشتية، وبقي علينا أن نعرض للديانتين؛ اليهودية والنصرانية.

وتمهيدًا للحديث عنهما نود أن نبين أولًا الغرض من هذه الدراسة في دائرتين:

الأولى: في داخل مجتمعاتنا، لتصحيح المفاهيم العقائدية في ضوء حملات التشكيك والتجهيل، حيث تخرجت أجيال وفق المناهج التعليمية التغريبية التي كان من أغراضها إمَّا أن تصبح العقيدة باهتة منزوع منها إيجابية الجهاد والاضطلاع بمسئوليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من شُعب الإيمان الكفيلة بتحقيق المجتمع الإسلامي الذي يعين الأفراد على الحياة وفق تعاليم الإسلام وآدابه، أو إشاعة فكرة التقريب بين الأديان، أي تمييع فكرة ذاتية الحق تفرده دون صور الباطل المتعددة.

الثانية: في التعامل الخارجي، ونقصد بذلك معرفة نفسيات وأخلاقيات من نتعامل معهم من أهل الكتاب، فلا تخدعنا الكلمات والعبارات المعلنة لأغراض سياسية وأهداف اقتصادية أو دعاوى للتقارب والنقاش وتبادل الرأي لمواجهة الإلحاد، بينما خطط التبشير تمضي قدمًا لاجتياح الأقطار الإسلامية في أفريقيا وآسيا، لا ينبغي أن تخدعنا هذه المظاهر وتحول بيننا وبين الفهم الحقيقي للنفسيات والأغراض، ويصبح المفتاح المؤدي للفهم هو معرفة العقائد[1] الدينية التي يحملونها في قلوبهم، وتنطوي عليها جوانحهم، فإن اليهود مثلًا عندما يبالغون في القتل والتمثيل والتعذيب، فإنما ينفذون التعاليم المدونة في كتبهم

---

(١) قالت «جولدا مائير» ذات يوم: (إن هذه الدولة -إسرائيل- موجودة نتيجة وعد أعطاه لها الله، ويكون من السخف أن يطلب الاعتراف بشرعيتها) من مقال «بيتر مانسفيلد» الشرق الأوسط، ١٦/٦/١٩٩٠م.

المقدسة بتأكيد وإصرار، مع التهديد بسوء مصيرهم إن هم أخلوا بتطبيقها[1] ويعلق الأستاذ كمال عون على ذلك بقوله: (لو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملًا طارئًا يخالفونه تثبيتًا لحكومة أو تأكيدًا لسياسة، أو دفاعًا عن النفس، ولو أن تلك القسوة التي يمثلونها كانت من وحي الظروف المحيطة بهم أو من آثار الويلات التي طالما كرثتهم على مدى تاريخهم، أو من باب المعاملة بالمثل لرجى أن تزول بزوال الباعث عليها، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين -وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين، وتسقاها قلوبهم منسوبة إلى الهداة المرشدين- فذاك الداء الذي لا أمل معه في دواء، ولا يرجى منه شفاء، ما دام للدين أتباع، وما قامت باتباعه تلك التعاليم)[2].

يحدث هذا على مسمع من العالم وبصره، وفي العصر الذي راجت فيه -إلى وقت قريب- طنطنة زوال صراع العقائد والأديان، وأنه عصر التسامح.

وأسفرت الأحداث أننا كنا نعيش في أوهام، فإذا كان الاستعمار العسكري قد انتهى، فإنه يحاول استعادة نفوذه -كما يذكر الدكتور أحمد شلبي- بطريق المبشرين أحيانًا، وأحيانًا بطريق عملائه من السكان الأصليين، ويقول: (وكان كثير من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتحرر، إذ كانت المسيحية تعد دين المستعمر، والإسلام دين المقاومة، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الإسلامي، وقلت شوكته بوصفه أدى مهمته، وانتهت أغراضه، في حين زاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله)[3].

---

(١) اليهود من كتابهم المقدس -أعداء الحياة الإنسانية، ص٤٣، كمال أحمد عون، ط. دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) مقارنة الأديان «٢-المسيحية» ص٣١، مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦٥م وينظر كتابه «الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن» مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م، وقد صدَّره بعنوان «تحذير للمسلمين» أورد فيه كلمة نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا بمجلة الشئون الخارجية عام ١٩٨٥م قال فيها: (روسيا وأمريكا يجب أن تعقد تعاونًا حاسمًا لضرب الصحوة الإسلامية).

كذلك ينبهنا الدكتور أحمد شلبي إلى آثار عمليات التنصير في بلاد المسلمين التي تستغل جهل بعض المسلمين بدينهم أو تنتهز فرص الفقر والمرض لجذب المعوزين والمحتاجين، وآثار ذلك سياسيًّا واقتصاديًّا؛ لأن المسيحية التي يُعلِّمها المبشرون ليست المسيحية التي جاء بها عيسى ﷺ (إنما هي التي نسميها «المسيحية السياسية» التي ترمي أولًا: إلى ربط دول آسيا وأفريقية بعجلة الغرب عن طريق نشر الدين، وترمي ثانيًا: إلى خلق فكر مسيحي يقف أمام المسلمين وأمام الفكر الإسلامي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية)[1].

وتقتضي المناسبة شرح بعض أبعاد الحركة المسكونية[2] المتولدة من الحركة التبشيرية التي تبناها المؤتمر التبشيري العالمي بأدنبرة سنة ١٩١٠م، وقد حضر هذا المؤتمر ١٢٠٠ مندوب أغلبهم من الإنجليز والأمريكان، من بينهم «بلفور» واعتذر «روزفلت» الرئيس الأمريكي الأسبق في آخر لحظة.

ورأس المؤتمر «جون موت» الأمريكي ومخطط أعمال التبشير في المؤتمرات على مدى نصف قرن، وكان شعاره: تنصير العالم خلال ٣٠ عامًا، ومن أقوال بلفور عقب انتهاء المؤتمر: (إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات)[3].

وعندما نقوم بدراسة الديانتين اليهودية والنصرانية لا ننسى الصلة بين عقائد اليهود والبروتستانت من النصارى.

وسنبدأ أولًا باليهودية، ممهدين لذلك بإعطاء فكرة عامة عن تاريخ بني إسرائيل.

---

(١) المسيحية ص١٣، ومما يُذكر أن شركة قناة السويس خصصت ٣ ملايين جنيه للتبشير في بلاد الشرق الأوسط قبل تأميمها ص١٥٧، من كتاب «أوروبا والإسلام»، للدكتور عبد الحليم محمود، ط. دار الشعب، ١٩٧١م.

(٢) من خطاب اللواء أحمد عبد الوهاب إلى جريدة الأهرام في ٢٣/ ٢/ ١٩٨٩م.

(٣) ويُطلق على باب روما أنه مسكوني، أي له نفوذ يمتد إلى جميع الأرض المسكونة، كما يُعد مجمع نيقية أول مجمع مسكوني. ص٩١، ص١١٦ من كتاب: بابوات من الحي اليهودي.

تاريخ بني إسرائيل

إن دراسة تاريخ بني إسرائيل يشكل ركنًا مهمًا في دراسة العقيدة اليهودية والتطورات التي مرت بها، حيث حرفوا الوحي الإلهي بالتوراة الأصلية الضائعة التي أنزلت على موسى عليه السلام، فقد اصطبغت العقيدة اليهودية بصبغة الأحداث على مراحل تاريخ الإسرائيليين، وصاغها الحاخامات في كتبهم، ومنها «التلمود»، و«بروتوكولات صهيون» اللتين تعد محتوياتها المفتاح الحقيقي لفهم شخصية الصهيوني المعاصر، يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: (الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة، تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل)[1].

كذلك فإن الإحاطة بتاريخهم يوضح الحقائق المحيطة بقضايا كثيرة، فإن من أبرز معالم تاريخهم صور العداء مع الشعوب المختلفة، يقول الأستاذ العقاد في وصفه لطباعهم: (لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووئام مع جيرانهم، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون، وقامت لهم في عهد النبي داود عليه السلام فشغلتهم الإغارة على جيارنهم، واتقاء الغارة من أولئك الجيران، ثم جاء سليمان الحكيم عليه السلام فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه ... ثم انقسموا بعده قسمين: إلى الشمال وإلى الجنوب، وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين، وما قاله الجنوبيون في الشماليين، ثم سباهم البابليون، وحملوهم إلى أرض بابل، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم، وسرحهم «كورش» عاهل الفرس بعد حين ... إلى أن يقول في ختام وصفه لهم: (وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرار لهذا التاريخ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل حدث لهم في كل بلد ما حدث في البلد الآخر)[2]... هذا هو

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور علي عبد الواحد وافي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، مصر، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس محمود العقاد ص٤١ مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨م، أما الانقسام المذكور فالمقصود به: إسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب، وقامت الحروب بينهما وظلت مشتعلة الأوار يرثها خلف عن سلف، حتى لتقرأ في ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين في يهوذا وإسرائيل هذه =

التاريخ العام لهم، وسنعود له مرة أخرى معللين مفسرين.

أما عن القسوة، والوحشية في الحروب فحدِّث ولا حرج عن بشاعتها مما سجَّلته التوراة نفسها، كما قرر العلامة غوستاف لوبون: (ويعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ ليقنع بذلك إلَّا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم «يهوه» من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء)[١].

وإذا عرفنا من هذه اللمحات في تاريخ بني إسرائيل بعض الحقائق المتعلقة بنفسياتهم وطبائعهم التي لم تتغير في واقعهم المعاصر، فإننا نريد بعد ذلك الوقوف على بعض الواقعات المهمة في تاريخهم توطئة لاستقراء وقائعها وتحليل أبعادها، بل إن الديانة اليهودية نفسها قد تأثرت بديانات ومعتقدات بابل بإقرار أحد مراجعهم وهو قاموس التوراة الذي يقرر (أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ما لم تؤخذ بعين الاعتبار، وبشكل مستمر الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرعت في وادي الفرات ... إن الأصول القضائية البابلية، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية)[٢].

= العبارة بنصها: (وكان بينهما حرب كل الأيام)، وقال تعالى: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤]، ص٦٦، وينظر كتاب «اليهود من كتابهم المقدس» للأستاذ كمال أحمد عون، ص٦٦، ط. دار الشعب عام ١٩٦٩م.

(١) اليهود في تاريخ الحضارات ص٤٧، غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر، ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٠م، وإننا نعقد براءة داود عليه السلام مما نسب إليه، ولعل صاحب هذا النص يحاول تبرئة قومه من هذه الأفعال بنسبتها إلى النبي داود عليه السلام وقد أشار لوبون إلى أن التوراة كتاب أُلِّف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف، ينظر ص٧٢ من المرجع السابق.

(٢) قاموس التوراة –منشورات سكريبنر- نيويورك ١٩٠٩م نقلًا عن: التوراة –تاريخها وغاياتها ص٢٨، سهيل ديب، ط. دار النفائس ١٤٠٦هـ.

إن هذا الخليط من الديانات والثقافات والطقوس أفقد التوراة وحدة الموضوع؛ لأنها ترجع إلى مصادر متعددة (وهو الرأي الذي يجمع عليه العلماء اليوم سواء كانوا من رجال اللاهوت أو غيرهم)[١].

أهم الواقعات التاريخية لبني إسرائيل

سنقتصر على أهم الواقعات التاريخية لبني إسرائيل بغية الإجابة عن السؤال التالي: هل أقاموا حضارة مستقرة بفلسطين، وكانت لها صفة الاستمرار، ومن ثم تصبح دعوى إعادتها دعوى مقبولة على ضوء تاريخ الحضارات التي أقامها غيرها من الأمم؟

وربما كان التطلع إلى إجابة سؤال آخر أهم وهو.... إذا أقيمت لهم دولة مرة أخرى، هل تلتزم بالقيم الأخلاقية وتقيم كيانًا حضاريًا يفيد البشرية، أم تستأنف نشاطها الهدام العدائي للأمم والشعوب كدأبها طوال تاريخها، ومن ثم يصبح مصيرها إلى الزوال ما دامت قائمة على الاستعمار والظلم واغتصاب الأرض -فلسطين- من أهلها الأصليين[٢]؟

إذا بدأنا بتاريخ هجرة يعقوب عليه السلام «الملقب بإسرائيل» من بلاد كنعان «فلسطين وما إليها» إلى مصر بسبب المجاعة، قد كان الوزير حينذاك بمصر هو يوسف عليه السلام وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر تنعم بالحياة هناك، ثم تغير موقف المصريين القدماء حيث اتخذوا من بني إسرائيل خدمًا وعبيدًا.

وبقي بنو إسرائيل كذلك إلى أن أرسل الله تعالى إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين من نسل «لاوى» «ليفي Levi» أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام، يدعوانهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات، وظل موسى وفرعون وقومهما في مشادات مع فرعون حتى أتيح لهم

(١) التوراة الهيروغليفية ص٤٦.

(٢) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ أسعد التميمي، ط. المختار الإسلامي بمصر.

الخروج من مصر إلى سيناء[١].

وخلال أربعين سنة كان بنو إسرائيل «يتيهون» في صحراء سيناء عقابًا لهم على رفض الانصياع إلى أوامر موسى عليه السلام، بدخول الأرض المقدسة فلسطين[٢].

وبعد فناء هذا الجيل نشأ جيل آخر تمرس بشئون القتال، فأكمل الله تعالى دينهم وأتمَّ عليهم نعمته بعد أن تلقى موسى عليه السلام من ربه عز وجل التوراة.

ثم يأتي الانتصار على يد يوشع خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد «كنعان، فلسطين» واحتلوها بعد إبادة معظم أهلها.

ويرى جوستاف لوبون أنه (لم يكن هنالك فتح بالمعنى الصحيح، على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخًا ومن تعداد الانتصارات وتقتيل الأهالي وانهيار أريحا)[٣]، ويفسر سبب نجاح بني إسرائيل بانقسام العشائر الكنعانية قائلًا: (ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل القليلو الذوق والضعيفو الأهلية للحرب والسيئو السلاح)[٤].

---

(١) يقول الدكتور عمر فروخ بكتابه «الإسلام والتاريخ» ص١٦٢: ١٦٣، ط. دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م، يقول: (إن الأمة التي تزول حضارتها عن سطح الأرض لا تعود مرة ثانية إلى سطح الأرض وبالحضارة التي زالت معها، بينما الأرض تموت «ويذوى نباتها ثم يتيبس ويكون حطامًا» ولكنها ترجع في «العام التالي» إلى الحياة بالنبات الذي كان لها في العام السابق).

(٢) باختصار من كتاب «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام» ص٧ للدكتور عبد الواحد وافي.

(٣) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص٣٤، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠م، ويدلل لوبون على مدى تضخيم الانتصارات بقوله: (إن من يقرأ سفر صموئيل وسفر القضاة بشيء من روح النقد يبصر دور العنت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين، غير أن هذه الأقاصيص نفسها إذا ما نظر إليها من خلال أبخرة الحماسة الدينية ألقت في النفوس وهمًا قائلًا: إن ذلك الفتح ساطع معجز) ص٣٦.

(٤) المرجع نفسه ص٦ (ولا يقر لهم بإنشاء أمة إلا ببداية شاول- أو طالوت) فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقي الذي كان لهم في العالم.

ولا يقر جوستاف لوبون لبني إسرائيل بإسهامهم في أية حضارة، معللًا ذلك بأن فلسطين أو أرض الميعاد لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لهم[1]، ويحدد بداية تاريخ اليهود الحقيقي في عهد ملوكهم، وربما يقصد بذلك الفترة التاريخية التي أصبح فيها رؤساؤهم ملوكًا ذوي سلطان كبير ومنهم داود وسليمان عليهما السلام بعد أن كان رؤساؤهم السياسيون هم القضاة[2].

أما النكبات التي حلَّت بهم فإن من أشهرها غارة بُختنصر ملك بابل في سنتي ٥٩٦ و٥٨٧ق.م، بما يعرف في التاريخ «بنفي بابل» حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين عامًا حتى تغلَّب قورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ق.م؛ فوقعوا تحت سيطرة الفرس زهاء قرنين كاملين، ثم تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر ثم تحت سيطرة الرومان، وعندما قاموا بثورة في عهد الإمبراطور أدريان ١٣٥م أخمد الرومان ثورتهم وأخرجوهم من ديارهم؛ فأصبحوا مشتتين في مختلف بقاع الأرض[3].

وإذا عدنا إلى الفترة التي سمح لهم قورش بدخول فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم، فإنهم لم يتمتعوا خلالها باستقلال حقيقي؛ لأنهم كانوا مهددين من قبل ملوك فارس الذين كانت يساورهم الريب حول كل حجر يضاف إلى الأسوار آمرين قساة بوقف العمل في غير مرة[4].

لهذا حق لجوستاف لوبون في تأريخه للحضارات والأمم أن يستخلص أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمي، ويستطرد فيقول: وما فتئ الفرس والأغارقة والرومان يسطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتتميز هذه المملكة غيظًا من هذا

(١) المرجع نفسه ص٣٢، ويقول في مقدمة كتابه: (ولم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة) ص١٥.

(٢) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص٨.

(٣) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص٩.

(٤) اليهود في تاريخ الحضارات، جوستاف لوبون ص٤١.

الاستعباد المتصل، فلا تجد ما تتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب[١].

ويبدو أن لوبون اكتفى بظاهر الوقائع والأحداث، ولم يتتبع النشاط الخفي لليهود طوال تاريخهم، إذ من دأبهم العمل من وراء الستار وتكوين الجمعيات السرية التي تضم لها الشخصيات من ذوي النفوذ والسلطان، وتعويض النقص في عددهم باستخدام غيرهم من أعضاء الأحزاب والجماعات والأندية، ولكن المتابع لأنشطتهم الخفية يقف على محاولاتهم الدائبة للاستحواذ على الثروات، والسيطرة على الأمم، وسعيهم الحثيث للوصول إلى مراكز السلطة السياسية فضلًا عن مسئولياتهم عن الكثير من الثورات والحروب في تاريخ العالم، ولقد صدرت في السنوات الأخيرة -عقب نكبة فلسطين- الكثير من الكتب والبحوث والدراسات حول دور اليهود في أبرز الأحداث التاريخية والمعاصرة.

ومن الوثائق التي تسربت من أحد اجتماعاتهم السرية ما يكشف النقاب عن بعض هذا الدور تلك الوثيقة المتضمنة لخطبة أحد كبار الحاخامات في روسيا، قال فيها: قد بُلينا بسبي بابل، وذقنا به مر العذاب، أما الآن فقد صرنا وحدنا القادرين على كل شيء، هُدمت هياكلنا، وحرقت مذابحنا؛ ولكننا شيدنا منها كثيرًا، وأقمنا بدلها الآلاف المؤلفة، مضى علينا في العبودية ثمانية عشر قرنًا، وخرجنا من وهدة الذل وعلونا على كل الشعوب[٢].

وعلى أية حال، فقد خدع اليهود الأمم عندما بنوا حركتهم على صلتهم التاريخية بفلسطين، مع أن هذه الصلة قد انتفت نهائيًّا منذ تخريب الإمبراطور تيطس للهيكل سنة ٧٠م وتشتيتهم في أنحاء الإمبراطورية الرومانية سنة ١٣٥م في عهد الإمبراطور هادريان[٣].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) مكائد يهودية عبر التاريخ -عبد الرحمن حنبكة، ص٤١٦، ط. دار القلم بيروت.

(٣) إسرائيل فتنة الأجيال، إبراهيم خليل أحمد ص٣٣١، مكتبة الوعي العربي ١٩٧٠م.

كما ظهر من بينهم من يعارض هذا الزعم، يقول أدوين مونتاجو الوزير البريطاني ١٩١٦- ١٩٢٢: إنني يهودي، ولكنني أعترف بأنه لا توجد قومية يهودية وأن فلسطين ليست لها علاقة باليهود[١].

وقد وظفت العقيدة الدينية اليهودية في تحقيق إقامة الكيان الصهيوني باسم «إسرائيل»، واتفق على ذلك المتدينون والعلمانيون معًا، وهي ظاهرة تبدو غريبة؛ لأنها تخالف ما عهدناه من الخصومة التقليدية بينهما في بلاد العالم، وأرغمت إسرائيل العالم كله على الاعتراف بها، بل أصبحت محطَّ الأنظار وموضع التبجيل والتقدير من الدول الكبرى قبل الصغرى، ويتضح ذلك من مراسم تشييع أحد رجال السياسة والحرب هناك[٢] شارك في جنازته خمسون رئيس دولة، إضافة إلى أربعة آلاف من الشخصيات الرسمية من إسرائيل وأنحاء العالم، بينهم وفد أمريكي من مائة مسئول في الإدارة على رأسهم الرئيس كلينتون، ولم تكتف بريطانيا بإرسال رئيس الحكومة جون ميجور، بل كان هناك أيضًا ولي العهد الأمير تشارلز... إلخ.

أما عن السرِّ في التقاء المتدينين مع العلمانيين فيوضحه الكاتب اللبناني وجيه كوثراني الذي قسَّم الثقافة الإسرائيلية إلى نموذجين:

(أ) ثقافة تقليدية وتلمودية تتجه نحو أصول يهودية متعصبة وغير قابلة للتعايش مع الآخر، وهي متواصلة في أصولها المرجعية ومصالحها الراهنة مع الحركات الإنجيلية الأصولية الأمريكية التي انبعثت في عهد ريجان.

---

(١) نفسه ص٣٠٨.

(٢) مقالة غادة الكرمي «الحياة ٢٣/ ١١/ ٩٥» نقلًا عن كتاب «آليات الاختراق الإسرائيلي للمنطقة العربية» ص٢٨٧ مصطفى عبد الرزاق، كتاب الغد، دار الغد العربي، نوفمبر سنة ١٩٩٦.

(ب) **ثقافة صهيونية علمانية مأزومة** تحاول أن تكيِّف وتفسر التراث اليهودي الديني منذ انتصار عصر القوميات في أوربا حتى الآن في فكر سياسي علماني معاصر مبرر لنشأة إسرائيل ومواكب لتطورها السياسي والديني وبين حداثتها وتراثها[1].

******

(١) ص٨٩ من كتاب آليات الاختراق الإسرائيلي، مصطفى عبد الرازق، دار الغد العربي، نوفمبر سنة ١٩٩٦.

مصادر العقائد والأفكار والخطط اليهودية

سنعرض في هذا البحث لمصادر العقائد والأفكار والخطط عند اليهود وهي تتكون من:

أولًا: العهد القديم

ثانيًا: التلمود

ثالثًا: بروتوكولات حكماء صهيون

أولا: العهد القديم

وسنتكلم بإيجاز عن كل واحد منها بادئين بالعهد القديم، مستندين إلى تقسيم الدكتور وافي بكتابه «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» حيث قسَّم العهد القديم إلى أربعة أقسام[(١)]:

القسم الأول

كُتُبُ موسى عليه السلام أو الأسفار الخمسة، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاوين، وسفر العدد، وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود.

(١) **سفر التكوين**: ويقص تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيل في قصص آدم عليه السلام وحواء ونوح والطوفان ونسل سام أحد أبناء نوح، وهو الذي انحدر منه شعب بني إسرائيل[(٢)].

---

(١) ولكن الدكتور حسن ظاظا يحصره في ثلاثة أقسام: التوراة والأنبياء والكتب أو أسفار الحكمة أما التوراة والأنبياء فإنها يسيران في نسق تاريخي متصل، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبي البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أما القسم الثالث وهو الكتب فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص.ص١٢-١٣من كتابه الفكر اليهودي أطواره ومذاهبه. دار القلم- دمشق ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي، ص١٤، مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

(٢) **سفر الخروج:** يعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة موسى عليه السلام وخروجه مع بني إسرائيل، وتاريخهم في أثناء مرحلة التيه التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عامًا، وبجانب هذه القصص يشتمل الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات.

(٣) **سفر التثنية:** شُغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات.

(٤) **سفر اللاوين:** شُغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور، وقد نُسب هذا السفر إلى اللاوين، وهم نسل «لاوي **Levi**»؛ لأنهم سدنة الهيكل، والمشرفين على شئون الذبح والأضحية والقرابين، والقوانين على الشريعة اليهودية.

(٥) **سفر العدد:** تضمن إحصائية عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم[1].

القسم الثاني

ويسمى بالأسفار التاريخية، وهي اثنا عشر سفرًا، تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وأيامهم والحوادث البارزة في شئونهم.

القسم الثالث

يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني وعددها خمسة أسفار.

---

(١) المرجع نفسه ص١٥.
أما عن اللغة التي دونت بها التوراة أصلًا فهي ليست العبرية، حيث يرى الدكتور فؤاد حسنين أنها دونت بالمصرية القديمة، بل إن موسى عليه السلام وسائر الإسرائيليين لم يتكلموا العبرية بل «الآرامية» ص٥٨ من كتابه التوراة الهيروغليفية.

القسم الرابع

يسمى أسفار الأنبياء، عددها سبعة عشر سفرًا، يعرض كل منها لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل، الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهارون[١].

وبعد عرض هذا البيان الإحصائي يأتي دور عرض آراء الباحثين بالأعين الفاحصة المدققة.

موجز لآراء بعض الباحثين

يلاحظ أنه لم يتعرض باحث -قديمًا أو حديثًا[٢]- في مقارنة الأديان لموضوع مصادر العهد القديم أو التوراة[٣] إلا وأثبت أنها ليست التوراة الأصلية التي تلقاها موسى عليه السلام بالوحي[٤].

وفي مقدمة مَنْ فحص هذه الأسفار علماء الكنيسة الكاثوليكية أنفسهم، حيث بحث المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان ١٩٦٢- ١٩٦٥ هذه المشكلة التي تتعلق بوجود أخطاء

---

(١) المرجع نفسه ص١٥: ١٦.

(٢) وسنعرض في بحثنا هذا النموذج من كل منهما: أحدهما صاحبه الإمام ابن حزم، والثاني موريس بوكاي.

(٣) يرى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أن التوراة كلمة عبرية بمعنى قرآن «كتابه محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص٣٥»، بينما يفسرها الدكتور أحمد شلبي بأنها تعني: الشريعة أو التعاليم الدينية «كتابه اليهودية ص٢٣٨».

(٤) وبناء على الدراسة النقدية للفيلسوف اليهودي سبينور أثبتت أن موسى عليه السلام لم يكتب الأسفار الخمسة؛ بل كتبها شخص عاش بعده بقرون عديدة ص٢٧١، ويقرر أننا نجهل مؤلفي كثير من الأسفار، ولا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصلية ص٢٥٥/ ٢٥٦ من كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة ترجمة د/ حسن حنفي.

وينظر أيضًا كتاب «التوراة الهيروغليفية» الدكتور فؤاد حسنين علي، حيث عرض لعدة شواهد تؤيد الرأي القائل بأن التوراة التي بأيدينا ليست لموسى عليه السلام ص٤٢. كذلك يرجح أنها وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التي بشر بها إخناتون ص٥٩- ط دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة- بدون تاريخ.

في بعض نصوص أسفار العهد القديم، وأصدر صيغة تشير إلى وجود شوائب به؛ وفيما يلي نص الفقرة المدرجة بالوثيقة المسكونية الرابعة: بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان، غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشيء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي[(١)].

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين في عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القبلية، وقوانين الجماعة الإسرائيلية، وهذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة، وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووصايا، وبعد أن استقرت حياة طائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج -وعن غير قصد- عناصر من هذه الآداب، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقارًا خاصًّا تفردت به وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة، ولا شك أن الكتاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام[(٢)].

---

(١) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام ص٢٦٢، للمهندس/ أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) المرجع نفسه ص٢٥٥.

وإلى نفس المضمون تشير دائرة المعارف الفرنسية لاروس، فتقول تحت كلمة «توراة»: (العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى، وأنها من عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية) ص٩٩ من كتاب: اليهود المقدس، كمال عون.

ويقول رحمة الله الهندي: (لم يثبت كون الكتب المسلمة عندهم المنسوبة إلى الأنبياء بحسب زعمهم كتبًا إلهامية، بل ثبت عكسه، وثبت أن بعض مضامين هذه الكتب يجب على كل مسلم أن ينكره أشد إنكار، وثبت أن الغلط والاختلاف والتناقض والتحريف واقعة فيها جزمًا، فإني معذور في أن أقول: إن هذه الكتب ليست كتبًا إلهية، وأن أنكر بعض القصص مثل: إن لوطًا شرب الخمر وزنى بابنتيه وحملتا بالزنا منه، وأن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا وحملت بالزنا منه، وأشار إلى أمير العسكر لأن يدبر أمرًا يقتل به أوريا.. وأن هارون صنع عجلًا وبنى له مذبحًا فعمده مع بني إسرائيل

=

ونفهم من ذلك أن القوانين والتقاليد وترانيم العبادة والأغاني الشعبية اختلطت بأقوال الأنبياء والكهنة، ثم استمدت قدسيتها من كثرة ترديدها جيلًا بعد جيل، وطغت الروح العامة للجماعة فلم يتوقف البعض للفحص والتمييز بين الوحي وغيره، بينما تثبت الدراسة الفاحصة لنصوص كثيرة بالأسفار الخمسة من أول وهلة- كما فعل الأستاذ ديدات- أنها ليست من عند الله تعالى، وقد أثبت ذلك في أكثر من سبعمائة جملة، وما عليك -هكذا يوجهنا-إلا أن تفتح هذه الأسفار عشوائيًّا وسوف ترى «وقال الرب لموسى» سفر الخروج ٦: ١٣.

«وكلم الرب موسى» سفر الأحبار ١١: ١.

«فتكلم موسى بين يدي الرب» سفر الخروج ٦: ١.

«فقال موسى للرب» سفر العدد ١١: ١١.

«ثم قال الرب لموسى» سفر التثنية ٣١: ١٤.

ومن الواضح هنا أن هذه ليست كلمات الرب، ولا كلمات موسى عليه السلام، فالضمير هنا هو ضمير الغائب كما هو واضح، مما يعني أن هذا الكلام لشخص ثالث يسجل أحداثًا سمع عنها[1].

= وسجدوا له وذبحوا أمامه، وأن سليمان ارتد في آخر العمر وعبد الأصنام وبنى المعابد لها... وإنه كان مشركًا.. ص١٢/ ١٣/ ١٤ كتاب «إظهار الحق..» جـ١ تحقيق د/ محمد ملكاوي. رئاسة البحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص٣٩، أحمد ديدات، ترجمة نورة أحمد النومان، ط. مكتبة أبو القاسم/ جدة.

ويأتي الدكتور فؤاد حسنين أيضًا بعبارات أخرى تتعلق بموسى عليه السلام يستحيل صدورها منه أمثال: (وأما الرجل موسى فكان حليمًا جدًّا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) أو (أيضًا الرجل موسى كان عظيمًا جدًّا في أرض مصر في عيون فرعون وعيون الشعب) كذلك الخبر الخاص بوفاته (فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله ودفنه في الخواء في أرض موآب مقابل...) ص٤٢ من كتاب «التوراة الهيروغليفية».

بمثل هذا المنهج تعرض علماء كثيرون -مسلمون وغير مسلمين- للتوراة بالنقد العلمي، كالتثبت من صحة النصوص بالمقارنة بين السابق واللاحق أو مراجعة التسلسل للواقعات التاريخية، أو التحقق من مدى الاحتفاظ بالنسخة الأصلية التي كتبها موسى عليه السلام أو الموازنة بين بعض النصوص وبين الديانات والثقافات التي كانت سائدة في بابل[١].

والحق أن كثرة المؤلفات الناقدة للتوراة توقعنا في حيرة: فأيها نختار وأيها ندع؟ وتزداد حيرتنا إذا كان أصحابها من أتباع اليهودية أو النصرانية أنفسهم فضلًا عمن أسلم من كبار علمائهم[٢].

---

(١) يقول الأستاذ موريس فودن ناظر المدرسة العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها عن التوراة: لو سألنا في أي وقت جمع كل كتاب من كتب التوراة وفي أي حال وظروف، وبأقلام من كتب، لا نجد أحدًا يجيبنا عن تلك الأسئلة وما شابهها إلا بأجوبة متخالفة جدًّا، وإن كافة ما كتب مشكوك في كاتبه وإن كل ما في التوراة هو عبارة عن خليط من كتابات عديدة جدًّا جمعت في أجيال متباينة، وأن المذاهب العلمية ترفض أغلب أقوال العلماء النقل، التي هي أساس اعتقاد اليهود والنصارى وتقوض بنيان ادعاء السابقين وتبرئ الأنبياء من تلك الكتابات، وأن تصحيح هذه الكتب كالنقش في الماء أو البناء على الهواء، ولكن ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يمحو بعضها بعضًا، فالجديد يناقض سابقه والسابق يناقض الأسبق، وقد تناقض أجزاء الدليل الواحد، وأيسنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي، وقد صدق على شهادة الأستاذ موريس فودن ٥٠٠ عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس، من كتاب «محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن» ص٧١: ٧٢، للمستشار محمد عزت الطهطاوي، مكتبة النور/ مصر الجديدة ١٩٨٦م.

(٢) على سبيل المثال:

- الدين والدولة، علي بن ربن الطبري، تحقيق عادل نويهض.
- في إثبات نبوة محمد ﷺ دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- رجال ونساء أسلموا «٣-حلقات»، عرفات كامل العشي، دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣.
- محمد ﷺ في الكتاب المقدس للبروفيسور/ عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شما، مراجعة أحمد محمد الصديق، رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

=

ومن بين هذه المؤلفات والبحوث سنقتصر على انتقاء بعض آراء كل من الإمام ابن حزم المتوفى ٤٥٦هـ بكتابه «الفصل في الملل والنحل»، والطبيب الفرنسي المعاصر موريس بوكاي بكتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم»، سنعرض باختصار لنقد الإمام ابن حزم للعقيدة اليهودية ومصادرها، وهو يعد من أبرز العلماء الذين استخدموا المنهج النقدي لمصادر المعلومات للعقائد؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، وبعد عرضها على الأدلة العقلية.

يقول ابن حزم: نذكر إن شاء الله تعالى ما في الكتب المذكورة من الكذب، لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى وعلى الملائكة عليهم السلام وعلى الأنبياء عليهم السلام إلى أخبار أوردوها لا يخفى الكذب فيها على أحد كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر[1].

ويرى أن الإصرار على الاستمساك بما في كتبهم من أكاذيب وأباطيل يرجع إلى مكابرتهم لعقولهم وغلبة أهوائهم عليهم وتقليدهم لأسلافهم وعصبية واستدامة لرياسة دنيوية.

ولا يفوته المسارعة بالمقارنة بين مصادرهم ومصادر الإسلام الثابتة اليقينية، فيقول: نحمد الله كثيرًا على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السُّنَّة واتباع الآثار الثابتة ونسأله تثبيتًا على ذلك، وأن يجعلنا من الدعاة إليه حتى يدعونا إلى رحمته ورضوانه عند لقائه... آمين[2]، ويعد الإمام ابن حزم من أوائل علماء مقارنة الأديان، حيث رسم المنهج ووضع

= ➢ إفحام اليهود للسموءل بن يحيى المغربي، تقديم وتحقيق، د/ محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية بمدينة نصر/ مصر/ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

➢ محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي.

➢ حوار في المسجد النبوي، رزق هيبة، مكتبة التراث الإسلامي بمصر ١٩٨٣م، ويحكي قصة إسلام الأستاذ/ زكي عريبي عميد اليهود في مصر.

➢ رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي، مراجعة د/ فؤاد زكريا.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ١ ص١١٦، ط. مكتبة المثنى بغداد.

(٢) المرجع نفسه ص١٧.

الأساس، كما ناقش بعض علمائهم وأفحمهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية[١]، وسنلخص أبرز الانتقادات التي طعن بها التوراة التي بأيدي اليهود، حيث حُرِّفت وبُدِّلت.

أما التوراة الحق التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام فإننا معشر المسلمين نُقرها؛ لأنه تعالى أخبرنا بذلك في كتابه الناطق على لسان رسول الله ﷺ ونقطع على أنها ليست هذه التي بأيديهم بنصها[٢]، وأول ذلك أن التوراة التي بأيدي السامرية غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، يزعمون أنها المنزلة، ويقطعون أن التي بأيدي اليهود مُحرَّفة مُبدَّلة، وسائر اليهود يقولون: إن التي بأيدي السامرية مُحرَّفة ومُبدَّلة، ويستند أول ما يستند إلى نص في التوراة منسوب إلى الله تعالى بقوله: «أصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا».

ويرى ابن حزم أنه لو لم يقل إلا كصورتنا لكان له وجه حسن ومعنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله تعالى إضافة الملك والخلق؛ كما تقول هذا عمل الله، وتقول للقرد والقبيح والحسن: هذه صورة الله؛ أي تصوير الله، والصفة التي انفرد بملكها وخلقه، ولكن قوله: «كشبهنا» منع التأويلات وسد المخارج وقطع السبل وأوجب شبه آدم لله ﷻ ولا بد ضرورة، وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل، إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا لله أن يكون له مثل أو شبه «ص٩٥ جـ١ ط. صبيح».

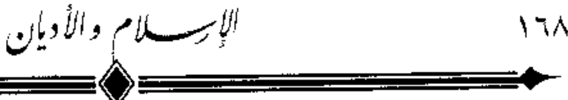
وفي النص الذي يتناول لوط عليه السلام وعلاقته بابنتيه، يروي الإمام القصة الواردة بالتوراة، ويعلق عليها بوصفها فضائح وسوءات تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام[٣]، وكذلك وصفه لإطلاقهم على نبي الله يعقوب عليه السلام أنه خدع أباه وغشَّه بأنه من الفضائح والأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات؛ لأن هذا التصرف مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي

---

(١) انظر على سبيل المثال ص٢٠٥ حيث يقول: (ولقد فضحت بهذا وجه بعض علمائهم).

(٢) المرجع نفسه ص٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه ص١٣٣.



مع أبيه النبي أيضًا؟[١].

ويلحق نقده للتوراة بنقده لسائر كتبهم التي يضيفونها إلى الأنبياء عليهم السلام؛ منها كتاب يوشع، ففيه براهين قاطعة بأن بعض متأخريهم ألّفه لهم، حيث يتضمن نصًا يفيد بناء سليمان بن داود إلبيت المقدس، ومن المحال الممتنع أن يخبر يوشع أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس ويوشع قبل سليمان بنحو ستمائة سنة[٢].

---

(١) المرجع نفسه ص١٣٧.

(٢) المرجع نفسه ص٢٠٤، ويرى الدكتور حسن حنفي أن النقاد المسلمين اتبعوا هذه الوسيلة للكشف عن تلفيق الروايات، وأن الغالب على دراسات المسلمين هي إثبات التناقض في النصوص والتحريف في العقائد، وقد ضرب على ذلك مثلًا بابن حزم، مقدمته لكتاب: رسالة في السياسة واللاهوت لسبينوزا ص٢٧، وبهذه المناسبة يحسن توضيح معنى الحديث النبوي المتصل بهذا الموضوع، ومصدرنا كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة حيث قال: أما الحديث «**إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**» ص٢٦، أولًا: «**لا يقولن أحدكم لأحد قبّح الله وجهك ووجهًا أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته**». يقول الإمام ابن خزيمة في شرحه للحديث: أراد محمد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، ص٢٦ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ للإمام ابن خزيمة، تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي، ط. دار الكتب السلفية بمصر ١٤٠٣هـ.

وفي رواية: «**لا تقبحوا الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن**» ص٢٧. ص٢٨: (أ) ومعناه عند الإمام ابن خزيمة أن إضافة الصورة للرحمن في هذا الخبر إنما هو من إضافة الخلق إليه؛ لأن الخلق يضاف إلى الرحمن إذا خلقه الله، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صوّرها، ألم تسمع قوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] فأضاف الله ﷻ الخلق إلى نفسه إذ الله تولى خلقه، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف: ٧٣] فأضاف الله الناقة إلى نفسه، وقال: ﴿ تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ فأضاف الله الأرض إلى نفسه إذ تولى خلقها فبسطها... إلى أن يقول: فما أضاف الله إلى نفسه على مضافين: إحداهما إضافة الذات، والأخرى إضافة الخلق فتفهموا هذين المعنيين، لا تغالطوا.

(ب) فمعنى الخبر إن صحّ عن طريق النقل مسندًا: فإن ابن آدم خُلق على الصورة التي خلقها الرحمن حين صوّر آدم ثم نفخ فيه الروح، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [الأعراف: ١١]. ص٢٨ من كتاب التوحيد، إثبات صفات الرب ﷻ للإمام ابن خزيمة.

ويفحص الإمام ابن حزم -بعناية- نصوص الكتاب الذي يسمونه «الزبور» ويتضمن المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام ويبين مخالفتها الصريحة لأدلة العقل الصحيحة؛ منها في المزمور الأول: (قال لي الرب: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك)، ويتساءل الإمام في هذا الموضع فيقول: فأي شيء تنكرون على النصارى في هذا الباب، ما أشبه الليلة بالبارحة؟!

وفيه في المزمور الرابع والأربعين منه: (عرشك يا الله في العالم وفي الأبد قضيب العدل قضيب ملكك أحببت الصلاح وأبغضت المكروه، ومن أجل ذلك دهنك إلهك بزيت القدح بين إشراكك)[1].

ويتضح من هذا النص إثبات إله آخر وهذا دين النصارى، وبعده يأتي نص آخر يخاطب الله تعالى: (وقفت زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب، أيتها الابنة اسمعي وميلي بأذنيك وأبصري، وآنسي عشيرتك وبيت أبيك، فيهواك الملك وهو الرب والله فاسجدي له طوعًا)، وعندئذٍ يعلق ابن حزم مبديًا تعجبه الشديد على النص والسابق عليه فيقول: (ما شاء الله، كنا أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة والأختان، تبارك الله، فما نرى لهم على النصارى فضلًا أصلًا، ونعوذ بالله من الخذلان)[2].

---

(١) ويقول ابن حزم: هذه سوأة الأبد ومضيعة الدهر وقاصمة الظهر وإثبات إله آخر على الله تعالى، دهنه بالزيت إكرامًا له ومجازاة على محبته الصلاح وإثبات إشراك الله تعالى. ص٢٠٥.
ويلاحظ أن الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مرارًا وتكرارًا ولا سيما في المباهلة (وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف)... (وكل دعوى جناية فإلى الآلهة ترفع... ومن تحكم الآلهة عليه يعوض صاحبه مثلين). من كتاب «التوراة بين الوثنية والتوحيد» سهيل ديب، دار النفائس ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
وما زال اليهود إلى الآن يدعون مع الله آلهة أخرى، انظر وثيقة الحاخام جوهاشيم برن الذي شرح بها وثائق المخطط السري اليهودي الأخير، وقال: (أيها الرفاق، هنيئًا لكم قرب تحقق وعود «يهوه» و«أدوناي» الكبير رب الأرباب، هذه الوعود هي أكثر مما نستحق، فلنتضرع إلى الآلهة لتستجيب دعاءنا، من كتاب «مكايد يهودية»، عبد الرحمن حنبكة ص٣٩٥.
(٢) المرجع نفسه ص٢٠٦.

ويمضي في نقده على هذا المنوال مستندًا إلى عقيدة التوحيد والتنزيه لله سبحانه، ثم ينتقل إلى عرض بعض النصوص التي تتصل بالإيمان بالآخرة والبعث؛ فمنها ما يتفق مع قول الملحدين الدهرية مثل: (الناس كالشعب إذا خرجت أرواحهم نسوا ولا يعلمون مكانهم ولا يفهمون بعد ذلك).

ويرى الإمام ابن حزم أن دين اليهود يميل إلى هذا ميلًا شديدًا؛ لأنه ليس في توراتهم ذكر معاد أصلًا ولا الجزاء بعد الموت وهذا مذهب الدهرية، ثم يستنتج أن ما حوته كتبهم من عقائد باطلة يصبح حجة لنا على قيامهم بالتبديل والتحريف، معجزة لنبينا ﷺ[1].

وقد اطلع ابن حزم على ما كتبه الأحبار في «التلمود» مبينًا أن اليهود أخذوا دينهم من الأحبار وإليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم وكتب الأنبياء وجميع شرائعهم، وهم الذين بدلوا الدين بأنهم عملوا لهم هذه الصلوات عوضًا مما أمر الله تعالى به من القرابين[2]، ثم يسرد بعض النصوص التي تعد -حقًا- من الخرافات التي كتبها الأحبار، وقد حصنوا أنفسهم بقداسة خاصة ومكانة يرتفعون بها حتى على الله تعالى، فمما أجمع أحبارهم لعنهم الله أن من شتم الله تعالى وشتم الأنبياء يؤدب، ومن شتم الأحبار يموت؛ أي يقتل[3].

ومن أعجب الوقائع التي يسجلها ابن حزم وسمع علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه أن أحبارهم اتفقوا على أنهم رشوا بولس البنياميني -لعنه الله- وأمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام وأن يضل أتباعهم ويدخلهم إلى القول بألوهيته، وقالوا له: نحن نتحمل إثمك في هذا، ففعل وأبلغ من ذلك حيث قد ظهر[4].

---

(١) المرجع نفسه ص٢٠٧.
(٢) المرجع نفسه ص٢١٧.
(٣) المرجع نفسه ص٢٢١.
(٤) المرجع نفسه ص٢٢١.

ثم يقارن بين ما أحدثه «بولس» في النصرانية وما حاوله عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء اليهودي الحميري لعنه الله ليضل من أمكنه من المسلمين (فنهج طائفة رذلة كانوا يتشيعون في علي ﷺ أن يقولوا بألوهية علي)[1].

وإن كان اليهود قد نجحوا عن طريق بولس في إفساد دين النصارى فإنهم لم يحققوا آمالهم في الإسلام، إذ لم يؤثر ابن سبأ إلا في قلة ضئيلة، وهم الباطنية والغالية من الشيعة، وكان العاصم من الوقوع فيما وقع للنصارى سلامة منهج المسلمين في القبول والتلقي، حيث إننا لا نصدق في ديننا بشيء أصلًا إلا ما جاء في القرآن وما صح بإسناد الثقات ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ فقط، وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل[2].

ويتضح لنا مما تقدم براعة الإمام ابن حزم في نقده لنصوص الكتب الدينية عند اليهود، ومن ثَمَّ فإنه قد سبق عصره من حيث وضع المنهج في نقد نصوص الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، بينما لم يعرف علماء الغرب هذا المنهج إلا أخيرًا جدًّا في العصر الحديث، وفي هذا الصدد يقول موريس بوكاي: إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا، ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونهما على ما هما عليه طيلة قرون عديدة[3].

وفي التمهيد للحديث عن الأناجيل يذكر موريس بوكاي: إن قراءة النصوص الكاملة تثير اضطرابًا عميقًا لدى المسيحيين وأغلبهم لا يعرف من الأناجيل إلا مقاطع مختارة تُقرأ عند القُدَّاس أو المواعظ، ولم تكن كتب التعليم تحتوي إلا على مقاطع مختارة من الأناجيل، ويقول: وإذا وضعنا حالة البروتستانت جانبًا فإنه لم تكن قراءة الأناجيل في كلتيها أمرًا سائدًا فيما عدا بعض المناسبات، ثم يحكي عن نفسه أيام الدراسة بالمرحلة الثانوية أنه لم توضع تحت يده نسخة من العهد الجديد بأكمله، وكان يتمنى الاطلاع على

---

(١) المرجع نفسه ص٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص٢٢٤.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، تأليف موريس بوكاي، الترجمة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٨٧م ص٩.

النص اليوناني؛ ولكن يعلل حجبه بواسطة أساتذته والامتناع عن تكليف الطلاب بالترجمة بأنه كان سيؤدي إلى طرح أسئلة، الرد عليها محرج[١].

وباتساع دائرة الروح النقدية عند قراءة الأناجيل بأكملها دفع الكنيسة إلى التدخل لمساعدة القراء للتغلب على حيرتهم، ويلخص بوكاي بعض أسباب الحيرة؛ فمنها كثير من المجاهيل لكُتَّاب لم يُتأكد من هويتهم، ومنها أن هذا المبشر أو ذلك كان شاهدًا عيانًا لأحداث محددة بينما تدعي دراسات متخصصة عكس ذلك، ومنها تقليل المسئولين من شأن الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية رسالة المسيح عليه السلام وبين ظهور النصوص؛ لإيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمدت على تراث شفهي، بينما أثبت المتخصصون أن هذه النصوص أصابتها تعديلات كثيرة، ومنها محاولة تجنب الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخة بحجج مديحية بارعة.

ويضرب بوكاي مثالًا على مثل هذه المشكلات فيقول: لا متَّى ولا يوحنَّا يتحدثان عن صعود المسيح عليه السلام، أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة في إنجيله، وبعد أربعين يومًا في «أعمال الرسل» التي يقال: إنه كاتبها، أما فيما يخص مرقص فإنه يشير إليه -دون تحديد تاريخه- وذلك في خاتمة تعتبر حاليًا غير صحيحة، وعلى ذلك فليس للصعود أي قاعدة كتابية متينة، برغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة المهمة باستخفاف لا يُصدَّق[٢].

ويعرض بعد ذلك للنتائج التي ترتبت على استخدام علم نقد النصوص، حيث تم اكتشاف مشاكل مطروحة وخطيرة؛ منها ما توصل إليه بعض المؤلفين من المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق لكل من يريد أنت يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسِّه الموضوعي، وكان من المأمول التصريح بوجود هذه المتناقضات، ولكن نرى

---

(١) القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والعلم، ص٦٥ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م.

(٢) نفسه ص٦٦/ ٦٧.

الدكتور بوكاي يأسف حقًّا لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق.

ويختم هذا الأسف بقوله: ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادر على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية التي تعتبر غالبًا من المعارف الأساسية جدًّا[1].

وكشأن إمامنا ابن حزم أقدم الدكتور موريس بوكاي على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم، وخلص منها إلى التأكد بأن القرآن هو الوحي الذي أُنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة، وأنه لا يحتوي على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث.

وكان لدى هذا العالم من الأمانة والشجاعة الأدبية بأن يُصرِّح بذلك معلنًا عن نتيجة بحثه المنهجي الموضوعي، فقال: لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة بحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية؛ ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث[2].

---

(١) المرجع السابق ص١٠.

(٢) المرجع نفسه ص١٣، وتأمل في بيان قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ونحن نرى بوكاي في اتباعه هذه الطريقة في البحث عن الحق مستضيئًا بنور الفطرة؛ لينقذ نفسه من أسر البيئة وأغلال التقاليد حوله، بخلاف أترابه الذين خضعوا لها، ويصور لنا الدكتور وولتر أوسكار لند برج التجربة التي يمر بها أثناء مراحل طلب العلم فيقول: وحتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف فليس من السهل أن تتحرر من

=

وسنعرض فيما يلي بإيجاز نقده للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

نقد موريس بوكاي للتوراة في ضوء المعارف الحديثة

تتكون التوراة من خمسة أجزاء كما بينا آنفًا حسب عقيدة اليهود، وهي: التكوين، والخروج، وسفر اللاوين، وسفر العدد، وسفر التثنية.

وتتناول التوراة موضوعات كثيرة، منها: أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودي أرض كنعان الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر، وبالتحديد حتى موت موسى عليه السلام، وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية، والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة؛ أي الناموس[1].

وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبران أن موسى عليه السلام هو كاتب التوراة اعتمادًا على ما ورد فيها من أقوال مثل قول الرب: «اكتب هذا تذكارًا في الكتاب»، وأما ما ورد في سفر العدد: «وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب»، أو الآية الواردة في سفر التثنية «وكتب موسى هذه التوراة».

= التعصب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تُبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو صورة الإنسان، بدلًا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خُلق خليفة الله على الأرض، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تسمح مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول، وأخيرًا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية. من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» ص٣٨ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة وتعليق د/ محمد جمال الدين الفندي.

ونحن نحمد الله تعالى، على أن علماءنا لا يمرون بهذه الأزمات؛ لأن الحقائق العلمية الكونية والطبيعية لا تتعارض مع الآيات القولية -أي القرآن الحكيم- كما أثبت بوكاي، وكما دلّنا على ذلك علماؤنا من قبل، ومنهم الإمام ابن القيم.

(١) المرجع نفسه ص٢٦.

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأي القائل بأن موسى ﷺ قد كتب الأسفار الخمسة كلها، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تمامًا، وبدأ العلماء يشككون فيه، حيث رأى أحدهم استحالة أن يكون موسى ﷺ قد كتب بنفسه كيف مات[1]، وقد قام ريشار سيمون بدراسة هذه القضية بكتابه «التاريخ النقدي للعهد القديم» نشره ١٦٧٨م، وفيه يؤكد الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأنساب في أسفار موسى الخمسة.

ثم قام جان استروك ١٧٥٣م بدراسة أخرى نشرها على الملأ بناء على ملاحظة أساسية، هي وجود نصين جنبًا إلى جنب في سفر التكوين، يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب؛ إذ يسميه أحدهما بيهوه، ويسميه الثاني بألوهيم[2].

وهناك أخطاء أخرى ذات طابع تاريخي اكتشفها عدة مفسرين يهود ونصارى، حيث وقفوا على عدة تعديلات مختلفة وإضافات لاحقة للنصوص الأصلية.

---

(١) المرجع نفسه ص٢٧، ويذكر الدكتور حسن حنفي أن آباء الكنيسة ظنوا قديمًا أن موسى ﷺ هو مؤلف التوراة، وظل هذا الاعتقاد في العصر الوسيط حتى جاء سبينوزوا ولوذز وشككا في نسبة الأسفار إلى موسى ﷺ ثم ظهر نقاد كثيرون حتى أتى فلاوزن وأعلن نظريته المشهورة القائمة على المصادر الأربعة متأثرًا بأفكار هيكل عن تطور التاريخ، مقدمة كتاب: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص٢٣-٢٤، وظهر نقاد كثيرون بفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة والدانمارك.

(٢) المرجع نفسه ص٢٨- ٣٩، ويرى الدكتور حسن ظاظا أن النصَّ التوراتي له سياق موحد، بل يرتد إلى أربعة ينابيع هي:

١- مصدر يحمل اسم «يهوه» علمًا على رب العبريين الوطني القديم ورواته كانوا من الجنوب.

٢- مصدر يحمل اسم «ألوهيم» علمًا على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل بالشمال.

٣- مصدر تشريعي بحت.

٤- حواشي الكهنة «الفكر الديني اليهودي ص٢٦- ٢٧».

كذلك يذكر الدكتور فؤاد حسنين: أن نُقَّاد التوراة أدركوا منذ قرنين أن قصص سفر التكوين تختلف فيما بينها حول لفظ الجلالة، فأحيانًا تستخدم لفظ «يهوه» وأخرى اسم «ألوهيم» أدَّى ذلك إلى القول باعتماد التوراة على مصدرين مختلفين. التوراة الهيروغليفية ص٤٦.

وعلى سبيل المثال قدَّم الأب ديفو بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها في المقدمة العامة التي تسبق ترجمته لسفر التكوين، قدَّم تفصيلًا بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًّا[١].

وقد خلص موريس بوكاي في دراسته القيمة إلى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحًا مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهرية:

١- خلق العالم ومراحله.

٢- تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

٣- رواية الطوفان[٢].

أولًا: خلق العالم ومراحله

(أ) تتحدث بعض الآيات في الإصحاح الأول عن «النور» الذي يضيء نهارًا في صباح اليوم الأول من أيام الخلق كما تروي التوراة، بينما لا تذكر التوراة «أنوار» السموات في سفر التكوين إلا فيما يتعلق بخلق اليوم الرابع، ويبدو من غير المنطقي هنا أن يوجد النور أولًا؛ ولأن الليل والنهار لا يتعاقبان إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت نجمها الخاص بها؛ أي الشمس[٣]، فكيف يظهر ضوء الشمس أولًا؛ أي النور بينما لم تخلق إلا في اليوم الرابع حسب رواية التوراة؟!

---

(١) المرجع نفسه ص٢٨- ٣٩.

(٢) المرجع نفسه ص٤٠، والواقع أن الدراسة النقدية لم تقتصر على استروك والأب ديفو، حيث توالى العلماء والباحثون في نقد التوراة، الأمر الذي أدى بأن أنشأ الباب «لجنة التوراة» عام ١٩٠٦م من أجل الحدِّ من النظريات النقدية، ومع هذا توالت واستمرت، ينظر تعليق د/ حسن حنفي بكتاب سبينوزا «رسالة في اللاهوت والسياسة» ص٢٣-٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص٤١.

(ب) تحتوي إحدى الفقرات التي تتحدث عن ترتيب المخلوقات على مزاعم لا يمكن قبولها في ضوء العلم الحديث، إذ يشير سفر التكوين إلى خلق الحيوانات الأرضية في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا الأمر غير مقبول على ضوء المعلومات العلمية الحديثة كما يرى موريس بوكاي.

(جـ) وتنتهي رواية الخلق بالنص على أن الله تعالى فرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع «تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا»، ولا نستطيع المرور على هذا القول بغير تعليق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقد رد على هؤلاء المغضوب عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

وبيت القصيد في النقد الموجه إلى النص التوراتي يتلخص في أنه يقسم زوايته إلى أيام بالمعنى الدقيق؛ أيام الأسبوع الذي نعرفه ونقدره في حياتنا الدنيوية، بينما من المعروف تمامًا من وجهة النظر العلمية في أيامنا أن تشكل الأرض والكون قد تم على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريبيًّا؛ لذلك فإن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الأصلية[١].

وقد تنبَّه الأستاذ موريس بوكاي -عندما قارن بين الأيام في التوراة والقرآن- إلى أنها تعني مراحل، أو فترة زمنية وليس الأيام المتداولة بيننا في الدنيا، ودليله على ذلك في آيات منها ما قاله تعالى: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]. وقوله ﷻ: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]، ويقرر بوكاي في النهاية: فمن حقنا إذن أن نقبل -فيما يتعلق بخلق العالم- بقول القرآن ضمنًا بفترات زمنية طويلة رقَّمها بالعدد ٦، ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات هو ست مراحل؛ ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة

---

(١) المرجع نفسه ص٥٤ والكهنوتي نسبة إلى الكهنة الذين أعادوا روايتي الخلق على مشيئتهم.

جدًّا تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئًا تافهًا[(١)].

ثانيًا: تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض

يحدد التقدير العبري الوارد بالعهد القديم تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد، وهو مخالف تمامًا لما نعرفه بواسطة العلم الحديث، إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكوين النظام الشمسي تقريبًا

---

(١) المرجع نفسه ص١٦٠، ويقول سبينوزا: إننا نرى معظم اللاهوتيين وقد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسرًا، وبتدبير هذه البدع بالسلطة الإلهية، ويصفهم بأنهم الذين لم يتورعوا عن تحريف الكتاب في مواطن كثيرة، ص٢٤١ من كتاب «رسالة في اللاهوت والسياسة». وبمناسبة الحديث عن التأويل كأحد الطرق لتحريف النصوص بطريقة غير مباشرة، فإننا نرى لزامًا علينا تصحيح الخطأ الذي وقع فيه الدكتور/ حسن حنفي في مقدمته لكتابه «سبينوزا» ص٤٣ عندما عرض لمنهج ابن ميمون الفيلسوف اليهودي ومؤداه: إذا تعارض العقل مع النقل «المعنى الحرفي» وجب تأويل النص، ورأى تدعيمه بنص لابن تيمية ظن أنه يؤيد هذا المنهج، ويلزمنا تصحيح النص المقتبس بسبب اللبس الذي وقع فيه د/ حسن حنفي حيث ظن أنه رأى ابن تيمية، بينما الصحيح أن الشيخ أورده منسوبًا إلى الرازي ومن نحا نحوه من المتكلمين الذين يرون تقديم الدليل العقلي على الدليل السمعي إذا تعارضا في تصورهم.

والنص المنسوب لابن تيمية على هذا النحو مبتسر، ولو أكمله الدكتور حسن حنفي لوجد في نهايته ما ينقضه من أساسه؛ لأن ابن تيمية عقبه بالتعليق عليه بقوله: ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء -يقصد المتكلمين كالرازي ومن اتبعه- يضع كل فريق لأنفسهم قانونًا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعًا، فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفه لم يتبعوه، وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم، وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها.

من كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» ص٣. على هامش كتاب «منهاج السُّنَّة» أو «درء تعارض العقل والنقل» بتحقيق د/ محمد رشاد سالم. وينظر معجم أعلام الفكر الإنساني تصدير د/ إبراهيم مذكور المجلد الأول، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٨٤مادة ابن تيمية ص ٧١- ٧٤، بقلم د/ مصطفى حلمي.

بأربعة مليارات ونصف من السنوات[1]، كذلك أخطأت التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وآدم عليهما السلام فأدت إلى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنًا، وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير[2].

ويقرر موريس بوكاي بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور الإنسان، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين، وعلى أي حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الإنسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر[3].

ثالثًا: رواية الطوفان

قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

يبدأ موريس أولًا فيبين أن الإصحاحات ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين مخصصة لرواية الطوفان؛ ولكنها تتضمن روايتين منفصلتين في مقاطع متداخلة كل في الآخر مما يجعلها تتناقض مع بعضها البعض تناقضًا صارخًا، حيث يحاول اليهود تعليل هذا التناقض بسبب اختلاف مصدريها، أي المصدر اليهودي والمصدر الكهنوتي، وعلى أية حال فإن الرواية في شمولها هي كما يلي:

---

(١) المرجع نفسه ص٤٧، ٥٠، ٥١ .

(٢) المرجع نفسه ص٤٧، ٥٠، ٥١ .

(٣) المرجع نفسه ص٤٧، ٥٠، ٥١ ، ونشرت جريدة الأهرام القاهرية في يوم ٨/ ٤/ ٢٠٠٥م، بأن فريقًا علميًا دوليًا أعلن أن الجمجمة التي اكتشفت سنة ٢٠٠٢م في «تشاد» يرجع عمرها إلى ٧ ملايين سنة مضت، قد تكون لأقدم إنسان عاش على سطح الأرض، والدراسة نشرتها مجلة «فيتشر البريطانية» العلمية.

لما عمَّ فساد البشر أراد الله تعالى تدميرهم فحذر نوحًا وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات أخرى حية، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية، فهناك مقطع من الرواية «وهو كهنوتي الأصل» يشير إلى أن نوحًا قد أخذ زوجًا من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي «وهو الأصل اليهودي» أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع من ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجًا واحدًا من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة، ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحًا لن يدخل إلى السفينة فعلًا إلا زوجًا من كل نوع من الحيوانات، ويؤكد المتخصصون مثل الأب ديفو أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهودية[(١)].

كذلك فيما يدل على الاختلاف بين النص اليهودي والنص الكهنوتي أن الأول يشير إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر، بينما يشير الثاني إلى الطوفان مزدوج؛ أي ماء المطر والينابيع الأرضية[(٢)]، كذلك هناك اختلاف بين النصين في مدة الطوفان، إذ تقول الرواية الأولى اليهودية: أربعون يومًا فيضانًا، على حين يقول النص الكهنوتي: مائة وخمسون يومًا، وحسب تسلسل ميلاد الأنبياء الثلاثة؛ آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام فإن التوراة تحدد مولد إبراهيم عليه السلام بثلاثة قرون بعد الطوفان، ولكن حسب الرواية الواردة في التوراة تبين أن الطوفان عمَّ كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله تعالى قد فنيت.

وعندئذٍ يتساءل موريس بوكاي: هل من المعقول أن البشرية -والأمر كذلك- قد أعادت تكوين نفسها ابتداءً من أولاد نوح وزوجاتهم في هذا الزمن القليل؟

ويقرر بناء على هذه الملاحظة البسيطة عدم معقولية هذا النص[(٣)]، وتلك هي الملاحظة الأولى...

---

(١) المرجع نفسه ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ربما يقصد بوكاي بالمصدر اليهودي، المصدر الإلهي والكهنوتي نسبة إلى الكهنة.

(٣) ومما تجدر الإشارة إليه أن الآية القرآنية خصصت قوم نوح فحسب، قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].
=

أما الملاحظة الثانية فتتضح على ضوء المعارف الحديثة التي تثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة في التوراة، وتوضيح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية يكون قد وقع في القرن الـ ٢١ أو الـ ٢٢ قبل الميلاد، أي في عصر كانت قد ظهرت قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية، وهو ما تؤكده المعارف التاريخية الحديثة[١]، ففي مصر مثلًا يقابل التاريخ ٢١٠٠ ق.م الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشر وفي بابل أسرة أور الثالثة، وعلى ذلك يتضح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، وبالتالي لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة.

وفي ضوء ذلك كله -كما يرى موريس بوكاي- فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة، ثم يتساءل متعجبًا: هل أنزل الله تعالى شيئًا غير الحقيقة؟

ولما كانت الإجابة قطعًا بالنفي، فلا بد من افتراض وجود تحريف بواسطة البشر، لا سيما إذا عرفنا أن مؤلفًا مثل: سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين على مدى ثلاثة قرون.

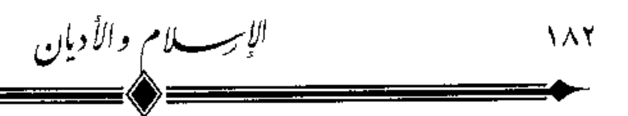
ويستطرد متسائلًا: فكيف تدهش حين نجد فيه أمورًا غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على

= قال صديق خان وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس؛ لكنهم قالوا: لم يكن الطوفان يسوي الشام والمغرب، ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يتجاوز عقبة حلوان، ولا بلغ ممالك الشرق، ص٨، واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان «لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان»، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

وقال ابن خلدون: واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان، وبعض الفرس يقولون: كان بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب، ولم يعم العمران كله ولا غُرِّق إلا بعض الناس، ولم يجاوز عقبة حلوان.

جـ ٤ ص١٠٣٠ من كتاب «إظهار الحق لرحمة الله الهندي» تحقيق د/ محمد أحمد ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض سنة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

(١) المرجع نفسه ص٥٣ .



درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة[١]

وفي ختام حديثنا عن البحث العلمي النزيه الذي قام به موريس بوكاي واكتشافه بموضوعية تامة درجة اتفاق نص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث فإنه استطاع أيضًا في نفس الوقت دحض مفتريات الزاعمين بأن القرآن من تأليف الرسول ﷺ وأنه نقل كثيرًا من التوراة، فيتساءل من الذي دفعه، أما الحجة التي أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح عليه السلام وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيدًا عن أي مرمى نقدي تثيره المعارف الحديثة، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه[٢].

لقد أثارت الجوانب العلمية في القرآن دهشته العميقة، فأخذ يقارن بينها وبين معطيات العلم الحديث، مدللًا على جهل القائلين بأن القرآن من تأليف الرسول ﷺ، وكيف يتسنى له الإتيان بهذه المعطيات التي تفوق الإدراك الإنساني ولم يعرفها عصره، ولا العصور التالية حتى العصر الحديث؟!

وهو أثناء كل خطوة يخطوها في بحث إحدى الظواهر الطبيعية أو في عالمي الحيوان والنبات أو مراحل خلق الإنسان يذيِّل بحثه بمثل قوله: نلاحظ وجود توافق رائع بين الاثنين؛ أي بين النص القرآني والظاهرة التي يبحثها[٣]، ويقول في موضع آخر: والتوافق بين الطريقة التي يذكر بها القرآن الظل وبين ما نعرفه عن هذه الظاهرة في العصر الحديث[٤].

---

(١) المرجع السابق ص٥٤.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ص٢٤٢ ... وينوه الدكتور موريس بوكاي إلى أن القرآن الكريم يضع المسيح عليه السلام في سلسلة نوح وإبراهيم عليهما السلام وعمران، ولا يجد قارئ القرآن أخطاء في الأسماء كتلك التي يجدها في الأناجيل خاصة بأسلاف المسيح، واستحالات الأنساب في العهد القديم، وقد درسها بوكاي في الجزأين الأول والثاني من كتابه ص٢٤٢.

(٣) نفسه ص٢٠٣.

(٤) نفسه ص٢١٠.

وعن غرق فرعون يسجل ملاحظته عن البيان الرائع للآيات القرآنية الخاصة ببدن فرعون، ووجه العجب أنه في عصر محمد ﷺ كان كل شيء مجهولًا عن هذا الأمر ولم تكتشف جثث الفراعنة إلا في نهاية القرن التاسع عشر، بينما النص القرآني يقول بشكل واضح إن جسد فرعون قد أُنقذ[1].

ويسخر بوكاي من ترجمة الأب كوروابيه من ترجمته لمعاني القرآن بِشأن الآيات من سورة يونس من ٩٠ إلى ٩٢ إذ يقول: إن فرعون قد ابتلع بجيشه -خلاف الآيات- ويُتبع ذلك بخرافة مضحكة، فيزعم أنه يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر أي عجول البحر، ويتعذر عرض مضمون كتاب موريس بوكاي في هذا الحيز من الكتاب، ولكن يكفينا عرض بعض المسائل التي تضمنها والتي درسها في ضوء المعارف الحديثة، منبهرًا أمام توافقها مع الآيات القرآنية التي تتناولها، فيقرر أنه لا يوجد تناقضًا بين المعارف الحديثة والآيات القرآنية، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه.

وللقارئ بعض رءوس هذه المسائل:

خلق السموات والأرض- علم الفلك في القرآن، الشمس والقمر- النجوم والكواكب- البنية السماوية، تعاقب الليل والنهار- توسع الكون والأرض- دورة الماء والبحار- تضاريس الأرض- الظل- عالم النبات وعالم الحيوان- النمل والعناكب والطيور- التناسل الإنساني- تطور الجنين في الرحم... وغيرها.

ثم تتابعت الدراسات المتصلة ببيان أوجه الإعجاز العلمي في الكثير من الآيات القرآنية مع تنوعها وغزارتها وشمولها للعلوم والمعارف المتنوعة، فشجعت بعض العلماء المتخصصين على إصدار مجلة فصلية، وهي تصدر عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

---

(١) نفسه ص٢٦٨/ ٢٦٩ .

وعرفنا في هذا المجال أيضًا الإنتاج الخصب للأستاذ الدكتور زغلول النجار، وهو يُلفت أنظارنا -لا إلى الإعجاز العلمي فحسب- بل إلى الإعجاز التاريخي بعد الاكتشافات الأثرية المعاصرة، والإعجاز التربوي والإعجاز الأخلاقي، وقد أثبته في رأينا الدكتور محمد عبد الله دراز، «والإعجاز التشريعي» «والإعجاز النفسي» «والإعجاز التنبؤي»[١].

كذلك لا يفوته الإعجاز البياني الذي تحدى العرب ولا يزال هذا التحدي قائمًا دون أن يستطيع عاقل أن يقول: نعم لقد استطعت أن أكتب سورة من مثل سور القرآن الكريم[٢]، ومع تقديرنا الكبير للرسالة العظيمة التي يقوم بها علماؤنا الأجلاء في بيان الإعجاز العلمي للقرآن، ومخاطبة غير المسلمين بلغة العصر، وهي الطريق المثالية الآن للدعوة إلى الله ﷻ... فإننا نرى أن الإعجاز البلاغي سيبقى ملزمًا للناطقين بالضاد، والعناية ببيانه أمانة في أعناق علماء اللغة العربية، وبث قضاياه في كافة مناهج التعليم بحسب مستوياتها منذ المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية، واتخاذ القرآن الكريم أساسًا للقيم الفكرية والأخلاقية في المجالات التربوية والإعلامية؛ للمحافظة على هويتنا، صمودًا أمام هجمات العولمة[٣]، وبعد هذا التعريف بالتوراة ونقد بعض نصوصها ننتقل إلى المصدر الثاني؛ أي التلمود.

---

(١) ص٣٤ من كتاب «من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» للدكتور زغلول النجار، تقديم أحمد فراج، مكتبة الشروق بالقاهرة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٢) نفسه ص٣٣/ ٣٤.

(٣) سبق أن أعلنت هذا الرأي أثناء مناقشتي لرسالة الدكتورة آمال فوزي أمين بآداب الإسكندرية وموضوعها «جهود أبي حيان البلاغية في تفسيره البحر المحيط» في يونيو سنة ٢٠٠١م.

ثانيًا التلمود

ويحتل التلمود المكان الأسمى كأحد مصادر العقائد والأفكار عند اليهود، وقد يفضلونه على التوراة نفسها أو العهد القديم، ويتخذونه دستورًا للعمل بهدف السيطرة على البشرية، واحتواء الأديان والأمم[1].

والتلمود في تعريف جامع هو هذه الأحاديث الشفوية التي سجلت بعد ذلك -أي بعد التوراة- والتي كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التي جاءت عن يهوه[2]، ويسمى متن التلمود «المشنا»، وله شرحان أو «جمارتان» إحداهما جمارة أورشليم، والأخرى جمارة بابل[3].

وإذا أردنا فهم الشخصية اليهودية على حقيقتها والوقوف على خلفيات الأحداث الجارية الآن على مسرح السياسة العالمية أو المتصلة بجرائمهم التي يرتكبونها ليل نهار بفلسطين المحتلة فما علينا إلا دراسة هذا التلمود، وتحليل بعض نصوصه، ومعرفة كيفية تنفيذ تعاليمه بواسطة الجمعيات السرية كالماسونية.

وسنعرض لبعض النصوص ونحللها، ثم نبين كيفية تنفيذ تعليماته بواسطة جماعة الماسونية، إذ لا بد لمعرفة مكانة التلمود عند اليهود من إلقاء الضوء على بعض النصوص الواردة به، وهي بنفسها تصور هذه المكانة:

---

(١) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، أنور الجندي ص١١، دار الاعتصام ١٩٧٧م.

(٢) في العقائد والأديان، للدكتور محمد جابر عبد العال ص٢١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د/ محمد على البار ص٦١، ويذكر أن ما تدعي جمارة فلسطين أو أورشليم رغم أنها لم تكتب في أورشليم القدس، و«المنشاة» بمعنى المثنى أو المكرر، أي إنها تكرار وتسجيل للشريعة، ثم «الجمارا» أي الشرح والتعليق، والتلمود بمعنى التعاليم «الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص٢٢».

ويُنظر كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» تأليف د/ روهلنج-شارل لوران، ترجمة د/ يوسف حنا نصر الله، دراسة وتقديم د/ أحمد حجازي السقا، ط. مكتبة النافذة، الجيزة- فيصل، سنة ٢٠٠٣م.

- اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.
- أن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة «التلمود» فليس له إله.
- أن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.
- أن مخافة الحاخامات هي مخافة الله[١].

ويتضح لنا من دراسة أحد نصوصه مدى التغيير الذي أحدثه الحاخامات بواسطة التلمود، حيث حولوا عيد الفطر الموجود في التوراة إلى طقوس يذبح فيها نصراني أو غيره، ويوضع دمه في هذا الفطير المقدس، قد جاءت في التلمود عندنا مناسبتان دمويتان ترضيان إلهنا يهوه؛ إحداهما عيد الفطر الممزوج بالدماء البشرية، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا[٢].

وعندما نشر التلمود وقرأه بعض رجال الدين النصارى انفجرت عواطف المسيحيين؛ بسبب الشتم والقذف الموجود في التلمود لعيسى ابن مريم عليه السلام وقامت مذابح كثيرة لليهود في أوربا بإيطاليا وفرنسا وأسبانيا وروسيا، كذلك تكررت أوامر إحراق التلمود بسبب ما يتضمنه من احتقار للدين المسيحي.

كل ذلك أدى إلى قيام حركات إصلاحية بين اليهود حذفت بعدها المواد الموجهة إلى النصارى، أو ترك مكانها غفلًا، أو وضع رموز لمعانيها يشرحها الأحبار لتلاميذهم[٣]، أي إن هناك إصرارًا من جانبهم على التمسك بتعاليم التلمود كاملة وتنفيذها، وهذا ما تؤكده

---

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، للدكتور محمد على البار، ص١٦١/ ١٦٢، وغيرها من النصوص التي تبين مكانة التلمود، إلى جانب نصوص أخرى كوصف الإسرائيلي عند الله بأنه معتبر أكثر من الملائكة، واعتبار الشعب اليهودي هو الشعب المختار، وباقي الشعوب فهم حيوانات، ولا يجيز التلمود أو يشفق اليهود على أعدائهم ولا يعتبر لأرواح غير اليهود حرمة، كما ينص على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي؛ لأنه بذلك يقرب قربانًا إلى الله «ينظر كتاب: اليهودية للدكتور شلبي ص٢٧٥ وما بعدها».

(٢) المرجع نفسه ص٧١.

(٣) نقلًا عن المصدر السابق ص٥٦.

دائرة المعارف البريطانية التي تقول: وتشهد إسرائيل حاليًا عودة شديدة التمسك بالتلمود والأصولية[١]. (Fundamentalism).

وإننا نعبر أمام هذه الأعمال عن ألمنا ودهشتنا معًا؛ أما ألمنا فإنه يرجع إلى مشاهدتنا بأعيننا ما يقع على أرض فلسطين هذه الأيام، وما حدث من قبل من مذابح مشهورة، كمذابح دير ياسين وصابرا وشاتيلا وغيرها، بحيث لا تعد ضحايا الأعياد ومراسيم الختان شيئًا يذكر إلى جانبها، وبالرغم من بشاعتها ومظهرها الإجرامي في حق الإنسانية.

وأما دهشتنا فإنه بالرغم من النصوص التلمودية المهينة للمسيحيين فقد استطاع اليهود خداع الملايين منهم للانضمام إليهم فيما يسمى بحركة بناء الهيكل، على زعم أن المسيح المنتظر لن يظهر إلا بعد بنائه على أنقاض المسجد الأقصى، ومحاولات اليهود لهدم المسجد الأقصى أصبحت خبرًا مكررًا تنشره الصحف اليومية، مع وثائق متعددة عن الخطط الجهنمية لتنفيذ هذا المشروع وضمان عدم ثورة العالم الإسلامي[٢].

وربما يخفف من درجة عجبنا أن نقف على بضع أسرار الماسونية التي يتخذها اليهود كأداة لتنفيذ أهدافهم، واتخاذ التلمود كمصدر للفكر الماسوني[٣]

---

(١) نقلًا عن المصدر السابق ص٥٦.

(٢) المرجع نفسه ص١٢٨ ويقول الدكتور محمد علي البار: وقد انضم إليهم ملايين النصارى في الولايات المتحدة الأمريكية وتبرعوا بمئات الملايين... إلخ. وكانت آخر خطوات إسرائيل أن أصدرت ما تُسمى بالمحكمة الإسرائيلية العليا موافقة في أغسطس سنة ٢٠٠١م لجماعة يهودية متطرفة على وضع حجر الأساس للهيكل المزعوم عند باب المغاربة في جنوب القدس القديمة... وقد وضعتنا هذه الجريمة جميعًا أمام مسئولية كُبرى سنُسأل عنها يوم القيامة وأصبح واجب حماية المسجد الأقصى فرض عين.

(٣) ينظر ص١٤٧، ط. بيروت: ليس التلمود سوى قصة العهد الذي أصبح فيه الشيطان سيد العالم. هكذا وصفه وليم كار في كتابه «اليهود وراء كل جريمة»، أما ما يسمى بمخطط بايك فقد ورد به ذكر حروب ثلاثة:

الأولى: للإطاحة بالحكم الملكي في روسيا.

الثانية: لاجتياح روسيا لنصف العالم.

=

قلنا فيما سبق: إن اليهود لقلة عددهم عوضوا هذا النقص بتكوين الجمعيات والهيئات والنوادي تحمل شعارات جذابة؛ لتجذب إليها أصحاب النفوذ والأموال ورجال الأدب والصحافة والفن والوزراء، وأساتذة الجامعات وغيرهم من رواد المجتمعات في مختلف البلدان.

ومن هذه المجتمعات جماعة «الماسون» أو «البناءون الأحرار»، والماسونية هي جمعية سرية ترجع في الرأي الأرجح[1] إلى بداية القرن الأول الميلادي في عهد هيرودس أكريبا الثاني ملك الرومان، الذي أهمه ظهور المسيح عليه السلام فدعاه ذلك وبمعاونة مستشاريه إلى إنشاء جمعية سرية باسم «القوة الخفية» وكانت تتلخص مهمة هذه الجمعية في التخلص والقضاء على المسيحية وأتباعها[2].

قد حدد الملك هيرودس الهدف من إنشاء هذه الجمعية، ويتلخص في محاربة المسيحية التي تكاد تقوض الديانة اليهودية وتزعزع أركانها[3].

والبيان الذي ألقاه آنذاك طويل، إذا أوجزنا مضمونه فإنه يعبر عن عقائد اليهود نحو المسيح عليه السلام حيث ينكرون ألوهيته ونبوته، ويخشون منه على ديانتهم اليهودية، كما لا

= الثالثة: حرب ساحقة على الإسلام باعتباره القوة الأخيرة التي ستقف تجاه قوى الشر.

المصدر: كتاب «إني أرى الملك عاريًا» للدكتور محمد عباس، ص٥٨٧/ ٥٨٩، مكتبة مدبولي بالقاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١) هذا هو الذي يرجحه الدكتور عبد الرحمن عميرة، حيث هناك احتمالات أخرى، عن تاريخ نشأة الماسونية «كتابه: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص٢٩» ويرى أن التلمود هو الأصل الذي يستقون منه أفكارهم (١ ص٨١).

(٢) المرجع نفسه ص٣٠، ط/ دار اللواء بالرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

وينسب إلى موسى بن ميمون قوله: (إن واجب سائر الجنس اليهودي إعادة بناء الهيكل) وذلك بكتابه «شريعة اليهود». ويرى الأستاذ المودودي أن هدف الماسونية -وهي يهودية في أصلها- إعادة بناء الهيكل، بل إن هذه هي الفكرة المركزية لهذه الحركة كلها.

ص٧ من كتاب «احذروا مخطط اليهود» ط. المختار الإسلامي سنة ١٩٧٧م.

(٣) المرجع نفسه ص٣٠، ط. دار اللواء بالرياض ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

يقرون بأنه المسيح الذي ينتظرونه؛ لذلك فإنهم حاكموه وأوقعوا عليه أشد العقوبات، فصلبوه -حسب اعتقادهم- ودفنوه بعد موته ونصبوا حراسًا على قبره[1]، ونرى في هذا البيان العداء العميق للمسيحية والمسيحيين.

ثم قرر أن تكون أعمالهم خفية، واختار دهليزًا «سماه المحفل» لعقد الاجتماعات السرية فيه؛ لكي لا يرانا أحد ولا يسمعنا أحد ولا يعرف بنا أحد.

وفي المرحلة الثانية للماسونية -كما يذكر الدكتور الزغبي-والتي تبدأ سنة ٥٥م- نشطت الماسونية، ودست على المسيحيين بعض عملائها؛ ليدخلوا في المسيحية وينسفوها، وربما كان منهم «بولس» الذي انحرف بالمسيحية[2]، كل ذلك كانت تأتيه الماسونية بدافع الحقد التلمودي الذي يصور المسيح عليه السلام بأبشع الصور ونكتفي بإيراد النصين:

١- يسوع المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان، وكل مسيحي لم يتهود فهو وثني عدو لله ولليهود.

٢- يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم، بين الزفت والقطران والنار، وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري باندرا -كذبًا وبهتانًا- والكنائس المسيحية بمقام القاذورات والواعظون فيها كلاب نابحة[3].

كذلك فإن الإسلام كان -ولا يزال- مستهدفًا لهجمات الماسونية، إذ يرى الدكتور عبد الرحمن عميرة أن الماسونية «أو اليهودية العالمية» وراء الكثير من الخلافات بين المسلمين، كاتجاهي نفي القدر والجبريين، وكذلك فكرة خلق القرآن التي يتصل سندها بلبيد بن أعصم اليهودي بخلق التوراة[4]؛ بل بدأ النشاط الماسوني مبكرًا بقيادة عبد الله بن سبأ الذي كان يؤسس «الخلايا الماسونية السرية» في تنقلاته بين العراق ومصر والشام وهو

---

(١) المذاهب المعاصرة، للدكتور عبد الرحمن عميرة ص٣٠.

(٢) المرجع نفسه ص٣٣.

(٣) من كتاب «المسيح المنتظر وتعاليم التلمود» ص١٥٧ للدكتور محمد على البار. ط.دار السعودية، بجدة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) المذاهب المعاصرة ص٤٢.

يغري الرعاع، وينشر المبادئ الهدامة للإسلام، ومنها الزعم بألوهية علي بن أبي طالب ﷺ[١].

مسئولية الماسونية عن الثورات الكبرى في العالم

إذا كان التلمود مصدرًا للفكر الماسوني فلا بد من إزاحة الستار عن الجمعيات الماسونية التي تنفذ تعاليم التلمود وتحققها في الواقع، فقد ورد في أحد نصوصه ما يلي:

يجب على كل يهودي أن يبذل جهوده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض؛ لتبقى السلطة لليهود وحدهم، وقبل أن يحكم اليهود العالم بصورة نهائية يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وعندما يأتي المسيح ويحصل النصر المنتظر تكون الأمة اليهودية إذ ذاك في غاية الإثراء؛ لأنها تكون قد حصلت على جميع أموال العالم، وتحفظ هذه الكنوز في سرايا واسعة[٢].

وكنا قبل الاطلاع على هذا النص وغيره نظن أن التوسع في تصوير ذلك الدور للماسونية كأداة لهدم الحكومات وإثارة الحروب والنزاعات في العالم هو لون من المبالغة[٣]

---

(١) مقدمة كتاب الخطر اليهودي «بروتوكلات حكماء صهيون» للأستاذ محمد خليفة التونسي، ط. مكتبة دار التراث سنة ١٩٧٧م.

(٢) نقلًا عن كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، ص١٥٧ للدكتور محمد على البار، وقد استخدمنا لفظ «الثورات» كمصطلح سائد، وهي في حقيقتها حركات انقلابية تهدم الأنظمة القائمة وتستحوذ على السلطة بطريقة غير شرعية؛ لتفتح الطريق لأتباعها من الماسونيين للاستحواذ عليها.

(٣) ويرى الأستاذ العقاد أن دور الصهيونية في الثورات لا خلقها؛ ولكن اغتنام الفرص، والتسلل من الثغرة المفتوحة، ويضرب على ذلك مثلًا بالشيوعية حيث سبقتها أسباب ومقدمات في المجتمع الروسي استغلتها الصهيونية واتجهت إلى وجهتها «الصهيونية العالمية ٧٩».

ويذكر الأستاذ التونسي أن نفوذ الدولة اليهودية قائم في كل مكان عن طريق جمعياتهم الدينية والسياسية والماسونية سرية وعلنية ونسائهم وخداعهم وبذر بذور الفتن بين الهيئات المختلفة في كل قطر في العالم معًا، وبإشرافهم على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما والمدرسة ونظم التعليم والبنوك والشركات والبورصات وأهم منابع الثروة في معظم البلاد، واحتكار الذهب ونظمهم السرية التي لا يعرف أهدافها إلا أكابر حكمائهم، =

في تضخيم دور اليهود بصورة أكبر بكثير من حجمهم، ولكن الحق أننا كلما قرأنا أكثر عن تاريخ الثورات، وعرفنا شخصيات من المتآمرين الحقيقيين المختفين وراء الستار تبين لنا صحة التعليلات الآنفة، حيث يستغلون الأزمات القائمة ويستثمرون حركات الجماهير ويوجهونها لصالحهم.

ويرى الأستاذ أنور الجندي[1] أن أبرز أهداف الماسونية هو احتواء المسيحية وتدميرها من الداخل والعمل على تزييف الإسلام والسيطرة على مجتمعاته، واستطاعت أن تحقق ثلاثة أعمال كبرى فتحت الطريق لإقامة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي وهذه الأعمال هي:

١- الثورة الفرنسية التي أتاحت لهم تملك وجوه النشاط الثقافي والصحفي والسيطرة على رجال السياسة والحكم.

٢- إسقاط القيصرية وإقامة البولشفية في روسيا.

٣- إسقاط الخلافة العثمانية.

وسنكتفي بأن ننزع من وقائع التاريخ بعض الشواهد الدالة على صحة هذه الاستدلالات؛ لنأخذ حذرنا من استفحال هذا الخطر الداهم علينا وعلى العالم ولكي لا

= وإن نفذ كبارهم وصغارهم خططها تنفيذًا دقيقًا «ص٦٩ من مقدمة كتاب الخطر اليهودي: بروتوكلات حكماء صهيون» مكتبة دار التراث ١٩٧٧م.

(١) باختصار من كتابه «المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية» ص٩، ط. دار الاعتصام بمصر عام ١٩٧٧م.

وكان وراء إسقاط الخلافة العثمانية ما وراءه من شروط وضعتها إنجلترا على لسان «كرزن» رئيس وفدها في مؤتمر توران؛ ومنها إعلان الدولة «اللادينية» حيث ضرب الإسلام في كيانه السياسي، وقد عبر العلَّامة شلبي النعماني عن هذه الفاجعة أصدق تعبير بقوله: إن زوال الدولة العثمانية في الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم، ص٦٦ من كتاب «في مسيرة الحياة» للأستاذ أبو الحسن الندوي، ط. دار القلم، بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، وينظر كتاب «حقيقة الماسونية» للدكتور محمد علي الزغبي، ط. دار العربية، بيروت، مارس ١٩٧٤م.

نسى – والأجيال بعدنا– دور اليهود في إلغاء الخلافة العثمانية؛ لأن السلطان عبد الحميد رَحِمَهُ اللهُ رفض التنازل لهم عن أرض فلسطين.

ففيما يتعلق بالثورة الفرنسية، ظهر من خباياها أن «ميرابو» أحد نبلاء فرنسا في العهد الملكي –وهو من الماسون– أقنع «الدوق دورليان» بالاشتراك في الثورة للإطاحة بالملك لويس السادس عشر؛ لكي يستولي على عرشه، ولكنَّ المتآمرين اليهود تخلصوا منهما معًا بعد نجاح الثورة.

ولما قام «روبسبير» الذي اختاره اليهود لتولي الحكم بعد الثورة ليزيح الستار عن حقيقتهم ودوافعهم في كلمة ألقاها بالجمعية الوطنية أردته رصاصة قاتلة فمات بسره الذي لم يبح به[١].

ويبدو أنه عندما حقق اليهود الماسون أغراضهم –وأصبحت مقاليد السلطة في أيديهم أو أيدي أتباعهم– لم يعد يفزعهم إذاعة الأسرار، بل ربما أباحوا بها تفاخرًا وتحديًّا، ومثال ذلك الكلمة التي ألقاها رئيس محفل الشرق الأكبر الفرنسي ١٩٢٣، وقال فيها: نشرب الآن النخب التالي نخب النظام الجمهوري الفرنسي ابن الماسونية العالمية[٢].

وإذا تكلمنا عن دور اليهود في الثورة البولشفية وسيطرتهم على مقاليد السلطة في روسيا الماركسية، فيكفينا إحصاء عدد أعضاء المكتب السوفييتي هناك من اليهود؛ إذ كان يتألف من سبعة عشر عضوًا؛ منهم أربعة عشر يهوديًّا صريحًا، وثلاثة من أصول يهودية أو من صنائع اليهود وزوجات الثلاثة يهوديات، وهم ستالين وفيرشيلوف ومولوتوف[٣].

---

(١) المذاهب المعاصرة، للدكتور عبد الرحمن عميرة ص٩٦، وقال في هذه الكلمة: (إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذا المكان وفي هذا الوقت... كما أنني لا أستطيع كشف الحجاب الذي يغطي هذا اللغز في الثورات منذ أجيال سحيقة. هذا وقد ورد بالنص بالبرتوكول الثالث (... تذكروا الثورة التي نسميها «الكبرى»، إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيدًا؛ لأنها من صنع الدنيا...) ص١٣٨/ ١٣٩، بروتوكلات حكماء صهيون.

(٢) المصدر السابق ص٩٧.

(٣) ص٧١/ ٧٢ من مقدمة كتاب الخطر اليهودي- بروتوكولات حكماء صهيون، للأستاذ محمد خليفة =

أما الحديث عن إلغاء الخلافة العثمانية فإنه حديث يُدمي القلب حقًّا ويفتح أعين المخدوعين إلى أسباب الكوارث التي أصابت -وما زالت- العالم الإسلامي- ما لم يلتئم شمله من جديد، فقد زال بزوال الدولة العثمانية ملك المسلمين وملتهم، كما وصفه العلَّامة شلبي النعماني.

وما زالت الخبايا التي كانت وراء إلغاء الخلافة الإسلامية تظهر على السطح بمرور الزمن، وظهرت الوثائق التي تجعلنا نصحح بعض الأفكار والآراء التي ملأت كتب التاريخ بالأكاذيب والأغاليط المتعمدة أحيانًا؛ كتصوير أتاتورك بالبطولة أو اتهام السلطان عبد الحميد بالدكتاتورية، أو وصف حركة جمعية الاتحاد والترقي بأنها أخذت بيد تركيا إلى التقدم والحضارة.

هذا بينما أظهرت الوثائق أن الأحداث كانت تمضي بخلاف ذلك تمامًا، فقد خُلع السلطان عبد الحميد؛ لإخلاصه في الدفاع عن فلسطين ومواجهة اليهود، وكان أتاتورك من طائفة «الدونما» اليهودية التي تتظاهر بالإسلام نفاقًا، وتبين في نهاية المطاف لبعض المخدوعين الذين اشتركوا في المؤامرة ما تورطوا فيه، فهذا «أنور باشا» الذي قام بالدور الرئيسي في الانقلاب على الخلافة ١٩٠٨م، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية يقول في حديث له مع «جمال باشا» إذ كانا يحللان أسباب الانحدار الذي أصاب الدولة التركية: أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال: نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنًا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي[1].

= التونسي، وقد كتب ذلك في سبتمبر ١٩٥١م، ولا نرتاب في أن نفوذهم ما زال كما هو حتى الآن، إذ يصعب تصور تنازلهم عن السلطة من تلقاء أنفسهم، ويلفت نظرنا الأستاذ التونسي إلى مؤشر مهم بقوله: وتأمل الشعار اليهودي البلشفي في صدر هذا الكتاب وحوله النجمة المسدسة وهي شعار علم إسرائيل.

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ، ص٢٧٩، للدكتور عبد الرحمن حبنكة.

بروتوكولات حكماء صهيون

إذا بدأنا بتعريفها فإن الأقرب إلى الدقة وصفها بأنها مجموعة من المبادئ الأساسية الاستراتيجية، ولا يمكن تغيرها بحال، يزنون بها -وهم اليهود- تنفيذهم العملي(١).

وهذه البروتوكولات -بالرغم من عدم الترابط الظاهر بين بنودها- إلا أن الدارس لها بمنهج تحليلي يتضح له في النهاية أنها اتخذت شكل منسق متكامل وتضمنت خطة عمل مترابطة ترمي إلى إيقاع الأميين -أي غير اليهود- في شباك النفوذ اليهودي، ووضعت السبل التي تحاصر فيه الأميين في كافة أوجه أنشطتهم وصنوف حياتهم؛ أي حياة الفرد ومعتقداته وسلوكياته، وحياة المجتمعات ونظمها الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية، كذلك تبدو الصلات واضحة بين بعض نصوصها، ومحتويات التلمود والتنظيمات الماسونية، وإلى القارئ بعض الشواهد:

- إننا مختارون من الله لنحكم الأرض.
- يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان.
- أن الأميين(٢) كقطيع من الغنم وإننا الذئاب.
- إننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية(٣).

أما عن تاريخها فيرجع إلى أخريات القرن الماضي، واكتنف ظهورها على العالم -بعد أن كانت في شكل وثائق سرية- كثير من الملابسات الملفتة للأنظار، فقد طبعت لأول مرة في روسيا ١٩٠٥م ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الأوربية بلغات عدة، ولوحظ

---

(١) حقيقة اليهود، فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي، ص٢٧، دار القسام بالكويت، رجب ١٤٠٦هـ

(٢) وكلمة «أممين» التي تتردد دائمًا فهي رمز لكل من هو غير يهودي، وهي في الأصل **Lsome** وتعني في العبرية: الأنجاس أو البهائم أو الكفار، ص٨٩ من كتاب «انتبهوا... البشرية في خطر» جمع وتعليق سعاد منسي، مطابع دار الشعب- د.ت.

(٣) من كتاب «الخطر اليهودي -بروتوكولات حكماء صهيون» ترجمة محمد خليفة التونسي وتقديم الأستاذ العقاد، مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، الصفحات ١٤٥، ١٨٤، ١٧٢، ١٩٠.

-كما أشار الأستاذ العقاد- أنها لا تظهر في لغة من اللغات إلا اختفت على أثر ذلك، وأنها اختفت أو تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد[١].

وعندما تم نشرها لأول مرة أعلن اليهود على لسان زعيمهم «هرتزل» التبرؤ منها، وأنها مزيفة، وضغط اليهود على بريطانيا للتدخل في روسيا لمصادرة نسخ الكتاب، وكذلك فعلوا أيضًا في فرنسا، وعملوا على إيقاف طبعها في ألمانيا وشاع أنه ما من أحد ترجم هذا الكتاب أو عمل على إذاعته بأي وسيلة إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت في ظروف مريبة[٢].

وهناك شواهد كثيرة تُرجح صحة نسبة البروتوكولات إلى اليهود، منها الدراسة المقارنة التي قام بها الصحفي البريطاني «فكتور مارسون»[٣] على أثر الانقلاب الشيوعي في روسيا ١٩١٧م، حيث رأى في هذا الانقلاب تحقيقًا عمليًا لتوقعات ناشرها الروسي نيلوس، منذ نشر البروتوكولات عام ١٩٠٥م، وكان يحذر الروس حينذاك من مؤامرات اليهود[٤].

كذلك فإن من يراقب ويتفكر في أحوال العالم المعاصر -كما فعل هنري فورد في كتابه: اليهودي العالمي- يميل إلى تصديق ما ورد بهذه الوثائق السرية؛ لأن الواقع يشهد بآثارها على أحوال الأمم والشعوب، كما تشهد بصمات الأصابع على صاحبها، فقد صرح ذات مرة لأصدقائه قائلًا: مهما كانت حقيقة هذه البروتوكولات فإنها تتفق مع ما هو واقع

---

(١) تعقيب محمد خليفة التونسي على كتاب «الصهيونية العالمية» للعقاد ص١٥٧، ط. مكتبة غريب بالفجالة بمصر عام ١٩٨٦م، ويعلق في الختام بقوله: وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور، يفضح مؤامرة من مؤامرات «الصهيونية العالمية».

(٢) حقيقة اليهود، فؤاد بن سيد الرفاعي، ص٣٩.

(٣) المصدر السابق ص٣٧.

(٤) ومما قاله نيلوس حينذاك: ولا يعلم إلا الله وحده كم كانت المحاولات الفاشلة التي بذلتها لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسباب العاصفة التي تتهدد روسيا البليدة التي تبدو من سوء الحظ أنها فقدت تقديرها لما يدور حولها ص٢٤٤، البروتوكولات «تعقيب سرجي نيلوس».

الآن، ولا يختلف مضمون هذه البروتوكولات عما جاء في التلمود، ثم يمضي فيذكر أحد نصوصها الذي يتضمن أن الثورة الفرنسية من صنع الماسون[١]، وكل من يرجح صحتها يستند إلى مطابقة الواقع لتعاليمها، وأن لسان الحال أصدق من لسان المقال[٢].

البروتوكولات والحركات الصهيونية

ولكي لا يتشعب بنا الحديث عن البروتوكولات فإننا نعرض لمضمونها من بعض المسالك المتصلة بأهداف بحثنا، ومنها:

(أ) صلة البروتوكولات بمضامين تلمودية صريحة أو خفية، وغاية ما هنالك أن التلمود قد أجملت حيث عمدت هذه الوثائق إلى التفصيل والتمثيل[٣].

(ب) لعل هذه الدراسة المقارنة وما شابهها تجعلنا نُعيد تقويم بعض الشخصيات -وتفسير بعض الأحداث المؤثرة في عالمنا الإسلامي- تاريخيًّا، وفي العصر الحديث، وذلك ببحث مدى تطابقها مع تعاليم هذه الوثائق ونصوصها بين وقائع الأحوال والتصريحات المعلنة، أو السير بالشعوب إلى حتفها مع إيهامها بأنها تمضي نحو المستقبل المزدهر.

(جـ) تحول اليهودية إلى دين سياسي في العصر الحاضر باسم الصهيونية، فقد برزت في نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا مفاهيم الصهيونية السياسية كتعبير عن اليهودية، غلفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم[٤].

---

(١) الماسونية تحت المجهر. د/ إبراهيم فؤاد عباس، ص٢٨ دار الرشاد ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) مقدمة البروتوكولات للعقاد، ص١٢.

(٣) مقدمة البروتوكولات للعقاد، ص١٢.

(٤) د. حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك جـ١ص٤١، ط. دار الشعب بمصر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

كذلك يحدد تاريخ ١٥/ ٥/ ١٨٩١م موعدًا لإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث، وأن تدفع بالقوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية «نفس المصدر».

(أ) إننا نجد أحد الأمثلة المعبرة عن التحام نصوص التلمود مع البروتوكولات فيما أورده أحد نصوص التلمود بعد وصف الأمم والأجناس بالحيوانات وكيفية السيطرة عليهم: يجب أن نزوج الجميلات للملوك والوزراء والعظماء، وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفة، وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقع بينهم، ونجعلهم يحارب بعضهم بعضًا، وفي ذلك كله تجنى الفائدة الكبرى[١].

ثم نقرأ عن النتائج المتحققة في البروتوكول الأول كالآتي: ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذين أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماناتنا -أي المربيات بالمنازل- في البيوتات الغنية، وكتبتنا ومن إليهم، ونساؤنا في أماكن لهوهم -والهين- أضيف من يُسَمَّين «نساء المجتمع» أو الراغبات من زملائها في الفساد والترف[٢].

وربما كان النصيب الأوفر عند تنفيذ مثل هذه الخطط للمجتمع الأمريكي، فقد أورد هنري فورد بكتابه «اليهودي العالمي» ما يثبت بالأدلة كيف دمروا الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمور والبغاء والأزياء الماجنة والأشرطة الوضيعة والمسرحيات البذيئة والآداب الساقطة[٣]، بل لا يخلو مجتمع من المجتمعات بأقطار الأرض قاطبة من آثار أفعالهم، فكيف نجحوا؟!

الحق أنهم تعمقوا في فهم النفوس البشرية ودوافعها وغرائزها، واستطاعوا بذلك قيادة عملائهم كيفما شاءوا، ولنقف قليلًا على تحليلاتهم النفسية لهؤلاء:

---

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د/ محمد علي البار ص١٦١.

(٢) البرتوكولات ص١٢٦ وينص البروتوكول الخامس على أنهم بذروا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال العشرين قرنًا، ص١٤٤، ويذكر أن هناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا في مصر عام ١٩٤٢م، تعليقه على البروتوكولات ص١٥٤/ ١٥٥.

(٣) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د/ عبد الستار فتح الله سعيد ص٥٤.

ينص البروتوكول الرابع عشر بإحدى فقراته على الآتي: ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات السرية مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية، وليسوا ميالين إلى الجد والعناء، وبمثل هؤلاء الناس سيكون علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة. وفي فقرة أخرى نراهم يصفون الأميين الذين يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية بالفضول أو رغبة الحصول على الأشياء الطيبة، كما يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان: وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع، ذليل كذل العبد[1].

ولكن سلطان المطامع والمنافع والشهوات لا تعمل وحدها -كما يرى الأستاذ العقاد في تحليله لنفوس أولئك الأعوان- بل لا بد أيضًا من أساليب الهدم والخداع أي هدم الأخلاق والأوطان والأديان، وهي كالحصون التي تحمي ضحاياها، أما إذا أصبح المسلم غير مسلم، وأصبح المسيحي غير مسيحي، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه، وأصبح الضمير الإنساني لا موضع فيه للحلال والحرام فهي على الأقل ميدان لا موانع فيه ولا عقبات، وإن لم يكن فيه أعوان وأذناب[2].

(ب) إذا كان التلمود يغذي كما رأينا في اليهود روح العنصرية والامتياز عن باقي الأمم، وينمي في أنفسهم الاستهانة والاحتقار لغيرهم من الأجناس والشعوب والأديان، فإن الغاية هي بسط سلطانهم على العالم كله، إذا كان الأمر كذلك فإن قراءة البروتوكولات بهذا الفهم لا تزد عن كونها برنامج تفصيلي للأهداف اليهودية المتحققة على أرض الواقع ومفتاحًا للوعي المتكامل لكثير من الواقعات التاريخية والمعاصرة،

---

(١) البروتوكولات ص١٩١.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص٧٦، ويقول أيضًا: فحسب الصهيونية كسبًا أن تتهدم أركان الوطنية والدين وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب... فتستريح من هذه العوائق في طريقها، وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب «المرجع نفسه ص٧٩».

وحفزًا للهمم -وهذه هي غايتنا- لوضع البرامج العلمية والخطط الهادفة المضادة في سبيل استكمال وظهور اليقظة الإسلامية المرتقبة التي تنمو الآن في رحم الأمة.

وإذا أخذنا برأي ابن خلدون صاحب النظرية التي تدرس تاريخ الأمم وواقع المجتمعات والحضارات بتشبيهها بالجسد الإنساني[1]، رأى كجسد حي يتكون إجمالًا من رأس مفكرة وقلب نابض وجسد تتقاذفه الغرائز، إن لم يخضع لأوامر ونواهي الشرع فإننا نرى في تطبيق نظريته على مضمون البروتوكولات أقرب الطرق لاستيعابها، وهذا ما سنفعله بمنهج تركيبي في القوالب الآتية:

١- تغيير العقائد والأفكار بإزاحتها وإحلال بدلها نظريات زائفة.

٢- صنع القيادات وجعلها تابعة للخلايا الماسونية السرية، وقد عرفنا نفسيًّا كيف يسوقون الأعوان والأتباع إلى ما يريدون.

٣- صرف جماهير الشعب عن المتابعة والاهتمام بما يدور حولها، حتى تخرج من حلبة الصراع وتتفسخ إرادتها وتصبح طوع البنان كالسائمة لا تدري من أمرها شيئًا.

١- العقائد والأفكار

ورد بالبروتوكول الثاني أن نجاح داروين وماركس ونيتشه كان بترتيبهم مع ترقبهم للأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي[2]، ويبدو أن بعض الأعضاء كانوا مكلفين بتتبع آثارها الأخلاقية، فسجلوا في البروتوكول التاسع هذه الملاحظة: ولقد

---

(١) ويرجع الفضل إلى الدكتور حامد ربيع الذي لفت النظر إليها وبيان أثرها التطبيقي في الممارسة على النظريات السياسية الغربية، وربما كان مصدر ابن خلدون عبارة حنين بن إسحاق (إن الدماغ ابتداء الحس والحركة الإرادية والسياسية)، ويرى د/ عبد الصبور شاهين أن صفة «السياسة» تعني قيادة الجسد وتوجيهه، ثم جاء المعنى الحديث فوسع مجال استعمال الكلمة بنقله من إدارة الجسد البشري إلى إدارة الكيان الاجتماعي «ص١٢٩ من كتابه: العربية لغة العلوم والتقنية» ط. دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) البروتوكولات ص١٣٢.

خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علَّمناه من نظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها[١].

كذلك حرصوا على الترويج لما سموه بالنظريات المبهرجة، أي التي تبدو في ظاهرها تقدمية أو تحررية، وهي في حقيقتها ليست كذلك ولا يوجد عقل واحد بين الأمميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة التقدم يختفي ضلال وزيغ عن الحق ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية، إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد[٢].

ويسجل البروتوكول الأول أنهم أول من صاغ فيها الناس قديمًا الحرية والمساواة والإخاء، فأخذت الجماهير ترددها كالببغاوات، بينما حرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التي كانت من قبل في حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة[٣]؛ ولكنهم يفخرون بأن هذه الصيحة جلبت إلى صفوفهم فرقًا كاملة، بينما هي في الواقع تحطم سلامتهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمرة بذلك أسس الدول[٤].

٢- القيادات

تمضي الخطة في هذا الصدد خلال ثلاث شعب:

أحدها: إزاحة الفئة الممتازة التي تستحق تولي زمام الأمور عن جدارة واستحقاق؛ لتفوقها واستبدالهم بوكلائهم التابعين لهم وسنخضع الرعاع لهذا النظام؛ لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى[٥].

والثانية: الحط من كرامة رجال الدين من الأمميين في أعين الناس باعتبارهم عقبة كؤد في طريق اليهود وأن نقيد نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يومًا فيومًا[١].

---

(١)المرجع نفسه ص١٥٩.
(٢)المرجع نفسه ص١٨٣.
(٣)المرجع نفسه ص١٢٨.
(٤)المرجع نفسه ص١٢٩.
(٥)المرجع نفسه ص١٦٣.

والثالثة: السيطرة الاقتصادية، بالحصول على الاحتكار المطلق للصناعة والتجارة، مع تجريد أصحاب الأراضي من الأميين من أراضيهم؛ لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، مع العمل على استنزاف الثروات بحيث تصبح في أيدي اليهود، فيعم الفقر الطبقات العاملة وعندئذٍ يخر الأميون أمامنا ساجدين؛ ليظفروا بحق البقاء [٢].

٣- جماهير الشعب

ربما تتضح فاعلية البروتوكولات الخطيرة في التنفيذ بشكل واقعي أكبر إذا طالعنا الفقرات المتصلة بالجماهير، وكيفية قيادتها بعد إفقادها الوعي وخلخلة إرادتها، حيث تتشابك النصوص بعضها ببعض كالسلاسل الحديدية التي تقيد أيدي الإنسان وأرجله، هذه السلاسل الشيطانية وحدها لتحقيق الإفساد الذي يسعى إليه اليهود، فما البال بها كلها؟!

إنها تتشابك وتتعقد فلا تترك عضوًا من الأعضاء في جسد الأمة الممثل في جماهير الشعب إلا وقد أحاطت به والتفت حوله، فبدءًا من تدمير الحياة الأسرية وإفساد أهميتها التربوية إلى السيطرة على الصحافة بنشر التعصبات الدينية والقبلية وبث الفوضى الاجتماعية، إلى تضليل الرأي العام وإيقاعه في الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى لا يكون له رأي في المسائل السياسية [٣].

وإمعانًا في صرف الجماهير عن الاهتمام بالمسائل السياسية فإنهم يلهونها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ وغيرها، ولا ينسون أيضًا تدبير الأزمات الاقتصادية وإلجاء الحكومات إلى القروض وتحميلها بالفوائد [٤].

(جـ) كيف أفلح اليهود -وهم أصحاب الدين المغلق- من إقامة دولة وكيان قائم على عقيدة دينية؟

---

(١) المرجع نفسه ص٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص١٤٩.

(٣) ينظر البروتوكولات الصفحات ١٦٣، ١٧٩، ١٤٦، ١٥١.

(٤) المرجع نفسه ص١٨٣: ٢١٨.

تمهيدًا للإجابة عن هذا السؤال نستطلع بعض مواد البروتوكولات؛ ومنها إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء[١]، وفي نص آخر يشير إلى ضرورة سحق كيان حكومة الأقلية الفاضلة العادلة التي تقف ضدهم، ثم تأتي الخطوة التالية أي نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرههم ونهمهم، والحاجات المادية للإنسانية، وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلًا بنفسه أن يحطم طليعة الشعب، وبذلك نضع قوة إرادة الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجرونه من قوة طليعته[٢]، أي: يؤسد الأمر إلى غير أهله، وأضف إلى ذلك الالتزام بشعارهم وخلاصته كل وسائل العنف والخديعة[٣].

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ العقاد في وصف أساليب الصهيونية، وتتلخص في استطلاع الأسرار الخفايا، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها[٤]، ثم يكشف لنا الدكتور/ حامد ربيع عن أسرار أخرى لا تتوافر إلا للقلة، فقد عكف على دراسة أدوات الغزو الاستعماري أو ما يسميها «أدوات التسميم السياسي» الذي خضعت له المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلص إلى لفت أنظارنا إلى طبيعة الاستشراق كأداة من أدوات الغزو الاستعماري، وبين أنشطته:

١- كوسيلة للنفوذ الغربي في فهم العالم العربي.

٢- كأداة لاستقطاع القوى غير المسلمة، وبذر عناصر الطابور الخامس في تلك الأقليات.

---

(١) المرجع نفسه ص١٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص١٣٠، ويفسر الأستاذ التونسي الطليعة بأنهم الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب ويتزعمونها ويقضون في أمورها.

(٣) المرجع نفسه ص١٢٢.

(٤) الصهيونية العالمية ص٧٥، ويتحدث عن «الصهيونية المستعمرة» التي ظهرت فقط في العصر الحديث، بينما لم تقم لليهودية كلها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرنًا، فلم تكن قط في عداء المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه، وتمهد له وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب.

٣- كأداة لإعادة تشكيل منطق الطبقات القيادية.

هذا، ولم يتهيأ للاستشراق النجاح إلا بعد بذره للمدارس الأجنبية والإرساليات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ثم الجامعات التي كانت أداة ثقافات غير عربية وغير إسلامية أيضًا، وجاءت الحركة الصهيونية فانتفعت بكل هذه الخبرات وأضافت إليها [(١)].

(١) باختصار من كتاب «الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي» ص٢٨/ ٢٩، دار الموقف العربي بالقاهرة ١٩٨٢م. ويبرهن د/ حامد ربيع على صدق استنتاجاته بأن أمة الجهاد انحرف بها قادتها إلى أسلوب التفاوض مثل: سعد زغلول في مصر ونوري السعيد في بغداد، كذلك أخذت بعض القيادات الفكرية تسبح بحمد الحضارة الغربية: مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، بينما عاش العقاد مشردًا ومات فقيرًا.

الألوهية

إن كل من يبحث عقيدة الألوهية في الديانة المحرفة من مصادرها -التوراة والتلمود- يتضح أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم هذه الأسفار فتصوروا الله ﷻ في صورة مجسمة، ووصفوه بكثير من الصفات غير اللائقة بالألوهية، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا[1].

منها الزعم الكاذب بأن الله -تعالى علوًّا كبيرًا- استراح في اليوم السابع بعد خلق السموات والأرض، فأعلن القرآن الكريم كذبهم وبهتانهم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

وتدل هذه الأسفار أيضًا على أنهم كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، مع تصورهم بأن لهم إلهًا خاصًّا وأنهم هم أحباؤه، وتقول السيدة مريم جميلة المهتدية للإسلام: وكان تصوري لإله اليهود مشوهًا وغير لائق، فقد بدا لي الله في صورة وكيل مقاطعة دنيوية[2]، واعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن الله.

وهناك تخيلات وأوهام يلحقونها بالله تعالى؛ منها ما يرويه التلمود عن أعماله في الليل والنهار، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل (كمذاكرة التلمود مع الملائكة، ومع ملك الشياطين والاعتراف بالخطأ بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل والبكاء والندم والغضب على بني إسرائيل والقضاء عليهم بالتشريد والشقاء)، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا[3].

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي ص٢٤.

(٢) رجال ونساء أسلموا جـ١/ ط. دار القلم/ الكويت ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) الأسفار المقدسة ص٢٨/ ٢٩.

ويقول الشيخ إبراهيم خليل أحمد: (ويبدو أن أسفار التوراة تدلل على أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، فكانوا يرون أن ثمة إله خاصًّا بهم يختلف عن آلهة الشعوب الأخرى، ص١٣٠ كتاب: إسرائيل والتلمود، ط. دار المنار بالقاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

ويذكر وول ديورانت بكتابه «قصة الحضارة» أن اليهود لم ينحلوا قطُّ عن عبادة العجل والكبش والحمل[(١)].

ويرى الدكتور أحمد شلبي -يرحمه الله- أن اليهود لم يستقروا في أي فترة من فترات تاريخهم على عبادة الله الواحد الذي دعا له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحًا في جميع مراحل تاريخهم[(٢)].

كذلك اتضح له من دراسته للأسفار اضطراب الفكرة التي ترسمها عن الإله... فهو عندهم ليس معصومًا، ويأمر بالسرقة، ويتصف بالقسوة والتعصب لشعبه؛ لأنه ليس إله كل الشعوب بل إله بني إسرائيل فقط وهو عدو للآلهة الآخرين[(٣)].

ويُستخلص الاتجاه اليهودي المادي من عبارة وردت على لسان أحد أبطال رواية «طوبى للخائفين» من تأليف ابنة ديَّان، وهي كما يلي: أيام زمان حين كنا يهودًا في روسيا وغيرها كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات، ونحافظ على ديننا، فقد كان الدين اليهودي لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف ونزود عنا الردى، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم هو الأرض، أنت الآن إسرائيلي، ولست مجرد يهودي، إني قد تركت في روسيا كل شيء؛ ملابسي ومتاعي وأقاربي وإلهي، وعثرت هنا على رب جديد، هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال[(٤)].

إن مثل هذه الاعتقادات الباطلة المخالفة لعقائد التنزيه لله تعالى جعلت عالمًا غربيًا كبيرًا -وهو ول ديورانت- يميل إلى ترجيح أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا «الإله يهوه»، فيهوه ليس خالقهم بل مخلوق لهم، وفي يهوه صفاتهم الحربية التدمير والسرقة، ويهوه قاسٍ مدمر

---

(١) اليهودية، للدكتور أحمد شلبي ص١٧٧ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٤م.

(٢) نفسه ص١٧٦ ويطلقون على الإله عندهم اسم «يهوه» ... ويصح في تفسير الأستاذ العقاد أنه نداء لضمير الغائب أي «يا هو» ص١٧٩.

(٣) نفسه ص١٨٢.

(٤) أديان الهند الكبرى د/ أحمد شلبي ص١٢٥ مكتبة النهضة سنة ١٩٧٢م.

متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بذلك عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى[١].

من هنا حق لكل منصف من علماء مقارنة الأديان -كالقرافي- أن يتساءل: فأين هذا القول من قول المسلمين؟ أن خلق الله تعالى لجملة العوالم كخلقه لأقل جزء من جناح بعوضة، وأن إيجاده بأن يقول للشيء: كن فيكون[٢].

ويستخلص من ذلك -وكذلك يفعل كل باحث منصت لصوت العقل، ومستخدم لموازين العدل- أنه شتان بين عقائد اليهود بمصادرها المحرفة وبين عقائد المسلمين الذين يثبتون لله تعالى الصفات اللائقة بكماله وجلاله ﷻ من التوحيد والتمجيد اللائق بجلال الربوبية وتعظيم الله تعالى، وأما قول اليهود فتأنف منه دبغة الجلود، وهذه المواضع وشبهها من أعظم الأدلة على تبديل التوراة، وأنها غير المنزلة من الله تعالى، وهذا يجزم به كل عاقل[٣].

---

(١) قصة الحضارة جـ٢ ص٣٤ عن «المخططات التلمودية للأستاذ أنور الجندي ص٢٩».

(٢) الأجوبة الفاخرة «عن الأسئلة الفاجرة» للقرافي ص١٤٨، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٣) نفس المصدر.

الإيمان باليوم الآخر

يلاحظ الباحثون أن هناك اضطرابًا وغموضًا في عقيدة اليهود في اليوم الآخر، فهي أقرب إلى الإنكار منها إلى الإقرار والإيمان.

ويرجع ذلك إلى اختلاف النصوص الواردة عن الآخرة بين التوراة والتلمود، فقد خلت أسفار العهد القديم من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه، بينما ذكر التلمود في بعض فقراته الجنة والنار؛ (ولكنها في صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة، فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تُأوي إليها الأرواح الزكية، وأنه لا يدخلها إلا اليهود، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم أوز سمين، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق، عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين)(١).

ومن هنا اختلفت الآراء حول معتقدات اليهود عن اليوم الآخر، فيرى الدكتور وافي أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب في عقيدتها إلى ما يقرره التلمود في هذه الفقرات، وكانت تفسرها بمدلولها الحقيقي لا بمدلولها المجازي(٢).

ويستدل من ذلك على أن أسفارهم من صنع أيديهم، وأن توراتهم المزعومة مخالفة للتوراة الصحيحة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام نورًا وهدى للناس، وقد وجدت هذه الاضطرابات في النصوص والاختلاف في التأويل صدى لدى اليهود والمعاصرين حيث تأتي أصدق شهادة على لسان السيدة مريم جميلة «المهتدية للإسلام» حيث تخبرنا باعتقاد والدها وأفراد أسرتها وجميع أصدقائهم الذين (يهزءون من أي تفكير في الآخرة، ويقولون بأنها خرافة محضة وأن الإيمان بيوم القيامة والجزاء في الجنة والنار ضرب من الأفكار البالية من مخلفات العصور القديمة)(٣).

ثم تخبرنا بما هو أعجب وأدعى إلى التفكير والنظر في تطور هذه العقيدة في أذهان

---

(١) الأسفار المقدسة ص٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص٢٩.

(٣) رجال ونساء أسلموا جـ١ ص٥١ وذكرت أن فلسفة والدها كانت تتلخص في أن على الواحد منا أن يتجنب التفكير في الموت وأن يتمتع بمباهج الحياة بأقصى ما يستطيع.

الصهاينة وارتباطها بفكرة إنشاء إسرائيل، فقد زعم أحد الأحبار بأنها (تعني حق اليهود الباطل في العودة إلى فلسطين)[1].

* * *

---

(١) المرجع نفسه ص٣٩ والحبر هو إبراهيم إسحاق رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة نيويورك، الذي زعم أيضًا بأن الإسلام مشتق من اليهودية.

الأنبيـــاء

تنسب الأسفار لبعض الأنبياء -كما يذكر الدكتور وافي- أعمالاً قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته، ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس، كالقصص المفتراه عن إبراهيم ولوط وداود ونوح عليهم السلام[١].

ومن جهة أخرى يتوسع اليهود -لا سيما الذين لا يلتزمون النصوص المقدسة- في دائرة النبوة والأنبياء، ويدخلون فيها كل من هب ودب، فيرون في (الكهنة والأحبار الذين تلوا الأنبياء الآخرين؛ دانيال واستير وعزرا ونحميا وملاكي، استمرارًا للوحي والنبوة).

ويضيف الدكتور حسن ظاظا إلى ذلك قوله: (بل إن كثيرًا من العلمانيين اليهود ممن ألهبت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة يبقون باب النبوة هذا مفتوحًا حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتزل أيضًا)[٢].

كذلك فقد أنكروا نبوة نبينا محمد ﷺ ولكنهم لم يفلحوا -ولا أفلح غيرهم- من النيل منه مهما اختلقوا من أكاذيب وافتراءات؛ لأنها تتصدع وتنهار أمام شخصيتهم وأخلاقه التي تسمو على المطاعين والترهات لكل من درس سيرته بتجرد ونزاهة، بل يتضح الإسلام في دائرته الواسعة -كدين وحضارة- مرتبطًا بشخصيته أوثق ارتباط، إذ

---

(١) الأسفار المقدسة ص٤٠/٤٨، ومما يذكر أيضًا أن تاريخهم ازدحم أيضًا بالأنبياء المحترفين الذين ازدادوا زيادة كبيرة جعلت الجيل الواحد يشهد أكثر من ٤٥٠ من ذلك الصنف، يُنظر كتاب المهندس أحمد عبد الوهاب «النبوة والأنبياء» مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) ص٥-٦ من كتاب الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه، دار القلم، دمشق ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م دار العلوم، بيروت، ومما يذكر في هذا الصدد أن يهود نيويورك قدموا إلى «روزفلت» ميدالية ذهبية نقش على أحد وجهيها صورته، وعلى الوجه الآخر النجمة السداسية التي تحمل في وسطها عبارة الإهداء تقول: الرفاة والحكمة لفرانكلين روزفلت نبينا الجديد: الذي سيعيدنا إلى الأرض الموعودة في ظل خاتم سليمان بن داود، وكان روزفلت يهوديًا واسم عائلته روزفلت **Rosenvelt**، فؤاد الرفاعي، ص٨٠ من كتاب النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، ط. دار المجتمع، الكويت سنة ١٤٠٧هـ.

يتضح أيضًا صدق نبوته إذا ما استخدمنا منهج المقارنة بهذه الرؤية الجامعة؛ لأن شخصيته وسُنَّته ليست بمعزل عن شريعة الإسلام وأمة الإسلام؛ لأنهما من آثاره الباقية ﷺ. وهذا ما فعله ابن تيمية بمنهجه المقارن الموسع المتضمن لهذه الشُعب كلها؛ بدأ بسرد مجمل مبينًا بعده تفاصيل ما أجمله، فقال: (وسيرة الرسول ﷺ من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات)[1]، وفصَّل بعد ذلك حيث أورد أن نسبه من صميم سلالة إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وقد دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولًا منهم.

وكان عليه الصلاة والسلام أكمل تربية ونشأة، ولم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وكان أميًّا من قوم أميين، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ومع هذا فإنه عندما أكمل أربعين سنة أتى أمر هو أعجب الأمور وأعظمها، فجاء بعجائب

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح جـ٤ ص٨٠ مطبعة المدني، بدون تاريخ، كذلك لا ينبغي إغفال بشارات التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ التي ينكرها اليهود والنصارى عنادًا، منها ما ورد في سفر التثنية: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران)، ينظر كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، لإبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، من ص٣٥ إلى ٤٩، وكتاب النبوة والأنبياء للمهندس أحمد عبد الوهاب، من ص١١٩: ١٦٢ على سبيل المثال لا الحصر، ولعل أبرز الكتب التي عالجت نبوءات الكتاب المقدس بإسهاب هو كتاب «محمد ﷺ» تأليف البروفسور عبد الأحد داود، المهتدي للإسلام، ترجمة فهمي شما ومراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م وعن التبشير برسول ﷺ قال الأستاذ محمد قطب: وجاء الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام: (يأتي من بعد الفاراقليط) وهذه كلمة يونانية معناها الحمد، أي إنها مشتقة من «أحمد» وقد أبوا أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا لكي تظل غير مفهومة للقارئ، ولكيلا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح عليه السلام وقد مر الزمن، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد ﷺ، وفي عام ١٣٦٥هـ ١٩٤٥م نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها: (عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد ﷺ، ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور، ص١١٦ من كتاب علم التوحيد، للصف الثاني الثانوي، محمد قطب، الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية ط. ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الآيات وأكمل الشرائع، وظهر دينه بالعلم والحجة وباليد والقوة، واتبعه ضعفاء الناس لا لرغبة ولا لرهبة، وعاداه أهل الرياسة وآذوه وآذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون[١].

وعندما اجتمع في أحد مواسم الحج بأهل يثرب وكانوا قد سمعوا من جيرانهم اليهود عنه آمنوا به واتبعوه، فهاجر هو وأصحابه إليهم، ثم أُذن له في الجهاد، ثم أمر به، فقام بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها في جميع حالاته، وعندما مات ﷺ لم يخلف شيئًا إلا بغلته، وسلاحه ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير، وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه[٢]، وبعد هذه الأوصاف التي أوجزناها نقلًا عن ابن تيمية يأتي إلى المقارنة بين عقائده وشريعته والعقائد والشرائع الأخرى.

لقد جمع محاسن ما عليه الأمم، ففي العقيدة والتوحيد لا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب، وقس على ذلك العبادات والحدود والأحكام، وسائر الشرائع، وكلها أفضل وأرجح، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه[٣].

وينوه ابن تيمية بفضائل أمته ﷺ من حيث الشجاعة والجهاد في سبيل الله والسخاء والبذل، وكلها تعلموها منه، دون اتباع كتاب قبله، مثلما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة، وآمنت أمته بالرسل والأنبياء قبله، وآمنت بجميع الكتب المنزلة، كما أمرهم، ولم يستحلوا أخذ شيء من الدين من غير ما جاء به، ومن أدخل في الدين ما ليس منه مثل أقوال فلاسفة اليونان والفرس أو الهند أو غيرهم كان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع، وبالرغم من التنازع الذي حدث بين المسلمين إلا أنهم اتفقوا على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا ودين محمد ﷺ خصوصًا، ومن خالف هذه الأصل كان عندهم ملحدًا

---

(١) المرجع نفسه ص٨١ مختصرًا.
(٢) المرجع نفسه ص٨٢.
(٣) المرجع نفسه ص٨٣.

مذمومًا[١]، وينتهي شيخ الإسلام في الختام إلى بيان أن كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: «**إني رسول الله**»[٢] ﷺ.

وبعد ،،،

هذه هي معالم المنهج الموسع المستخدم بواسطة شيخ الإسلام، وسنعود إلى تطبيق بعض شُعبه بعد حديثنا عن الديانة النصرانية؛ لأن أتباعها أيضًا لا يقرون بنبوته...

* * *

(١) المرجع السابق ص٨٥.

(٢) المرجع نفسه ص٨٦.

الفصل السادس
النصرانية

تمهيد

لم ينقطع الحجاج العقلي مع أهل الكتاب منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

واستمرت المحاورات والمناقشات - وما زالت - تشتد حينًا وتضعف أخرى، ولا يكاد يخلو عصر من المساجلات الشفوية والمدونة[1]، غير أننا نعيش في عصر تفرد بمظاهر جديدة خلت منه العصور الماضية[2] فقد تحولت فيه اليهودية إلى دين سياسي كما بينَّا آنفًا، كذلك فإن النصرانية قد دخلت نفس المرحلة، أي اكتساب النفوذ السياسي بإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر في ١٥/ ٥/ ١٨٩١م (إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث وأن تدفع القوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية)[3].

كذلك صاحبت موجة الاستعمار موجات التبشير، حتى وصفت هذه المرحلة المعاصرة بأنها امتداد للحروب الصليبية في العصور الوسطى، ولكن في أثواب جديدة أشد وأخطر من سابقتها، إذ توالت الحملات على الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ بأقلام

---

(١) من أشهرها في العصر الحاضر محاورات الأستاذ أحمد ديدات مع رجال الدين النصارى، ومنها محاورته مع القس الأمريكي سوجارت.

(٢) وأبرزها اتفاق اليهود والنصارى في عدائهم للإسلام والمسلمين، فقد عم الفرح والسرور أوربا وأمريكا على أثر هزيمة المسلمين العرب في حرب يونيو ١٩٦٧ بينما لا ننسى مسئوليتها عن إنشاء إسرائيل «٤٧/ ٤٨ من كتاب رسالة البابا بولس السادس، د/ عبد الودود شلبي» ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م.

(٣) سلوك المالك في تدبير الممالك جـ١ ص٤١ تحقيق وتعليق د/ حامد ربيع، حيث يسجل أيضًا أنه في نفس الوقت يلاحظ تقييد الدلالة السياسية للدين الإسلامي وإبعاده بصورة أو بأخرى من الحركة السياسية ومن مفاهيم الصراع السياسي، نفس المصدر ص٤٤.

حاقدة لا تبغي الحق بقدر ما تبغي الإساءة والطعن [(١)].

وها نحن أمام خيوط عدائية تشابكت في شكل استعمار عسكري وتشويه للإسلام وحملات تبشير، ومن ثم فإنه من التبسيط المخل وصف كل هذا بأنه مجرد «غزو ثقافي».

كلا إنه تكتل ذو أبعاد دينية ونفسية وتاريخية وثقافية، يحمل برمته طابع الاصطدام والتحدي الذي لم ينقطع بين الحضارتين؛ الغربية المسيحية، والحضارة الإسلامية.

يقول الدكتور حامد ربيع: (هذه الرهبة التي ترسبت في ذهن القيادات الأوروبية تعود إلى بداية العصور الوسطى، وظهرت خوفًا من الدولة العثمانية، يرتبط هذا الخوف بعملية تشويه الحقيقة الإسلامية ... والحضارة الأوربية استندت دائمًا إلى كبرياء شكلي، وهي في هذا وريثة الحضارة الرومانية؛ حضارة القوة والغطرسة، عقدة الإسقاط تأبى إلا إضفاء عيوب الذات على الغير، وتأتي الحركات التبشيرية لتكمل هذا التطور؛ تشويه الإسلام) [(٢)].

الأمة الإسلامية أمة دعوة

ولكن الحق أننا أمة داعية، ولسنا أمة معتدية رسالتنا الهداية إلى الحق لا السيطرة والاستعلاء وقهر الشعوب، وصفحات تاريخنا أنصع بياضًا من أية صفحات أمة أخرى، فلم تتعرض جيوشنا إلا لحماة الظلم ومانعي الدعاة من أداء رسالتهم، وكانت الحروب سجالاً بين جندنا وجند قاهري الشعوب الذين يقفون عقبة في سبيل الهداية، فلم نتعرض للسكان الآمنين المدنيين شيوخًا ونساءً وأطفالًا ورهبانًا في صوامعهم.

يقول الجويني: (ابتعث الله محمدًا ﷺ إلى الثقلين، وحتَّم على المستقلين بأعباء شريعته دعوتين:

---

(١) وتعدى الأمر إلى ممارسة الطعن أثناء حملات الزيارات الشخصية، يقول الأستاذ أحمد ديدات: (كنت وأصدقائي هدفًا دائمًا لخريجي هذا المعهد -أي معهد تخريج الوعاظ النصارى- فلم يكن يمر يوم إلا ويضايقنا فيه هؤلاء بإهاناتهم للإسلام، والنبي ﷺ والقرآن. ص٨٥ من كتابه «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.

(٢) الإسلام والقوى الدولية ص٩/ ١١، ط. دار الموقف العربي ١٩٨١م.

إحداهما: الدعوة المقرونة بالأدلة والبراهين، والقصد منها إزالة الشبهات وإيضاح البينات.

والأخرى: الدعوة القهرية المؤيدة بالسيف المسلول على المارقين الذين أبوا واستكبروا بعد وضوح الحق المبين)[١].

من هذا الفهم الفقهي الصحيح لرسالتنا والتطبيقات الواقعية المطابقة لحقائق التاريخ يحق لنا أن نتألم ونمتعض مما يلاقيه العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية من روح عدائية، تظهر آثارها على أمتنا وشعوبنا الآن في إندونيسيا والفلبين وتايلاند والهند والحبشة والسودان وبلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا وغيرها من البلدان التي يستهدف فيها المسلمون لألوان من العسف والظلم وكبت الحريات وحملات التنصير.

ومع هذا كله فإننا سنتخلص بقدر طاقتنا من آثارها على النفس بالصبر والمثابرة، ونقيم منهجنا العلمي في عرض العقائد النصرانية وشرحها في ضوء قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]، محتكمين إلى المناقشة الهادئة بالحجج العقلية والطرق المنطقية لتوعية أبنائنا بحملات التشهير التي تتجاوز أحيانًا كل الحدود، ونأمل أيضًا أن نلقى آذنًا صاغية وقلوبًا خالية من التعصب وراغبة في معرفة الحق واتباعه، لا سيما بعد انحياز العالم الغربي لليهود مع استخدام التبشير؛ لاستمرار استعمار العالم الإسلامي، فإن العلاقة وثيقة بينهما (وخاصة ما يصدر عن العالم الأنجلو سكسوني البروتستانتي الذي يخضع بحكم تراثه الديني والفكري إلى التأثير اليهودي وتفسيراته المتعسفة لنبوءات العهد القديم، حيث تدعي إسرائيل قيامها على مزاعم دينية يؤمن بها البروتستانت إيمانًا أعمى)[٢].

---

(١) غياث الأمم في التياث الظلم ص١٥٣، ١٥٤ تحقيق: د/ فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي، ط. دار الدعوة بالإسكندرية ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

(٢) تقول الباحثة ريجينا الشريف: (كانت المبادئ البروتستانتية التي وضعتها حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر مغايرة تمامًا للمبادئ الكاثوليكية السابقة. وتوصف هذه الحركة بأنها بعث «عبري» أو «يهودي» تولدت عنه وجهة نظر جديدة عن الماضي والحاضر اليهودي وعن مستقبله =

التعريف بالأناجيل

تعتبر الأناجيل في النصرانية -كما يقرر الشيخ أبو زهرة- بمكانة القطب والعماد، فهي تشتمل على أخبار شخصية المسيح عليه السلام من وقت الحمل إلى وقت الصلب في اعتقادهم، وقيامه من قبره بعد ثلاث ليال ثم رفعه بعد أربعين ليلة، كما تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء[1].

وقد كثرت الأناجيل كثرةً عظيمة كما أثبت ذلك مؤرخو النصرانية، (ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي -أو أوائل القرن الرابع- أن تحافظ على الأناجيل الصادقة -في اعتقادها- فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل إبان ذلك)[2].

أما عن طريقة اختيار هذه الأناجيل فلا تخلو من طرافة، حيث يروي التاريخ أن قُسطنطين الأكبر جمع ثلاثمائة من القساوسة فوضعوا الأناجيل تحت طاولة العشاء المقدس، ودعوا الله أن تصعد الأناجيل الصادقة فوق الطاولة، ويبقى الزائف منها فصعدت الأناجيل الأربعة الحالية فوق الطاولة، وأصدر قسطنطين قرارًا باعتبار غيرها زائفة، وأمر بإحراقها وإعدام كل من احتفظ بنسخة منها[3].

ويقول موشيم في كتابه «تاريخ الكنيسة»: (لقد كانت هذه الأحكام ظالمة غير معقولة، حتى إن الملك نفسه نَدمَ عليها بعد ذلك، فقد أصدر الملك قسطنطين حكمه بإحراق كتب فرقة آريوس في ذلك الموكب ونفيهم من البلاد؛ لكنه بعد بضعة أعوام وفي ٣٣٠م حين قالت أخت الملك وهي على فراش الموت: إن قراره ضد هذه الفرقة كان

= بكل خاص. ص٢٩ من كتاب «الصهيونية غير اليهودية- جذورها في التاريخ الغربي» ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، الكويت ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

وفي مجال تطبيق العقيدة عل الساحة السياسية صرح الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أن: (الدولة إسرائيل هي أولًا وقبل كل شيء (دعوة إلى الأرض التوراتية التي أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين، إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره) نفس المصدر ص٢٧٥.

(١) محاضرات في النصرانية ص٤٨/ ٤٩ ط. الرئاسة للبحوث العلمية بالرياض ١٤٠٤هـ.

(٢) المرجع نفسه ص٤٩.

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة ص٦٦ لأحمد إدريس، دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

ظالمًا، وقد أصدره بناء على تعصب أعداء آريوس لا على أساس الصدق والحق ألغى الملك قراره هذا؛ ولكن آريوس كان قد مات قبل أن يصل إليه قرار العفو)[١].

ومهما يكن من أمر، فلا ينبغي أن تُنسينا هذه الأحداث المذهلة الوقوف على الوثائق الأصلية التي اعتمدت عليها الأناجيل، وهل تحمل فعلًا كلمة الرب؟

الأصول المخطوطة وتواريخ تأليفها

يذكر القس سوجارت في مجال الإثبات أنه يوجد ما يقرب من أربعة وعشرين ألف مخطوط يدوي قديم من كلمة الرب من العهد الجديد وحده، وأقدمها يرجع إلى ثلاثمائة وخمسين عامًا بعد الميلاد، والنسخة الأصلية أو المنظورة أو المخطوط الأول لكلمة الرب لا وجود لها[٢].

ولكن الشيخ أحمد ديدات أثبت أن ذلك ليس دليلًا على أنها من عند الله تعالى، إذ ليس بين هذه المخطوطات -على كثرتها- اثنان متماثلان باعتراف علماء النصارى أنفسهم، فالإنجيل الذي بين أيديهم ليس إنجيل عيسى عليه السلام الذي هو من عند الله، وعندما تتفحص هذه الكتب تجد العبارات الآتية المذكورة بنسخة الملك جيمس وهي:

(الإنجيل وفقًا للقديس متّى)

(الإنجيل وفقًا للقديس مرقس)

(الإنجيل وفقًا للقديس لوقا)

(الإنجيل وفقًا للقديس يوحنّا)

أضف إلى ذلك -كما يذكر رحمة الله الهندي- أنه توجد في زمان تأليف الأناجيل الأربعة روايات واهية ضعيفة بلا سند، يُعلم منها أيضًا أنه لا سند عندهم لهذه الكتب، معتمدًا على ما أثبته «هورن» في تفسيره المطبوع سنة ١٨٢٢م بالنص أن (الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة أبتر وغير معنية،

---

(١) نقلًا عن المصدر السابق.

(٢) المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت ص١٢١، جمع وترتيب د/أحمد حجازي السقا، وتقديم الشيخ محمد الغزالي، مكتبة زهران بالأزهر، بمصر ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

لا توصلنا إلى أمر معين ...) ثم أخذ يحدد تواريخ تأليف الأناجيل حسب الاحتمالات، فقد أُلف الأول سنة ٣٧ أو ٣٨ أو ٤١ أو ٤٣ أو ٤٨ أو ٦١ أو ٦٢ أو ٦٣ أو سنة ٦٤ من الميلاد، والثاني سنة ٥٦ أو ما بعدها إلى سنة ٦٥، والأغلب أنه أُلف سنة ٦٠ أو سن ٦٣، وأُلف الإنجيل الثالث سنة ٥٣ أو ٦٣ أو ٦٤، وأُلف الإنجيل الرابع سنة ٦٨ أو ٦٩ أو ٧٠ أو ٩٧ أو ٩٨ من الميلاد [1].

(١) كتاب إظهار الحق جـ١ ص١٥٧.

صلة الأناجيل بالتوراة

وقبل الحديث عن الأناجيل الأربعة عند النصارى يحسن بنا أيضًا شرح العلاقة بينها وبين التوراة، وموقف كل من اليهود والنصارى منها، فإن اليهود (يؤمنون بأن العهد القديم أو التوراة وحدها هي كلام الله، ولا يعترفون بالعهد الجديد، أما المسيحيون فيعتبرون العهد القديم كتاب الشريعة، والعهد الجديد عهد الفضل والكفَّارة)[١].

وتعليل ذلك أن الأناجيل خلت من الأحكام التشريعية، واعتمادًا على الرواية المنسوبة للمسيح عليه السلام أنه ما جاء لينقض الناموس -أي شريعة موسى- بل ليكمله، (وباستثناء الأمور التي يرى المسيحيون أن الإنجيل قد نسخها من التوراة؛ فإنهم يؤمنون ببقيتها ويعتبرونها كتابًا مقدسًا إلهيًّا لا غنى عنه في التشريع)[٢].

أما عن تاريخ التدوين فيذكر كولمان في كتابه «العهد الجديد» أن الإنجيل ظل خلال ثلاثين أو أربعين سنةً موجودًا بشكل عام بصور شفوية، وكانت الصياغة الشفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح عليه السلام ووعاظ آخرين، ثم جمعت هذه الروايات الشفوية وكُتبت[٣].

ويقول الأب كنغسر: لا ينبغي الأخذ حرفيًّا بالأناجيل، فهي «مكتوبة بالمناسبة» أو «للنضال» أوردها الكتاب خطيًّا روايات جماعاتهم عن المسيح[٤].

ألا يلفت نظرنا تعبيراته عن الكتابة بالمناسبة وللنضال؟ لا شك أنها تُخفي وراءها عوامل نزاعات دينية وخلافات عقائدية؛ إذن لا بدَّ لاستكمال حلقات البحث والتمهيد

---

(١) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص٦١، ط. دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

(٢) المرجع نفسه: ويورد ابن كمونة اليهودي مضمون عقيدتهم في هذا الصدد، حيث قالوا: نحن مؤمنون بكل ما جاء في التوراة وفي آثار بني إسرائيل التي لا مدفع في صدقها، لشهرتها وعلانيتها في الجماهير العظام، ونؤمن بأنه في آخريات أمرهم وعقائبه تجسمت اللاهوتية وصارت جنينًا في بطن عذراء من أشرف نساء بني إسرائيل من نسل داود ... «من كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث: اليهودية، المسيخية، الإسلام» لسعد بن منصور بن كمونة اليهودية «القرن السابع الهجري» ط. دار الأنصار بالقاهرة، تقديم د/ عبد العظيم المطعني.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص٧٦/ ٧٧ باختصار.

(٤) المرجع نفسه ص٧٨.

لفهم واستيعاب نصوص الأناجيل، ومن ضرورة التعريف بالشخصية البارزة في تاريخ المسيحية المبكر، والتي ترتبط بها العقائد والطقوس المسيحية -وهو بولس أو شاول- كذلك ضرورة إلقاء الضوء على المعارضة الشديدة التي لقيها من أتباع المسيح عليه السلام والتي لولا الإلمام بها لما استطعنا أن نقف على البواعث الحقيقية لكتابة الأناجيل.

أ- كلمة عن بولس

لا بد للباحث في النصرانية من الإحاطة بشخصية «بولس» الذي حول مجرى عقائدها وعبادتها عما جاء به عيسى عليه السلام إلى ديانة أخرى مخالفة تمامًا، وصح نسبتها إلى «بولس» بدلًا من نسبتها إلى المسيح عليه السلام.

فمن هو بولس أو شاول؟

إنه يعرفنا بنفسه بقوله: (أنا يهودي فريس بن فريس، على رجاء قيامة الأموات) وكان شديد العداء للمسيحيين، فأخذ يعمل فيهم قتلًا، ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن ويسطو على الكنيسة[(١)].

وقد تضمن سفر الأعمال صنوفًا من ألوان التعذيب والاضطهاد والتقتيل الذي فعله بالمسيحيين حتى اعترف بنفسه في نصوص كثيرة؛ منها ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين مخاطبًا اليهود: (كنت غيورًا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت، مقيدًا ومسلمًا إلى السجون رجالًا ونساءً كما يشهد لي أيضًا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للأخوة إلى دمشق، ذهبت لآتي

---

(١) المسيحية للدكتور/ شلبي ص٧٢. وظل اليهود يتحينون الفرص لاختراق الكنيسة عن طريق التحول إلى المسيحية، ولعل من أشهر الحوادث المعبِّرة عن ذلك هو تحول عائلة بيرليوني في القرن الحادي عشر إلى المسيحية، وخرج منها البابوات «أناسوت» الثاني وغريغوري السادس والسابع. ص٨١ وص ٤٨ من كتاب «بابوات من حي اليهود» ... وما يُذكر أن غريغوري السابع (وكان يدعى «هلد براند» حينما كان يهوديًّا وقبل أن ينتهي به المطاف إلى أن يصبح الحبر الأعظم للنصارى) ... هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة «الكفار» المسلمين، وذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل) «المسيح الدَّجال، سعيد أيوب ص١٨٤» ط. دار الاعتصام بمصر، سنة ١٩٨٩م.

بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا) [١].

ويعطينا الأستاذ إبراهيم خليل بعض اللمحات المميزة التي تفرق بينه وبين المسيح عليه السلام من حيث المباحث الدينية وطرق الدعوة، فقد تميزت طريقة المسيح (بطابع السمو والبساطة حتى يفهما لأول وهلة -الزارع والصانع والمثقف والأمي والرجل والمرأة دون أدنى إجهاد للذهن، وعندما سئل كيف يرث الحياة الأبدية؟ أجاب المسيح عليه السلام: إن الدين هو حياة وقوة، وليس مجرد تعاليم الدين هو أن يعيش المرء في إطار أحكام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقترف نواهيه) [٢].

أما أسلوب بولس المدعو رسولًا فإنه يعبر عنه في هذا النص: (فإني إذ كنت حرًّا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ... إلخ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء، صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال) [٣].

ويستخلص من تحليله لأقواله وتعاليمه أنه كان متعمقًا في معرفة الفلسفة اليونانية، فكانت سارية في كتاباته، هذه الفلسفة التي لم ترو قطُّ عن المسيح عليه السلام [٤].

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه أشاع فكرة التمييز العنصري أيضًا، وهي تناقض مبادئ المسيح، وها هو نداء بولس إلى أهل غلاطية: (أطرد الجارية وابنها؛ لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة، إذن أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة). فأين هذا من قول المسيح (أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم) [٥].

ويصف لوقا كيف تحول بولس إلى المسيحية فيقول: (وعندما كان بولس قريبًا من

---

(١) نقلًا عن محاضرات في النصرانية ص٨٨.

(٢) نقلًا عن محاضرات في النصرانية ص٨٨.

(٣) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص١٢١.

(٤) المرجع نفسه ص١٢٣.

(٥) المرجع نفسه ص١٢٤.

دمشق، فبغتةً أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض، وسمع صوتًا قائلًا: شاول، شاول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال: وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له: قم وكرز بالمسيحية) وكان ذلك حوالي سنة ٣٨م.

وبعد هذه الواقعة التي تدعو حقًّا إلى التأمل ثم العجب للتغير المفاجئ المذهل في شخص بولس وعقيدته ودعوته تأتي في قصة لوقا جملة ذات بال، وتوصف -بحق كما وصفها الدكتور شلبي- أنها غيَّرت وجه التاريخ، وهي (وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله) [(١)].

«ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل»

ومنذ ذلك الحين، أخذ يدعو إلى المسيحية بحمية ونشاط، ويستخدم مواهبه من الذكاء وقوى الفكر، والقدرة على التأثير في الجماهير؛ للسيطرة عليهم وانتزاع الثقة به، واستطاع بمواهبه ونشاطه وحركته الدائبة في الدعوة والخطابة والكتابة أن يفرض رأيه على المسيحيين (فيعتنقوه دينًا، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها) [(٢)].

أما وجه العجب في تحول بولس من حالة إلى نقيضها، فهذا الذي يجعلنا نشارك فيه رأي الأستاذ أبو زهرة رَحِمَهُ اللهُ حيث عبر عن ذلك بأسلوبه البليغ، ربما لا يثير العجب؛ لأن له أشباه ونظائر، (بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة في الدين الذي كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له مشابه ولم يُعهد ذلك في أنبياء ورسل قطُّ، وهذه توراة اليهود وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما وردها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولًا بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي، وصفاء نفس يجعله أهلًا للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها، لا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في

---

(١) المسيحية للدكتور شلبي ص٥٣.

(٢) محاضرات في النصرانية ص٩٠.

عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه)[1].

ب- النزاعات الدينية

يوجهنا موريس بوكاي إلى أهم نزاع حدث بين أتباع المسيح ﷺ منذ رفعه وحتى منتصف القرن الثاني، حيث حدثت معركة بين اتجاهين؛ أي بين ما يمكن أن يسميه المسيحية البولسية «اليهودية -المسيحية»، ويقصد بالأولى المسيحية من وضع بولس، والثانية المسيحية كمذهب يهودي، حيث أخذت الأولى -بكثير من التدرج- مكانة الثانية وانتصرت عليها.

ويحدثنا التاريخ بأن «جماعة الرسل الصغيرة»، التي كانت تشكل مذهبًا يهوديًا أمينًا على الممارسات، ومراسم المعبد، هذه الجماعة انفصلت عن بولس تمامًا، تصادمت معه بما يعرف بـ «حادث إنطاكية ٤٩» (فقد أسقط بولس الختان، والسبت، ومراسم المعبد بالنسبة إلى اليهود، وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسي الديني إلى اليهودية لتنفتح على الوثنيين)[2].

وانتهى الأمر بهذه الجماعة من اليهود والمسيحيين إلى اعتبار بولس خائنًا، ولديهم وثائق تصفه «بالعدو» وتتهمه « بالازدواجية المداهنة» وكان رئيس الجماعة إذ ذاك يعقوب قريب المسيح وأخذت أسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس «اليهودية- المسيحية» (وخلف يعقوب سيكون سمعان بن كليوفاس ابن خالة المسيح)[3].

وكانت رسالة «اليهودية- المسيحية» طيلة القرن الأول منتشرة في كل مكان؛ أي على الساحل السوري الفلسطيني من غزة حتى أنطاكية، وفي آسيا الصغرى كذلك، وكانت روما أيضًا مركزًا مهمًا لهم.

---

(١) محاضرات في النصرانية ص٩٠.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص٧٠/ ٧١ باختصار، ترجمة الشيخ حسن خالد ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) المرجع نفسه ص٧١.

ويستخلص موريس بوكاي من الواقعات التاريخية والنزاع بين الطائفتين مغزى مهمًا، حيث يتضح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر حوالي سنة ٧٠م؛ أي في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألد الخصام، ولما كان «اليهود المسيحيون» هم المسيطرون حتى ٧٠ م، ثم ضعفوا بعد ذلك وقل نفوذهم -فإن ذلك يفسر لنا كيف ظهرت الأناجيل الأربعة فيما بين هذا العام- وقبيل ١١٠م- ويرى الأب كننغر بأنه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم؛ كتابات القتال هذه(١).

برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات الأسلوب البولسي بعد أن انتصرت نهائيًا قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية «القانون» الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة(٢).

ويزيدنا الدكتور أحمد شلبي إيضاحًا عن حركة الاضطهاد الموجهة إلى المسيحيين الأصليين أتباع عيسى عليه السلام فيذكر أن المسيحية التي خرجت ظافرة لم تكن مسيحية عيسى بل مسيحية بولس، ومسيحية الفلسفة الإغريقية، (ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألوانًا من العنت والاضطهاد)(٣).

وبعد فإذا كانت هذه هي العوامل التي أحاطت تاريخيًا بكتابة الأناجيل فإن محاولات التنقيح ما زالت قائمة على قدم وساق، حيث هناك (ادعاءات كثيرة لتناقضات في الكتاب المقدس لم يستطع العلماء حلها حتى الآن، وفيها ما يسر كل كافر ملحد، فهناك بعض الصعوبات النصية التي ما زال العلماء يتصارعون معها إلى يومنا هذا، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من كان جاهلًا بالكتاب المقدس)(٤)، هذا ولعل التعريف بنسخة الملك جيمس تقرب إلينا فهم هذه المحاولات.

---

(١) المرجع نفسه ص٧٣.

(٢) المرجع نفسه ص٧٣.

(٣) مقارنة الأديان «٢- المسيحية» للدكتور أحمد شلبي، ص٥٠، ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

(٤) الحقيقة المجردة، يوليو ١٩٧٥م نقلًا عن «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» ص٧٧.

كتاب طائفة البروتستانت

نسخة الملك جيمس

وصفت هذه النسخة بأنها (أنبل إنجاز في النثر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١م أعجبوا ببساطتها، وسموها بقوتها و نغماتها المرحة ... وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة، فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية)[١].

ومع هذا فإن علماء اللاهوت الذين راجعوها وساعدهم في إخراجها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية هم أنفسهم قرروا (أن نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جدًّا، وإن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية)[٢].

مع العلم بأن هذه النسخة أقرها البروتستانت بعد حذف سبعة كتب من أصل كتاب الرومان الكاثوليك، باعتبارها كتب مشكوك في صحتها ويسمونها «الأبو كريفا **Apocrypha**».

ويذكر القسيس سوجارت سبب الاستبعاد بأن البروتستانت يؤمنون بأن الأسفار المستبعدة ليست وحيًا فيقول: (وهناك بعض الأسفار، تعرف «بأبو كريفا» وهي لم توضع مع أناجيل البروتستانت؛ ولكن الكاثوليك يضعونها مع أناجيلهم لأسباب خاصة بهم، والسبب الذي يجعلنا لا نضم هذه الأسفار إلى الإنجيل هو ببساطة: أننا نؤمن بأنها ليست وحيًا، وعندما تقوم بفحصها تجد أمامك أسبابًا كثيرة تكفي لإظهار أنها ليست وحيًا)[٣].

وعندما نهض الشيخ أحمد ديدات ليدلي بدلوه في المناظرة ألقى الضوء على كلمة

---

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ للداعية أحمد ديدات ص١٩، ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.

(٢) المرجع نفس ص٢٠، أما نسخة الكنيسة الكاثوليكية من الإنجيل فهي نسخة «وي أوليز» والمقصود بنسخة الملك جيمس تلك التي أهداها البطريرك «كيرلس لوكا» بطريرك القسطنطينية إلى الملك جيمس الأول «١٦٠٣/ ١٦٢٥م».

(٣) المناظرة الحديثة ص١٢١.

«أبو كريفا» واعتبرها من المصطلحات الفنية التي يستخدمها القساوسة بينها لا تعرف الجماهير المسيحية معناها! (ومعناها: مشكوك في أمره «ضعيف» ليس أهلًا لأن يوضع في كتاب الله؛ ولهذا السبب استبعدها البروتستانت واعتبروها تلفيقًا)[(١)].

ثم أشار إلى نسخة إنجيل الملك جيمس باعتبارها النسخة المعتمدة وتساءل: (معتمدة ممن؟ ليس من الله تعالى... معتمدة من الملك جيمس... إنه هو الذي اعتمدها، وليس الله تعالى)[(٢)].

إنجيل متى

يصف بوكاي هذا الإنجيل بقوله: (يشغل إنجيل متَّى المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد، وهذا مثبت تمامًا؛ لأن هذا الإنجيل في صورة ما ليس إلا امتدادًا للعهد القديم إنه قد كتب ليعرف بأن عيسى عليه السلام يكمل تاريخ بني إسرائيل)[(٣)].

لذلك فقد كتب متَّى إنجيله بالعبرانية ليبشر اليهود بالمسيحية، أما عن تاريخ كتابته ومدى صحة نسبه إلى متَّى فإن بعض العلماء والنقاد (يميلون إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف متَّى... وأكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٨٥، ٩٠)[(٤)].

وحول ما يدور من علامات استفهام حول تاريخ تدوينه وترجمته ومعلوماتنا عن شخصية المترجم، وغير ذلك من بيانات ضرورية؛ لتوثيق نصوصه يقرر الشيخ أبو زهرة

---

(١) نفس المصدر ص١٣١.

(٢) المرجع نفسه ص١٣٢.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٨٠، ترجمة الشيخ حسن خالد، المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ﷺ ١٣٤، ويذكر أن متَّى يعتمد على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصًا شديدًا -يدعو إلى الريبة- على أن يثبت أن كثيرًا من نبوءات العهد القديم قد تحققت في شخص المسيح عليه السلام).

أن كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي[١].

كذلك يقرر الكاهن «جيمس كلسي» أن (التعاليم القديمة تعزو هذا الإنجيل إلى الحواري متَّى، هذا ما يقوله الناس؛ لكن العلماء في عصرنا الحاضر يرفض معظمهم وجهة النظر هذه)[٢].

وربما يعتمد في ذلك على ما يراه بعض الباحثين المسيحيين (أن الجزء الذي ألفه متَّى الحواري ضاع في زمانه، وأن ما بين أيدينا الآن ما يصرح مؤلفه فيه باسمه)[٣].

لذلك يتساءل الأستاذ أحمد ديدات متعجبًا (فإذا لم ينسب هذا الكتاب «بشارة متَّى» إلى الحواري متَّى، فكيف نقبله كلام الله؟) وهو يستند في نفي نسبة الكتاب إلى متَّى إلى رأي الأستاذ فيليبس وهو عالم اللاهوت بالكنيسة الإنجليزية الذي يقول: (لقد اعتمد الكاتب على بالـ **Q** هنا كلمة الغامضة التي ربما كانت مجموعة من التراث الشفهي) ويعني الـ **Q** هنا كلمة **Quelle** بالألمانية وتعني مصادر)[٤].

إنجيل مرقص

ومن الثابت تاريخيًّا أن مرقص لم ير المسيح عليه السلام، يقول عبد الله الترجمان: (وأما مرقص فما رأى أيضًا عيسى عليه السلام قطُّ، وكان دخوله في دين النصارى كذلك بعد رفع

---

(١) محاضرات في النصرانية ص٥٤.

ويذكر رحمة الله الهندي أن القدماء المسيحيين كافةً وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متَّى كان باللسان العبراني وفقد بسبب تحريف الفرق المسيحية، والموجود الآن ترجمته.. وجاء في انسكلوبيديا بويي (كُتب هذا الإنجيل في السنة الحادية والأربعين باللسان العبراني أو باللسان الذي ما بين الكلداني والسرياني، لكن الموجود منه الترجمة اليونانية، والذي يوجد الآن باللسان العبراني فهي ترجمة الترجمة اليونانية). كتاب «إظهار الحق» جـ١ ص١٥١.

(٢) المناظرة الحديثة ص١٥٥ أي بمعنى آخر: أن القديس متَّى لم يكتب البشارة التي تحمل اسمه، ص٤٦، هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص٦٩.

(٤) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص٤٦.

ويترجمها العقاد بمعنى الأصل، «عبقرية المسيح ص١٥٩» ط. كتاب اليوم بمصر سنة ١٩٩١م العدد ٣١٧.

عيسى وتنصر علي يد «بترو» أي بطرس الحواري)[١].

واختلف الباحثون حول الإنجيل المنسوب إليه، فمن قائل إن كاتبه هو «بطرس» رئيس الحواريين عن مرقص في مدينة رومية ونسبه إلى مرقص، ومن قائل إن مرقص ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس[٢]، (وليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين عن الأخرى فمن الذي كتبه؟)

ولم يقف التساؤل عند هذا الحد، بل تداعى إلى غيره، حيث ظهر أمام الدراسة النقدية لمضمون إنجيل مرقص سؤال آخر عن مصادره التي نقل عنها، فقد اعتبر الكُتَّاب المحدثون أن القسم الأخير منه عملًا مضافًا، يقول كولمان: (إن مخطوطات يونانية أكثر حداثة وبعض نصوص أضافت إلى هذا القسم خلاصة رؤى ليس لمرقص، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى).

ويرى الأب كننغر وهو عالم كبير في اللاهوت إنه بعد انتشار الكتابات المتقاربة لمتَّى ولوقا ويوحنا خلص العلماء إلى نتيجة مهمة عن مرقص، وهي أنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الإنجليين الآخرين، ويتضح من ذلك مدى الحرية التي كان يمارس بها الأسلوب الأدبي للسرد الإنجيلي حتى بداية القرن الثاني.

وعندئذٍ يعلق موريس بوكاي على هذه النتيجة بقوله في صيغة تعجب: (فيا له من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الأفكار من عالم كبير في اللاهوت)[٣].

إنجيل لوقا

نذكر أولًا ما اتفق عليه المؤرخون عن واقعة ثابتة تحقق منها العلماء المحدثون أيضًا، وهي أن لوقا (لم يدرك عيسى عليه السلام ولا رآه أبدًا إنما تنصر بعد رفع عيسى، وكان ممن

---

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ص٦٦ عبد الله الترجمان «القس انسلم كورميدا» تقديم وتحقيق وتعليق د/ محمود علي حماية، ط. دار المعارف ١٩٨٤م.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٨٦.

(٣) المرجع نفسه ص٨٧.

تنصر على يد بولس الإسرائيلي، وبولس لم يدرك عيسى ولا رآه، وكان أكبر أعداء النصارى)[١]، ويذكر الشيخ أبو زهرة أن الباحثين متفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ حوارييه[٢].

أما عن وصف إنجيله، فنجد أنفسنا أيضًا حيال عدة احتمالات وافتراضات تكاد تتساوى مع بعضها البعض، فيتعذر على الباحثين المدققين الاختيار بينها إلا بصعوبة بالغة، حيث يتوالى ظهور مشكلات أخرى بغير حل كما سنرى: فقد اختلف الباحثون في مكان مولده، وهل هو أنطاكي أم روماني؟ وهل اشتغل بمهنة الطب أم كان مصورًا؟

ويدعونا الاختلاف حول مهنته بالذات إلى التوقف لمناقشة من يرجح امتهانه لصناعة الطب؛ (لأن هذه المهنة لها قيمتها الخاصة؛ لأنها تلقي على حياة لوقا نورًا ساطعًا، فترينا إياه الرجل العلمي المدقق المحقق الرقيق الأسلوب الجميل الديباجة؛ لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة)[٣].

ولكن موريس بوكاي لم يأخذ بهذا الرأي الذي يشير أيضًا إلى أن (الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الإنجيل من دقة وصفه للمرضى)، ويرى أن هذا التقدير مُبالغ فيه؛ ولأن لوقا لم يعط وصفات من هذا النوع بالذات، والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل إنسان مثقف في زمانه[٤].

وبمراجعة الأسطر الأولى من إنجيل لوقا يتضح أنه يروي عن آخرين، بينما لم يكن هو من الشهود المعاينين، فقد قال ما يأتي:

(١) (إذ كان كثيرون قد أخذوا في ترتيب قصص الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا معاينين منذ البدء وخادمين للكلمة رأيت أنا أيضًا بعد أن أدركت جميع

---

(١) تحفة الأريب ص٦٤/ ٦٥.

(٢) محاضرات في النصرانية ص٥٨/ ٥٩.

(٣) محاضرات في النصرانية ص٥٨.

(٤) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص٨٨.

الأشياء من الأول بتدقيق أن أكتبها لك بحسب ترتيبها أيها العزيز تاوفيلس؛ لتعرف صحة الكلام الذي وعظت به)[١].

لهذا كان لوقا في نظر كولمان مؤرخ، وفي نظر الأب كننغر «قصّاص بارع»[٢].

ونظرًا لأن لوقا كان وثنيًّا اهتدى إلى المسيحية، فقد أشار كولمان في دراسته إلى تجاهله الآيات الأكثر يهودية لدى «مرقص»، وإبرازه لكلمات عيسى عليه السلام ضد كفر اليهود، في حين كان «متّى» يجعل المسيح يطلب من الرسل البعد عنهم. ويعلق موريس بوكاي على ذلك بقوله: (وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الإنجليين كانوا يقوّلون المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية، فيقدموا لنا -بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح- النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها)[٣].

وبالمقارنة بين سلسلة نسب المسيح عليه السلام عند لوقا ومتّى، تبرز إحدى أبرز التناقضات في الكتاب المقدس، فيقول الأستاذ ديدات: (من بين داود وعيسى أوصى الله لمتّى بتسجيل ستة وعشرين سلفًا فقط لابنه؛ ولكن لوقا الملهم أيضًا سجل واحدًا وأربعين سلفًا لعيسى)[٤].

إنجيل يوحنا

يصف الأستاذ أبو زهرة بقوله: (لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث؛ لأنه الإنجيل تضمنت فقراته ذكرًا صريحًا لألوهية المسيح عليه السلام)[٥].

---

(١) إنجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا «الفصل الأول» نقلًا عن كتاب «هل الكتاب المقدس كلام الله؟» لأحمد ديدات ص٨٣.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٨٧، وثاوفيلي هذا كما وصفه ابن البطريق رجل من عظماء الروم. وهناك من يقول: إنه كان مصريًّا لا يونانيًّا «محاضرات في النصرانية ص٥٩».

(٣) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص٧٥.

(٤) المرجع نفسه ص٨٨ ويقول: (وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من إنجيل لوقا وإنجيل متّى كان الدليل على ذلك).

(٥) محاضرات في النصرانية ص٦٠.

وكان الرأي المعتمد في العصور الماضية هو اعتبار يوحنا ابن خالة عيسى عليه السلام ويزعم النصارى أن عيسى حضر في عُرس يوحنا، وأنه حول الماء خمرًا في ذلك العُرس، وهذه أول معجزة ظهرت لعيسى، وأن يوحنًا لما رأى ذلك ترك زوجته، وتبع عيسى على دينه وسياحته[١].

ولكن لم يعد هذا الرأي مسلَّمًا به في العصر الحديث بعد إجراء التحقيقات والدراسات في الكتب المقدسة، حيث صححت كثيرًا من المعلومات الخاطئة السابقة وبدأ البعض يسأل (من هو الكاتب؟ إنه سؤال موضوع جدل؛ إذ الآراء تختلف كثيرًا في هذا الموضوع)[٢].

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ موريس فوردن ناظر مدرسة العلوم العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها، وقد صدق على شهادته خمسمائة عالم في جمعية المعارف دار المعارف الكبرى بباريس.

قال الأستاذ موريس: (وأما عن إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك أنه كتاب مزور أراد صاحبه أن يضاد الحواريين متَّى ويوحنا، وادَّعى أن هذا الكتاب المزور هو للحواري يوحنًا الصياد الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصًّا مع أن صاحبه غير يوحنا يقينًا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين ما نسبت إليه...)[٣].

---

(١) تحفة الأريب في الرد على الصليب، عبد الله الترجمان ص٦٦.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص٩٠.

(٣) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن ص٧٢، المستشار محمد عزت الطهطاوي، مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦م، كذلك أبدى شكه في صحة نسبة الأناجيل الثلاثة الأولى حتى مرقص ولوقا إلى من نسبت إليهم من الحواريين لدرجة تعادل الرفض تمامًا.

وقد عرض رحمة الله الهندي لحجج المنكرين لتصنيف يوحنا لهذا الإنجيل، ومن أهمها أن أرينيوس «وهو تلميذ بوليكارب الذي هو تلميذ يوحنا الحواري» ما قال في مقابلة المنكرين (إني سمعت من بوليكارب أن هذا الإنجيل من تصنيف يوحنا الحواري) كتاب «إظهار الحق» جـ١ ١٥٤/ ١٥٥.

ويرى الأستاذ محمد تقي العثماني بعد مراجعة مستفيضة لآراء العلماء ونتائج بحوثهم في مضمون هذا الإنجيل والملابسات الدائرة حوله، يرى أن المحرر هو أحد تلاميذ بولس (وزاد إليها من جاء بعده جملًا وعبارات كشفت عن كون المؤلف شاهد عيان لسيدنا المسيح عليه السلام)[١].

إنجيل برنابا «أحد الأناجيل غير المعترف بها»

قبل الحديث عن إنجيل «برنابا»، فإننا نحب توضيح موقفنا منه أولًا؟ فلسنا حريصين على الاسترشاد به لإثبات نبوة نبينا محمدﷺ، فلنا أدلتنا الكافية بذاتها، كذلك ندفع الزعم بأنه من تأليف المسلمين[٢]؛ لأنه ليس من عقائدنا ولا من مبادئنا اتباع طريقة «الغاية تبرر الوسيلة»، وإزاء ذلك فإن الإقرار بصحة هذا الإنجيل أو استبعاده لدينا سواء.

إن الحديث إذن عن إنجيل برنابا أدنى لقضية الخلاف العقائدي بينه وبين بولس، إذ يبدو من نصوصه أنه تحمله كثيرًا، ثم أعلن على الملأ أوجه الخلاف بعد أن طفح الكيل ولم يعد يحتمل الصبر عليه، وضمَّن ذلك صدر إنجيله، فقال تحت عنوان :(الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى بالمسيح.. نبي جديد مرسل من الله إلى العالم بحسب رواية برنابا رسوله). ثم يصف نفسه بأنه رسول يسوع الناصري المسمى المسيح... إلخ، فلماذا استُبعد هذا الإنجيل ولم يعترف به؟

* * *

(١) ما هي النصرانية؟ ص١٥٣.

(٢) يقول الأستاذ محمد عبد الرحمن عوض (لو ألف هذا الكتاب شخص ما ... مسلم أو غير مسلم لنسخه أعداء المسيحية وروجوا له واستدلوا به، وهو ما لم يحدث؛ بل ظل في طي الكتمان حتى ظهر مترجمًا إلى الإيطالية ثم إلى الإنجليزية والإسبانية وأخيرًا إلى العربية) ص٥٥ من كتابه: الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة. دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦م، مع العلم بأن القرار بتحريم إنجيل برنابا صادر ٤٩٥م؛ أي قبل البعثة المحمدية، ص٤٧.

العوامل الحقيقية وراء استبعاد
إنجيل برنابا

لنعد مرة أخرى للإلمام بأجواء النزاعات التي ظهرت فيها الأناجيل، حيث ظهر الصراع بين طائفتي المسيحيين الأصليين أتباع المسيح ﷺ والمسيحيين البولسيين أتباع بولس.

وفي ذلك الوقت كان «برنابا» من أوائل الذين عرفوا حقيقة «بولس»؛ ففضح نواياه، وأذاع على الملأ خبايا عقيدته الباطلة التي دسَّها على المسيحيين دسًّا، ثم ظهرت كتابات برنابا؛ لتكشف القناع عن المشادة التي حدثت بينهما في قوله: (أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح، برحمته العظيمة للتعليم، والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة؛ لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا، مجوزين أكل لحم نجس الذي ضل في عدادهم بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى)[١].

ويمضي في حديثه محذرًا من اتباع بولس، ومؤكدًا مخالفته لتعاليم يسوع ﷺ لأنه عاشره بنفسه وعرف تعاليمه فيقول: (وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي يسوع؛ لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصًا أبديًّا)[٢].

ويصبح استبعاد إنجيل برنابا مفهومًا في ضوء انتصار المسيحية البولسية على المسيحية اليهودية، ولصيقًا ببحث مضامينه العقائدية المخالفة لعقائد النصارى الحالية، ولما كان من المستحيل التوفيق بين النقيضين، فما أسهل استبعاده!

أجل هذه هي القضية، وكان إنجيل برنابا (أكثر اتساقًا في عرضه لحقيقة الألوهية مع شريعة موسى وما جاءت به التوراة، وكان برنابا شاهد صدق على أن عيسى ابن مريم

---

(١) مقدمة إنجيل برنابا، نقلًا عن «محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن»، إبراهيم خليل أحمد ص٩٣.

(٢) إنجيل برنابا ١: ٢-٩ نقلًا عن: «ما هي النصرانية؟» محمد تقي العثماني ص٢٠٢.

جاء متممًا للناموس وليس ناقضًا له) [١].

ومهما يكن من أمر، فإننا كما قلنا من قبل لسنا في حاجة -كمسلمين- إلى الاسترشاد بهذا الإنجيل، كل ما هنالك أننا نبغي إيضاح ما يستخلصه كل باحث بالمقارنة بينه وبين الأناجيل الأخرى، فإذا اتبع في تقويم مضمونه موازين التوثيق للكتاب المقدس (فإن إنجيل برنابا في ضوئها يأتي موثقًا به) [٢].

ومن أجل معرفة الحق والدعوة إليه، نضم صوتنا إلى صوت الإمام محمد أبو زهرة، فإنه (من أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية أن تعني الكنيسة بدراسته ونقضه، وتأتي لنا بالبينات الدالة على هذا النقض، وتوازن بين ما جاء في رسائل بولس؛ ليعرف القارئ والباحث أيها أهدى سبيلًا، وأقرب إلى الحق وأوثق به اتصالًا) [٣].

تعقيب

وبعد هذا العرض الموجز للأناجيل، والإحاطة بملابسات تدوينها والتعريف بكتابها، أصبحنا أمام خطوة تالية يقتضيها منهج بحث علم الأديان المقارن، وذلك على ضوء الاتفاق على مبادئ أساسية تحدد الأركان اللازم توافرها في أي كتاب سماوي، من حيث التثبت من مصدره، وتوافر ضمان النقل بسلاسل إسناد موثوق بها ومتصلة.

ولنتفق أولًا على الأركان اللازمة للإقرار بصحة هذا الكتاب، فإن (أي كتاب سماوي يستحق أن نخضع له والامتثال لأحكامه لا يكفي في إسناده إلى شخص ذي إلهام مجرد الظن والوهم؛ بل أن يثبت ذلك الكتاب أنه من الله ﷻ أولًا، وأنه هو الذي أنزله على النبي الفلاني ثانيًا، وهذا الثبوت يكون بسند متصل في جميع طبقاته متواتر في عامة مراتبه؛ أي رواه أناس كثيرون يؤمن تواطؤهم على افتراء الكذب، فلا يكون هناك تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان) [٤].

---

(١) الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض ص١١٨.

(٢) ما هي النصرانية؟ ص٢٥٨.

(٣) محاضرات في النصرانية ص٨١. وينظر أيضًا كتاب «ما هي النصرانية؟» لمؤلفه محمد تقي العثماني الذي عدَّد فيه أمورًا أربعة تنفي كون إنجيل برنابا من تأليف رجل مسلم «ص ٢٤٢- ٢٤٦».

(٤) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، المستشار محمد عزت الطهطاوي ص٦٤.

وعلى ضوء ذلك نعفي أنفسنا من الخوض ثانية في الحديث عن سلاسل الإسناد بعد ما عرضناه آنفًا، إذ لم يسلم إنجيل من الأناجيل الأربعة من أوجه الطعن والتشكيك والاتهام للكتاب مما نقلناه عن علماء النصارى أنفسهم[(١)]، غير أنه لا يصح الانتقال إلى نقد المضمون، إلا بعد إثبات تقريرين صريحين:

أولهما: إثبات التحريف نصًا على لسان بطرس في رسالته الثانية حيث قال: (إن الرسائل كلها منها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضًا)[(٢)].

والثاني: مبررات التحريف نفسها، أي: الجذور النفسية والأخلاقية لأعمال التحريف، إذ ربما هان الأمر لو كان استثناء، أما استناده إلى فلسفة ثابتة فهذه هي الطامة الحق. يقول أحد المؤرخين: (كان بين متبعي رأي أفلاطون وفيثاغورس مقولة مشهورة هي أن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط، بل قابلان للتحسين، وتعلم هذا الكلام منهم يهود مصر قبل المسيح، ويظهر ذلك جليًا في كثير من كتب اليهود القديمة، ثم أثر وباء هذا الخطأ السيئ في المسيحيين، كما يظهر هذا الأمر بجلاء من الكتب التي نُسبت إلى الكبار كذبًا)[(٣)].

نقد المضمون

إن المسلمين والنصارى متفقون -كما يذكر الأستاذ أحمد ديدات- على أن وحي الله

---

(١) قال علي بن ربن الطبري «وكان نصرانيًا فأسلم»: على أن من أدى تلك الأخبار إليكم لم يك فيهم أحد ادعى أنه أخذها من شاهد المسيح أو موسى عليه السلام من آبائه وأجداده، كما تدعي العرب عن آبائها وأجدادها الذين شاهدوا النبي ﷺ فإن الرجل منهم يحدثه -عن جده أو جد جده أو بعض- بما رأى.

(٢) محمد ﷺ ص٦٦، وأداه إلى أعقابه «الدين والدولة ص٢٠٤» ويستطرد قائلًا (فأما أخباركم فإنها أداها إليكم عراقي عن جزري عن شامي وشامي عن عبراني وفارسي عن رومي ومشرقي عن مغربي، بأسباب مظلمة متفاوتة، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٣) برشليم المؤرخ في بيان علماء القرن الثاني، ص٦٥ المجلد الأول من تاريخه المطبوع ١٨٣٢م، نقلًا عن المصدر السابق ص٦٦.

تعالى لا بد أن يخدم واحدًا من هذه الأغراض الأربعة:

١- إما أن يعلمنا المبادئ والعقائد.

٢- أو يلومنا على خطأ ارتكبناه.

٣- أو يقدم لنا الصواب.

٤- أو يهدينا إلى الصلاح[1].

وقد أخذ الأستاذ ديدات يفحص الكتاب المقدس وفق هذه الأغراض؛ فأذهله العثور على نماذج تبعث على الخجل والاستياء مما تضمنته من رواية قصص عن زنا المحارم، بل إن نبوءة «حزقيال» تتضمن تفاصيل جنسية تخجل منها الكتب الجنسية الممنوعة[2].

ومما يُلاحظ في سلوك الأطفال أن هذه القصص أثمرت تغييرات راسخة في نفوسهم -بناء على التجارب التي أجراها الدكتور فيرنون جونز- عالم النفس الأمريكي المشهور، فلا بأس إذن من انتشار حوادث الاغتصاب وجرائم القتل وزنا المحارم التي تسجلها الجرائد اليومية، بل ليس (من العجيب إذن أن يقيم الرومان الكاثوليك والميثوديون «إحدى الطوائف النصرانية» أعراسًا بين اللوطيين في بيوت ربهم، حتى قام ثمانية آلاف لوطي بمسيرة استعراضية في حديقة هايد بارك بلندن يوليو ١٩٧٩م مصاحبًا

---

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص٦٧.

(٢) المرجع نفسه ص٧١. وقد ذكر الأستاذ ديدات أثناء مناظرته للقس سُوجارت أن هيئة الرقابة بحكومة جنوب أفريقيا قد أصدرت أمرًا بحظر تداول بضعة صفحات من الكتاب المقدس، دون أن تدري أنه جزء من سفر حزقيال من الإصحاح الثالث والعشرين «من كتاب المناظرة الحديثة ص١٥٠». ويحكي العقاد عن إحدى القصص الجنسية الفاضحة التي رفضت الرقابة الأمريكية نشرها بحجة إفساد الأخلاقيات العامة، فاحتكم المحامي إلى الكتاب المقدس الذي يحتوي على قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان، فكيف تضعون مثل هذا الكتاب في أيدي الأطفال والفتيان؟! بينما هذه رواية وليست كتابًا مقدسًا، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس، فإما أن تفرجوا عن هذه الرواية وإما أن تصادروا الكتاب المقدس، وأفرجت المحكمة عن الرواية. ص١١١- ١١٢من كتاب «في صالون العقاد كانت لنا أيام» أنيس منصور، ط. دار الشروق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣.

بتشجيع وهتافات وسائل الإعلام)[١].

هذه هي ثمرة بعض نصوص الكتاب المقدس، ثم لنعقد مقارنة جزئية بثمرة تعاليم القرآن، الذي جاء مؤيدًا للحق بالكتب السابقة ومهيمنا عليها، فمن أقوال عيسى عليه السلام: (كل شجرة طيبة تطرح ثمرة طيبة، وكل شجرة خبيثة تطرح ثمرة خبيثة)، أجل (هذا هو المحك، المحك الثمرة، لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة)[٢].

ويرجع ذلك إلى تحريم القرآن الكريم للخمر: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

ولنقارن ذلك بما يحدث بالأمة الأمريكية، حيث يوجد -حسب قول سوجارت- أحد عشر مليون سكير، وأربعة وأربعون مليونًا من مدمني الخمر، هذه هي أمتكم والأخ سوجارت لا يجد اختلافًا بين الخمسة والخمسين مليونًا؟ هو يعتبرهم مدمني خمور، أما في الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المجاملات الاجتماعية[٣].

ومن إجابات الدكتور محمد على البار عن أسئلة حول أسباب انتشار مرض الإيدز، علَّله بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة، إذ يوجد أكثر من عشرين مليون شخص، ولهم جمعيات خاصة وكنائس خاصة تزوج الرجال بالرجال!!

كذلك لا بد من ملاحظة انتشار الفاحشة هناك بدرجة مذهلة مستندًا إلى مثال من صحيفة «هيرالد تريبيون» التي ذكرت في عددها بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٧٩م أن عشرة بالمائة

---

(١) المرجع نفسه ص٦٨ واستشهد بقول برناردشو ص٧٠: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح).

(٢) المناظرة الحديثة ص١٧٥. كذلك أثبت نصًا من مجلة الحقيقة المجردة، أكتوبر ١٩٧٧: (إن قراءة قصص الكتاب المقدس للأطفال يفتح الباب لغرض مناقشة العبرة وراء الجنس، وإن الكتاب المقدس إذا لم يهذب وينقح قد تعتبره مجالس الرقابة صالحًا للكبار فقط لمن جاوزوا الثامنة عشرة من العمر) ص٧٠ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٣) المرجع نفسه ص١٧٦.

من العائلات الأمريكية تُمارس ما يسمى بنكاح المحرمات، ويقدر عدد الفتيات الأمريكيات اللواتي نشأت علاقة جنسية بينهن وبين آبائهن بحوالي ١٥ مليون فتاة. (الشرق الأوسط في ١٨/ ٣/ ١٩٩٠ ص٩)

ويضيف الأستاذ ديدات بيان أثر الكتاب المقدس على السلوك الشائن ممثلًا في زنا المحارم، حيث ينتشر بمعدلات وبائية بين البيض في جنوب إفريقيا، يصل إلى ثمانية في المائة، كذلك بلغت النسبة معدلات وبائية في أمريكا، كما بيَّن سوجارت (ويضرب مثلًا من الكتاب المقدس، فيذكر أن الإنجيل يحتوي على عشر حالات من زنا المحارم)[1].

وإزاء ذلك فإنه لا يعقل أن يكون هذا الكتاب من عند الله[2].

هذا، فضلًا عن العقائد التي تخالف الأدلة العقلية، فباعتراف أحد علماء المسيحية وهو «سيل» وكان قد أحاط ببعض العلوم الإسلامية وترجمة القرآن المجيد، فقد وصى قومه بقوله: (**الأول**: لا يقع الجبر منكم على المسلمين. **والثاني**: لا تعلموهم المسائل التي هي مخالفة للعقل؛ لأنهم ليسوا حمقى نغلب عليهم في هذه المسائل، كعبادة الصنم -أي السجود للأيقونات داخل الكنائس وهي صور القديسين- والعشاء الرباني؛ لأنهم يعثرون كثيرًا من هذه المسائل، وكل كنيسة فيها هذه المسائل لا تقدر أن تجذبهم إلى نفسها)[3].

والآن تأتي المناسبة للحديث بإيجاز عن الكتاب المنزل من عند الله تعالى حقًّا، المحاط من كل جانب بما يبرهن على أنه كتاب الله ﷻ وحده، والذي سلم من التبديل والتحريف.

* * *

---

(١) المناظرة الحديثة ص١٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص١٤٣.

(٣) من كتاب «إظهار الحق» رحمة الله الهندي جـ٣ ص٧٣٤/ ٧٣٥، تحقيق: د/ محمد أحمد ملكاوي ط. الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

وتسنح الفرصة الآن لنعطر حديثنا عن القرآن الكريم، إذ سيبقى بحثنا ناقصًا لو لم نعرج على الحديث عنه؛ لأنه كلام الله تعالى؛ لأنه إذا تبين بعد التمحيص والمناقشة والاستدلالات المتنوعة استبعاد أن يتضمن الكتاب المقدس الوحي الكامل الصحيح من الله تعالى، ففي الطرف المقابل تتجلى وتشع حقيقة القرآن الكريم -كلام الله تعالى- وتصبح أضوأ بهاءً وأشد لمعانًا؛ لأنه الكلام الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢].

وتكفينا الإشارة في هذه العجالة إلى حقيقتين بارزتين:

أولاهما: كيفية تلقيه وحفظه، ونستند في ذلك إلى أقوال الأستاذ سفساف الأرثوذكسي عضو الجمعية العلمية بأوربا في كتاب المسمى «أصول الفقه الإسلامي»، فإنه سجل الأحداث التاريخية بحذافيرها، شأن كل باحث أمين مدقق، بموضوعية كاملة، فأثبت حقيقة الوحي وكيفية نزوله على رسول الله ﷺ، وهي الحالة التي شاركه فيها الأنبياء والرسل قبله كدانيال وموسى وغيرهما، (وتستمر هذه الحالة ما دام الوحي، حتى إذا تم أخبر الرسول ﷺ أصحابه بنفس ألفاظ الملك فيحفظونها على الفور عن ظهر قلب حرفيًّا، وكانوا يعتنون بذلك الاعتناء الذي لا مزيد عليه؛ لأن الحفظ الحرفي لسور وآي القرآن كان عندهم من أعظم العبادات وأقرب القرب، فكان أصحاب الرسول ﷺ تفرغ وسعها وتبذل جهدها المستطاع؛ لتنقش في حافظتها ألفاظ الوحي مضبوطة محكمة بمجرد نزوله، حتى كانوا من مزيد عنايتهم به بعد حفظ الآية من الرسول ﷺ يترددون عليه غير مرة ويتلونها أمامه حتى يزداد تثبتهم في حفظها وأدائها كما هي).

ويمضي بعد ذلك فيسجل مراحل كتابته وجمعه بواسطة أكابر الحفاظ حسب رواية البخاري، (حتى لم يبقَ مجال لأدنى شك في نهاية الضبط التام الكريم، إلى أن دعا الحال زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه لنشر الكتاب في الجهات فصدَّر ثلاثة مصاحف إلى الأمصار، وقد رأى أستاذه بعيني رأسه مصحفًا منها بدار الإفتاء الحنفي بدمشق)[1].

---

(١) محمد ﷺ نبي الإسلام ص٨٠، المستشار محمد عزت الطهطاوي.

وشهد بنفس هذه الشهادة أهم مجادلي البروتستانت وهو «المستر سنوبارت» في لكنهؤ ببلاد الهند. ويقول أيضًا الأستاذ موبر «وهو من أمهر وأحذق خصماء المسلمين»: إن جميع ما في المصحف هو نص ما صدر من بين شفتي النبي محمد ﷺ

وكذلك يقر الدكتور فل الكاثوليكي بألمانيا: (لا نسبة بين القرآن وبين الكتب النصرانية من حيث الضبط والدقة)[1].

الثانية: نفس القرآن الحكيم وآياته وأحكامه وتشريعاته وأخلاقياته، وما احتوى عليه من قضايا التوحيد وصفات الألوهية والنبوات والقدر والدار الآخرة وخلق الإنسان وأطواره ومصيره وقصص الأمم والأنبياء والرسل، وغير ذلك مما لا نحيط به حصرًا في هذه الصفحات، وبعبارة أخرى فإن جميع آياته الباهرة تأخذ بمجامع القلوب وترشد العقول الباحثة عن الحق إلى بر الأمن والإيمان الذي لا يعتريه شك.

تجربة علي بن ربن الطبري

يروي لنا علي بن ربن الطبري هذه التجربة الذهنية: (وذلك أني لم أجد لأحد عربي أو عجمي هندي ولا رومي كتابًا -جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله ﷻ والتصديق بالرسل والأنبياء والحثِّ على الصالحات الباقيات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في الجنة وأيضًا التزهيد في النار- مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته وله من القلوب هذا المحلا والجلالة والحلاوة، ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان صاحبه ﷺ الذي نزل عليه أميًا لم يعرف كتابة ولا بلاغة قطُّ، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية)[2].

أما علوم القرآن فقد اجتهد علماؤنا من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين في محاولة عدها وإحصائها.

>فمن قائل إنها ثلاثة أقسام؛ كالطبري «٣١٠هـ» وهي: التوحيد والأخبار

---

(١) المرجع نفسه ص٨١.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج١ ص١٦-١٩ باختصار، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

والديانات؛ ولهذا قالﷺ: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

>ثم توسع القاضي أبو بكر بن العربي «٥٤٤ هـ» في بيان مضمون هذه الأقسام: فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله والتذكير، ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام ومنها التكاليف كلها، وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب.

>ومن قائل: إن القرآن يشتمل على ثلاثين شيئًا: الإعلام، والتنبيه، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم الله، وصفاته وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرهبة، والخير والشر والحسن والقبيح، ونعت الحكمة وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم والتحسين والتوكيد والتفريع والبيان عن ذم الإخلاف، وشرف الأداء، وقائله علي بن عيسى الرماني «٣١٠هـ».

>ومن قائل: إن القرآن لا يُستدرك، ولا تُحصى غرائبه وعجائبه، وهو القاضي أبو المعالي عزيزي «٤٩٤هـ» لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩][١].

وبعد هذه الإلمامة الخاطفة حول كتاب الله ﷻ -التي اقتضاها المقام بسبب تداعي المعاني وتوارد الخاطر ليظهره على الدين كله- نستأنف الحديث عن أبرز عقائد النصارى، وهي عقيدة التثليث، التي جاء القرآن بإبطالها والرد عليها.

حول عقيدة التثليث

يكتنف هذه العقيدة كثير من الغموض الذي يصعب إزالته حتى باستخدام الأحكام العقلية المجردة؛ ويقولون: (إن الله واحد في ثلاثة أقانيم؛ هم الآب «الله» والابن «الله» والروح القدس «الله» وهؤلاء الثلاثة هم الله. كيف؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري؛ لأنه فوق مستوى إدراكه)[٢].

ومع هذا فإننا سنعرض لبعض الشروح التي دارت حولها بحيدة تامة، محاولين

---

(١) الدين والدولة ص٩٨/ ٩٩.

(٢) كنت نصرانيًا، واصف الراعي، ص١١٠ مطابع الفرزدق بالرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.

تقريب العقيدة إلى الأفهام ما أمكن:

١ - يستمد هذا الشرح من التأمل في التركيب الجسماني للإنسان، إذ إن كيانه (يتألف من الأجزاء المادية المتجانسة، التي تستطيع الأنظار المادية أن ترى هيئتها الاتحادية، فمثلًا العظم واللحم والدم، من اتحاد هذه الأشياء الثلاثة يقوم الجسم الإنساني في الوجود، ولو فقد واحد منها لما تم وجود الجسم الإنساني)[١].

ولكن إذا تأملنا هذا المثال نجده لا يتفق مع العقيدة المسيحية في التثليث، ويقول محمد تقي العثماني: على حين أن المسيحية لا تؤمن بثلاثة أقانيم كثلاثة أجزاء، وإنما تؤمن بها كثلاثة أشخاص مستقلين، ومن هنا فإنها لم تستخدم للأب والابن وروح القدس كلمة «الأجزاء» وإنما استعملت كلمة «الأقانيم» **Persons** أو «الأشخاص»، ولا شك أن أحدًا لا يقول بأن اللحم وحده، أو العظم وحده، أو الدم وحده «إنسان»، وإنما يقول: إنه جزء من الإنسان، وعلى العكس من ذلك فإن المسيحية تعد من الأب والابن والروح القدس إلهًا. ولا يعده جزءًا من الله[٢].

٢) التجلي أو الحلول

عبَّر الأب سوجارت على ذلك بقوله: إن الرب يُعلمنا بوجود إله واحد وليس اثنين أو خمسة ... (وإنه تجلي في ثلاثة أشخاص، ثلاث شخصيات مختلفة؛ نحن نؤمن بوجود الأب السماوي، والإله الابن، ونؤمن بالروح القدس الذي غشي مريم؛ إنه أيضًا وهم كل لا يتجزأ بمعنى أنهم متفقون تمامًا، وفي توحد وانسجام لا يختلفون أبدًا ولن يختلفوا أبدًا)[٣].

وعندما أُعطيت الكلمة للأستاذ ديدات، قام فأفصح عن تعجبه الشديد من قيام الأب سوجارت بتغيير الكلمة المعبرة عن الرب، حيث كان في صباح يوم المناظرة نفسه يستخدم في خطابه لمجموعة من كنيسته كلمة «المولود لله»، وهي مستخدمة أيضًا في

---

(١) ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص٤٧/ ٤٨.

(٢) المرجع نفسه ص٤٩.

(٣) المناظرة الحديثة ص١٩٩.

إنجيل الملك جيمس المعتمدة بالنص (لأنه هكذا أحب اللهُ العالم حتى إنه أعطي ابنه الوحيد)، والتعبير الإنجليزي الوارد بالنص يستخدم كلمة «بجتن» أي: المولود لله؛ ولكن بعد ثماني ساعات فقط، وأثناء المناظرة غيَّر الأب سوجارت كلمة «بجتن» إلى كلمة «المتفرد»(١).

وعندما سُئل الأب سوجارت عما يعنيه بكلمة «متفرد» أجاب بأنها في الأصل اليوناني تعني ببساطة: (لم يكن مثله أحد من قبل، وما كان أحد أبدًا مثل ابن الله؛ فهو متفرد، لم يكن أحد من قبل مثل مريم التي أنجبت ابن الله، إنها تعني ببساطة أن أحدًا لم يكن أبدًا مثله من قبل، ولن يكون أحد مثله من بعد، يكون متفردًا كابن الله، متجسدًا في هيئة بشرية)(٢).

ثم أوضح أن المسيحيين لا يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة، وسخر من الذين يظنون أنهم يعتقدون أن الله متزوج ويسكن في شقة في السموات، وأنه أنجب أطفالًا، ووصف ذلك بأنه سخافات؛ ثم عبر عن الإيمان الصحيح عندهم حيث يؤمنون بأن الله بسبب حبه للناس تعطَّف ونزل على هذا الكوكب، وعاش بين الناس ومشى بينهم، وتحدث إليهم، وفي هيئة بشر تجسد ليموت على الصليب كالفادي تكفيرًا عن خطايا البشرية فالإنسان عاجز عن إنقاذ نفسه، ولقد فعل ذلك، وقال للناس: إنكم ستقتلون هذا الجسد، وفي خلال أيام ثلاثة سأرفعه إليَّ مرة أخرى؛ (وهكذا فهو متفرد في ذلك. كذلك كان متفردًا في معجزاته، متفردًا في نبوءته، ومتفردًا في ميلاده، متفردًا في حياته، متفردًا في رسالته، متفردًا في موته، متفردًا في قيامته، متفردًا في صعوده، وعندما يعود فسوف يكون متفردًا في عودته)(٣).

ولكن هذا الأسلوب الإنشائي الخطابي لا يحل مشكلة الغموض، وربما كان فرارًا من المواجهة التي لابد منها (إنه يقول -أثناء حديثه أيضًا- شخص وشخص وشخص،

---

(١) المرجع نفسه ص١٣٥ ويقول الأستاذ ديدات: وبالمناسبة فإن كلمة «بجتن» تعني أيضًا: الإنتاج يا سيدي، فالله أنتج ولده. «نفسه ص١٨٠».

(٢) ص١٩٥ من كتاب المناظرة الحديثة.

(٣) المرجع نفسه ص١٩٦.

إلا أنهم ليسوا ثلاثة أشخاص بل شخص واحد).

وعندئذٍ وجه الأستاذ ديدات الخطاب إلى الأب سوجارت وضرب له المثل الآتي: (أنت وأخواك لنفترض أنكم ثلاثة توائم متشابهة، وأننا لا نستطيع التمييز بينكم أنتم الثلاثة؛ لأنكم متطابقون تمامًا فإذا اقترف أحدكم جريمة قتل هل يمكن أن نشنق الآخر؟ جوابك: كلا. وأسألك: ولماذا لا يشنق؟ فتقول لي: إنه شخص آخر، وأوافقك على هذا)[1].

ثم أوضح أن استخدام الكلمات يستدعي صورًا ذهنية حول «الأب السماوي المحب» «والإله الابن» و«الروح القدس».

إذن هناك ثلاث صور ذهنية مختلفة، (ومهما حاولتم فلن تتطابق هذه الصور الثلاثة في صورة واحدة؛ سيكون في ذهنكم دائمًا ثلاث صور، ولكن حين أسألكم: كم صورة ترون؟ تقولون: واحد)[2]، وهذا لا يطابق الواقع.

(٣) مثال الشمعة

وهذا المثال مشهور متداول، فالله عندهم -تعالى علوًّا كبيرًا- كالشمعة (فالشمعة واحدة ولكنها مادة ونور وحرارة؛ فهي ثلاثة في واحد)[3].

وهذا المثال متهافت أيضًا لا يعبر عن العقيدة النصرانية؛ لأن الأقانيم عندهم ثلاثة أصول، والشمعة أصل واحد (أما الضوء والحرارة فمظهران حادثان طرآ على الشمعة بعد إضاءتها، فإذا انطفأت عادت إلى أصلها الواحد، وفاتهم أن هناك مصدرًا ما أشعل الشمعة فما دوره في الأقانيم الثلاثة وأين مكانه من هذا التشبيه؟)[4].

إن هذا المثال إذن مخالف للثالوث النصراني الذي -بحكم صياغته- يقرر تعدد الشخصيات في الإله، وينسب -كما يرى البروفيسور عبد الأحد داود- خصائص

---

(١) المرجع نفسه ص٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه ص٢٠٥.

(٣) كنت نصرانيًّا ص٢٥.

(٤) المرجع نفسه ص٢٥.

شخصية منفصلة لكل شخص.

وقد ناقش البروفيسور هذه العقيدة من الوجهة الرياضية البحتة، ليبين عدم تطابقها مع البديهيات العقلية، والعلم الرياضي هو أدق العلوم كما هو معروف.

قال: والرياضيات كعلم إيجابي تُعلمنا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل، وأن واحدًا لا يمكن أن يساوي واحدًا + واحدًا + واحدًا.

وبعبارة أخرى فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساويًا لثلاثة؛ لأن الواحد هو ثلث الثلاثة، وقياسًا على ذلك فإن الواحد لا يساوي الثلث؛ وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوي واحدًا، كما أنه لا يمكن للثلث أن يساوي الوحدة، والذين يقولون بوحدانية الله في ثالوث من الأشخاص إنما يقولون لنا: إن كل شخص هو إله قدير، موجود، دائم، أزلي، وكامل؛ ولكنه لا توجد ثلاثة آلهة قادرين، وموجودين، ودائمين، وأزليين، وكاملين، ولكنه إله واحد قدير.

وإذا لم تكن هناك سفسطة في المنطق المذكور أعلاه فإننا سنطرح هذا «اللغز» الذي تقدمه الكنائس، ويكون طرحنا له بالمعادلة التالية:

إله واحد= إله واحد+ إله واحد+ إله واحد

كذلك فإن إلهًا واحدًا= ثلاثة آلهة

أولًا: لا يمكن لإله واحد أن يساوي ثلاثة آلهة، بل يساوي واحدًا منها فقط.

ثانيًا: بما أنك تسلِّم بأن كل شخص إله كامل مثل قرينه؛ فإن استنتاجك بأن ١+١+١ = ١ ليس استنتاجًا رياضيًا[1].

ثم ينتقل البروفيسور بعد ذلك إلى مناقشة التثليث من الناحيتين المنطقية والعقائدية، بناءً على تصور أن لكل شخص في الثالوث صفات لا تنطبق على الاثنين الآخرين (وتدل هذه الصفات طبقًا للمنطق الإنساني واللغة الإنسانية على وجود قبلية وبعدية فيما بينهما؛

---

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، عبد الواحد داود ص٤٥، ترجمة فهمي شما، مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

فالأب دائمًا يحظى بالرتبة الأولى، ويتقدم على الابن. أما الروح القدس فهو ليس متأخرًا فحسب؛ لكونه الثالث في الترتيب العددي، بل إنه أقل من أولئك الذين انبثق منهم).

ويلقي بعدئذٍ التساؤل الذي لا مفر منه للتمييز بين الإقرار بهذه العقيدة أو الزندقة: (ألا يعتبر نوعًا من الإلحاد إذا ما أعيد ذكر هذا الثالوث بترتيب معكوس؟ ألا يعتبر إنشاء الصليب عند مشاهدة القربان المقدس أو تجاوز مبادئه نوعًا من الزندقة عند الكنائس إذا عكست العبارة وصارت على النحو التالي: باسم الروح القدس، والابن، والآب؟ لأنها إذا كانت متساوية ومتعاصرة فإنه لا داعي لمراعاة ترتيب الأسبقية بدقة؟)[(١)].

عقيدة التثليث فوق طور العقل

أما دفاع النصارى عن عقيدة التثليث بدعوى أنها حقائق هي وراء طور العقل والقياس فلا مناص من تصديقها من غير محاولة الاعتماد على العقل فيها[(٢)] هذا الدفاع لم يقبله ابن تيمية في مجال مناقشة عقائدهم، فهو يرى ضرورة التمييز بين نوعين من الحقائق؛ أحدهما: ما هو باطل ومستحيل عقليًّا، والثاني ما يتقاصر عنه العقل، وجاءت الأنبياء لتوضحه، (ولكن النصارى لا يميزون بين ما يحيله العقل ويبطله، ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه، بنفي ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك مَنْ قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدًا وشريكًا)[(٣)].

وزعْم الولد أو الابن لله تعالى دالٌّ على استخدام ألفاظ الأنبياء -لو صحت- في غير مواضعها، فإن الموقف المنهجي الصحيح المفسر لكلام الأنبياء يقتضي الاستمساك بظاهر كلامهم، فإن الابن ظاهره لا يراد به شيء من صفات الله، بل يراد به وليه وحبيبه، وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وحيه وملكه، ولكن النصارى عدلوا عن ظاهر اللفظ

---

(١) المرجع نفسه ص٤٦.

(٢) الحافظ أحمد بن تيمية، الإمام أبو الحسن الندوي ص٢٠٤، ط. دار القلم، الكويت، تعريب سعيد الأعظمي الندوي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص٨٩، جـ٢ نقلًا عن المصدر السابق.

إلى معنى لا يدل عليه ألبتة[١].

قال ابن تيمية: (فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال: عمدوا الناس باسم الآب والابن والروح القدس، ثم فسروا الابن صفة الله القديمة الأزلية كان هذا كذبًا على المسيح حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به بصفة الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم)[٢].

الصليب والتكفير عن خطيئة البشر

يعد الصليب أحد الشعائر البارزة في العقيدة النصرانية، إن لم يكن أبرزها، فإن الصلب رمز عقيدة النصارى الذي يعبر عن الإيمان بالتكفير عن خطيئة البشر، وأصبح لزامًا عليهم رسم علامته في كل مناسبة؛ يقول العالم المسيحي الشهير «ترتو ليانوس»: (بمناسبة كل حال وترحال، وذهاب ومجيء، وخلع نعال، واغتسال، وأكل، وإيقاد شمع ونوم وجلوس، وبالجملة بمناسبة كل حركة وسكون نصنع فوق حواجبنا علامة الصليب)[٣].

أما عن تعليل صلب المسيح عليه السلام في زعمهم فيستندون فيها إلى ما جاء في الكتب المقدسة عندهم أن «الله محبة»، وظهرت هذه المحبة في تدبيره الخلاص للعالم؛ لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمه رأى أن يقرب إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم[٤].

ولئن كانت رواية الصلب واردة بالأناجيل، إلا أن الدارس الفاحص عندما يقارن

---

(١) المرجع نفسه ص٢٠٢.

(٢) الجواب الصحيح جـ٣ ص١٨١، نقلًا عن المصدر السابق.

(٣) ما هي النصرانية؟ ص٧٥.

(٤) محاضرات في النصرانية ص١٢٩ ويقول عبد الله الترجمان: وهم يزعمون أن لاهوته فارقه عند الصلب والقتل، وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء، وكان ناسوته في القبر مدفونًا حتى رجع إليه لاهوته، فأخرجه من القبر ورجع إليه، ثم صعد به إلى السماء. تحفة الأريب ص٨١.

الحادثة بالأناجيل بعضها بعض، يستخلص منها -على خلاف المعتقد- نفي صلب المسيح عليه السلام وإليك البيان: وردت قصة المحاكمة في إنجيل لوقا بالنص الآتي:

(وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه تلاميذه أيضًا، ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلى قائلًا: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي، بل إرادتك. وظهر له ملاك من السماء يقويه، وإذا كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات الدم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نيامًا من الحزن فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)[1].

كذلك صرح إنجيل متَّى بأن (أظلمت الأرض ظلمة شديدة).

من هذا النص وغيره -كما سيأتي- يتضح عند تنقيح الأخبار والبحث في الملابسات المحيطة بالواقعة تأكيد نفي حادث الصلب عن المسيح عليه السلام حيث يستخلص الأستاذ إبراهيم خليل من القصة الآنفة كينونة المسيح كإنسان بشر (يصلي في جهاد، فينزل ملاك من السماء ليقويه ويشد أزره، ثم يعود إلى تلاميذه، فيجدهم ساعة هذه التجربة العظمى نيامًا، ومن هنا حدث لبس في شخصية المصلوب)[2]، فضلًا عن أن الوقت كان ليلًا؛ لأن الرواية تضمنت أن الجمع جاءوا بمشاعل ومصابيح.

وهنا يقول الإمام نجم الدين الطوفي «٧١٦هـ»: (ففي تلك الظلمة أطلقت الملائكة المسيح وربطت الذي ألقي عليه شبهه مكانه)[3]، ثم يمضي فيحلل الأسباب النفسية

---

(١) متَّى ١٧ : ٩ نقلًا عن كتاب «محمد ﷺ في التوارة والإنجيل والقرآن» إبراهيم خليل أحمد، ص١٦٣ وقد قابل الحادثة بما وردت بأناجيل متَّى ومرقص ولوقا.

(٢) «محمد ﷺ في التوارة والإنجيل والقرآن» ص١٦٤.

(٣) كتاب «الانتصارات الإسلامية» في علم مقارنة الأديان، تأليف نجم الدين البغدادي الطوفي، ص١٠٣ دارسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣م.

وينظر أيضًا تفسير الطبري جـ٩ ص٣٦٩ قال: فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا، فأخذهم ودلهم عليه، وكان شبه عليه=

لعقيدة الصلب عند كل من النصارى واليهود، (فاعتقدتم أنتم أن المسيح صُلب، وقوّى ذلك الاعتقاد في نفوسكم حنقكم على اليهود، وحب تقرير العلم للعدوان عليهم، واعتقدت ذلك اليهود كما اعتقدتموه، وحملهم على ذلك الاعتقاد حب الغلبة والظفر بمن اعتقدوه عدوًّا لهم)[1].

تحقيق الحادثة

وقد أجاد علماؤنا أثناء مناقشتهم للنصارى في هذه الواقعة المهمة، وقدموا البراهين التي تدحض حادث صلب المسيح عليه السلام من واقع الأناجيل نفسها، مستخدمين مناهج مختلفة، منها منهج تحليل الأخبار؛ حيث يتضح كذب الرواة أو شكهم فيما يروونه، ومنها موازنة بعض نصوص الأناجيل بموازين العقل والمنطق على ضوء عقائدهم الدينية.

ورغبة في الإيجاز وتحقيق غايتنا من أقرب الطرق سنختار من بين علمائنا الإمام القرافي صاحب الصولات والجولات في الجدل مع النصارى.

الأولى: ففيما يتعلق برواة الخبر عن الصلب فهم قليلون؛ لأن الحواريين فروا عن المسيح عليه السلام لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود، فحينئذٍ عدد التواتر متعذر من جهة شيعة النصارى، ومن جهة اليهود فلأن المباشر منهم للصلب إنما هم أعوان الولاة (وذلك في مجرى العادة يكون نفرًا قليلًا كالثلاثة ونحوها يجوز عليهم الكذب، ولا يفيد خبرهم العلم)[2].

أما نصوص الإنجيل والكتب النصرانية فإنها دالة على عدم صلب عيسى عليه السلام بذاته، ويقيم الإمام القرافي الأدلة على ذلك من واقع تحليله للنصوص وعرض مضمونها على قوانين العقل والمنطق.

= قبل ذلك -أي كانوا لا يعرفونه- فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه، ويلقون إليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعًا، والرواية بسندها عن وهب بن منبه.

(١) ط. دار المعارف، تحقيق محمود شاكر، ومراجعة وتخريج أحاديث شاكر.

(٢) الأجوبة الفاخرة ص٥٣.

فمنها أن لوقا في إنجيله روى كيف صعد يسوع إلى جبل الجليل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه، ولمعت ثيابه كالبرق وإذا موسى بن عمران وإيلياء قد ظهر له وجاءت سحابة فأظلتهم فوقع النوم على الذين معه.

ويستدل إذن من هذه الآيات أن عيسى عليه السلام رُفع إلى السماء ولم يُصلب وإلا فلا معنى لظهورها.

والثانية: أن الأناجيل ذكرت أن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلًّا مذاقًا بمر فذاقه ولم يسغه، فنادى (إلهي إلهي لِمَ خذلتني؟)، وهذه الواقعة لا تتطابق مع ما صرحت به الأناجيل بأنه عليه السلام كان يطوي أربعين يومًا وأربعين ليلة صابرًا على العطش والجوع، فكيف به لم يمكث على الخشبة أكثر من يوم وليلة ولم يصبر على العطش؟! فيتضح إذن أن المدعي للعطش غيره[1].

والثالثة: قوله: (إلهي إلهي لِمَ خذلتني فتركتني؟) وهو كلام منافٍ للتسليم بأمر الله تعالى، وعيسى عليه السلام منزَّه عن ذلك، فيكون المصلوب إذن غيره.

كذلك فبالمقارنة بغيره من الأنبياء والرسل -كإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون عليهم السلام فإنهم يجعلونه في مرتبة أقل منهم، إذ روت التوراة أنهم تقبلوا الموت مستبشرين بلقاء ربهم، ولم يجزعوا (مع أنهم عبيده، والمسيح بزعمهم ولد ورب، فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم، ولما لم يكن كذلك دلَّ على أن المصلوب غيره)[2].

ويستند الأستاذ أحمد ديدات إلى نفي حادثة الصلب إلى الشواهد والأقوال المنسوبة إلى المسيح عليه السلام ومنها ما ورد بإنجيل لوقا: (انظروا يدي ورجلي، إني أنا هو، جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبين قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟ فناولوه جزءًا من سمك مشوي وشيئًا من شهد العسل فأخذ وأكل قدامهم).

ويعلق الشيخ ديدات على هذا النص بقوله: (والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا

---

(١) المرجع نفسه ٥٤ باختصار.

(٢) المرجع نفسه ص٥٥.

كان المسيح قد مات «مصلوبًا» ثم قام بعد ثلاثة أيام فكيف يقول لتلامذته: إن الروح ليس له لحم وعظام «طالبًا» منهم أن يجسوه.

ثم: لماذا أكل قدامهم وفق رواية «لوقا» المعتمدة من قبل المؤسسات الكنسية؟

فمن المعروف أن الأرواح لا تأكل ولا تشرب، وإن علمها عند الله، ولكن المسيح عليه السلام من خلال هذا الموقف الذي تقول به مختلف الكنائس، وإذا كان هذا قد حدث بالفعل وفق ما يعتقده النصارى، فإننا نقول لهم: إن المسيح عليه السلام أراد أن يثبت أنه لم يمت بعد؛ أي إنه لم يقتل بعد؛ أي إنه لم يصلب؛ أي إنه ليست هناك حادثة «صلب»، وبما أنه ليست هناك حادثة «صلب» فنظرية «الخلاص» لا أساس لها من الصحة، وفي ضوء هذا فالنصرانية معتقد غير صحيح)[١].

وعن الناحية اللغوية نجد للشيخ ديدات بحثًا فريدًا في تحليله للمصطلح الإنجليزي الدال على الصلب وهو **Crucifiction** حيث توصل إلى أن أصل هذا المصطلح مكون من مقطعين هما **Cruci- fiction** ومعناه: رواية الصلب أو خرافة الصلب. إذ إنه لا يوجد في الإنجليزية فعل واحد بالمعنى الذي يقابل الفعل العربي «يصلب».

ويستنتج من ذلك أنه إذا كان المصطلح نفسه عاجزًا عن التدليل على معنى «الفعل» الحادثة التي وقعت من وجهة نظر كتبة الإنجيل، فكيف يتسنى لنا إذن على المستوى اللغوي التحقق من أصل هذه الحكاية كواقع[٢].

ويزيد الأمر إيضاحًا بكتابه «صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء» ليثبت أن قصة الصلب لا تعني الموت قتلًا، مستشهدًا بتفسير لغوي لإنجليزي بجنوب أفريقيا وشريك له من أمريكا يعترفان بأنه لو كانت كلمة يصلب تعني يقتل على الصليب فإننا لا نجد

---

(١) من أقواله لمندوب جريدة «المدينة المنورة» عدد الأربعاء رقم ٢٨٥ الصادرة، في ٥ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٤ ديسمبر ١٩٨٨م، ص٧، مع العلم أنه أصدر كتابًا في هذا الموضوع بعنوان: «خرافة صلب سيدنا المسيح»، وهو من مصادر دراستنا.

(٢) صلب المسيح ... بين الحقيقة والافتراء، أحمد ديدات ص١٧٢.

كلمة تصور مجرد الصعود على الصليب دون موت عليه[(١)].

ويقول: ولو كانت «يصلب» تعني فقط: يقتل، فما معنى الكلمة؟ إن قاموس أكسفورد يعطي للكلمة معنى هو «يقتل بالتثبيت على الصليب».

ولكنه يجابه هذا التعريف بسبع حالات صلب على الأقل حدثت في الفلبين ونشرتها إحدى الصحف في ٣/ ٥/ ١٩٨١، ولم يمت منهم أي شخص بالصلب! وأغمي على أحدهم بالرغم من دق المسامير في يدي المتقدمين للصلب بالصليب الخشبي، ويخص بالذكر ما حدث للسيد بيتر فان دير بتاريخ ٣/ ٨/ ١٩٦٩م الذي صعد على الصليب وتلقى «الركلات» لمجرد الاستمتاع بالإثارة، أو كما قال بنفسه: لمجرد أن يثبت أن الإنسان يستطيع أن تكون له السيطرة على جسده، وأنه تحمَّل عملية الصلب بكل تفاصيلها ولم يمت، بمعنى أنه ثبت على الصليب «لتمثيل الصلب، لا ليموت صلبًا»[(٢)].

المنكرون للصلب

وقد أنكرت بعض الطوائف المسيحية حصول الصلب استنادًا على الأدلة التاريخية.
ويقول المسيو «أرنست دي يونس» الألماني في كتابه المسمى «الإسلام والنصرانية الحقة»: إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح عليه السلام وليست من أصول النصرانية (وقد أنكر كثيرون من المؤمنين بعيسى في بداية النصرانية أن المسيح نفسه هو الذي رفع على الصليب وأصروا على أن أحد أتباعه «يهوذا الأسخريوطي» أو شخصًا آخر يشبهه تمامًا هو الذي ألقى القبض عليه وصُلب بدلًا منه)[(٣)].

ويقول ملمن في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» إن تنفيذ الحكم على المصلوب كان أثناء الظلام مما يُستنتج منه إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا منتظرين تنفيذ حكم القتل.

---

(١) المصدر السابق ص١٧٨، وينظر صورته على الصليب ص٧٩.

(٢) المرجع نفسه، ويقول: وإنني أتحدى أي أسقف أو قس في أي مكان، في أي وقت في لغته هذا «الفعل».

(٣) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، البروفسور عبد الأجد داود ص٢٢٧.

ويقول باسيليوس: إن نفس حادثة القيامة وهي دعوى قيام المسيح عليه السلام من الأموات المدعي بها بعد الصلب الموهوم هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح(١).

ومنهم أيضًا «كوائيليس شيس» الذي أعلن رأيه برفض الأساس العقائدي للصلب، لأن (ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن له تأثير على بني النوع البشري والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم يكونون كما كان آدم فيما قبل أن يذنب)(٢).

والثابت تاريخيًّا أن النصارى في القرون الأولى قبل الملك قسطنطين لم يعرفوا رسم علامة الصليب على وجوههم بالأصابع، وظهر تبرير ذلك برواية تحكي عن هذا الملك أنه رأى في السماء صورة صليب من ذهب، وملك يقول له: إن كنت تريد غلبة أعدائك فاجعل هذه الصورة علامة قدامك؛ (وآمن وفعل ما قاله الملك فنُصِر وهو الذي بحث عن صليب المسيح حتى وجده مدفونًا، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجامًا لفرسه، وزيَّن جبينه بصليب من ذهب، فاستمر ذلك لنا علامة على النصر والظفر)(٣).

ويبقى السؤال واردًا وهو: كيف يرضى النصارى بعلامة الصليب (وهو شنيع على المسيح عليه السلام وإظهار لشعائر الإهانة العظيمة الحاصلة لمن يزعمون أنه ربهم، وهذا لا يرتضيه الإنسان لغلامه، فكيف لنبيه، فكيف لربه؟!)(٤).

ويصرح محمد تقي العثماني بأنه لم يجد على السؤال إجابة في كتابات أي عالم مسيحي(٥).

وختامًا لدراستنا الموجزة حول علم الأديان المقارن، سنجعل مسك الختام منصبًّا على الحديث عن إثبات نبوة نبينا محمدﷺ، وذلك في مبحثين:

---

(١) نقلًا عن محمدﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، ص١٠٣، راجع بالتفصيل في هذا المصدر هذه الطوائف وتبلغ إحدى عشرة طائفة.

(٢) ما هي النصرانية؟ ص٩٠.

(٣) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص١٦١ والعبارة على لسان قسيسهم وكبيرهم حفص.

(٤) المرجع نفسه ص١٦٠: ١٦١.

(٥) ما هي النصرانية؟ ص٧٥.

الأول: النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس[1].

الثاني: الأدلة العقلية على صدق نبوته ﷺ.

* * *

(١) لم تقتصر النبوءات على الكتاب المقدس فحسب، فقد ذكر العقاد بأن (بعض الباحثين وجد اسم أحمد مكتوبًا بلفظه العربي في السامافيدا من كتب البراهمة، وبعض صفاته ﷺ وكذا كتب المجوس «التاريخ الفارسي» ككتاب زندافستا ينبئ عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «شوشيانت» ويتصدى له عدو يسمى أبا لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوًا أحد وليس له أول ولا آخر ولا صاحب ولا ولد، وكيف تنهض البادية وتتوجه للكعبة وتبسط سلطانها على فارس، وإن نبيهم فصيح ذو معجزات، مطلع النور للعقاد، كتاب الشهر، دار الهلال ١٩٦٨م، نقلًا عن مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ لمحمد إبراهيم حجاج ص٨٣، الذي يرى أنه لا يبعد أن يكون ذلك من آثار النبوات السابقة من لدن نوح.

الفصل السابع
النبوءات بمحمدﷺ في الكتاب المقدس

تمهيد

يلاحظ علماء تاريخ الأديان المقارن أنه بالرغم من كثرة ذكر الرسل والأنبياء بالكتاب المقدس إلا أنه عندما تأتي البشارة بمجيء محمدﷺ فإنهم يخفونها أو يجحدونها ولا يعترفون برسالته، فما السبب؟

يرى جارودي أن مصيبة تاريخ الأديان المقارن أنه يحمل في الغرب علامة العصر الذي ولد فيه، ولذلك فهو يتميز بظاهرتين:

الأولى: أنه فيما يخص الإسلام فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحي الإسلامي؛ اعتمادًا على تأكيد صحة وحيها هي، وهذا ما يدعونا بأن التعصب هو أحد أسباب إنكار نبوة نبيناﷺ.

الثانية: المسلَّمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل إمكانية للتسامي بشكل مفاجئ في التاريخ، والتي تنزوي في أفكار مسبقة لتزعم أن لا شيء ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة[1].

أما البروفيسور عبد الأحد داود فقد كان أكثر صراحة؛ لأن تمكنه في علم الأديان المقارن وتخصصه في علم اللاهوت وإحاطته الواسعة بالكتب الدينية عند اليهود والنصارى كل ذلك مكَّنه من اكتشاف عدة حقائق أعلنها على الملأ في شكل تحقيقات وبحوث علمية موثقة وتستند إلى مراجع لا سبيل لأهل الكتاب في الطعن فيها.

---

(١) الإسلام دين المستقبل، جارودي ص٦٦ ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان، بيروت- دمشق ١٩٨٣م. وقد أورد بهذا الكتاب إحدى النبوءات التي رأى أنها تبشر بمجيء الرسولﷺ، حيث أورد ما جاء على لسان القديس يوحنا قوله: (وما زال لديَّ أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكنكم في هذا الوقت لستم قادرين على تحملها، وعندما سيأتي «روح الحق» فإنه سيجعلكم تصلون إلى الحقيقة كاملة) إنجيل يوحنا ١٦ - ١٢/ ١٣ ص٨٣ من كتابه.

ويذكر البروفيسور -كأحد نماذج التحريف [1]- أنه بدافع حقد اليهود على إسماعيل عليه السلام قام النسَّاخ وفقهاء الشريعة بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة فشطبوا اسم «إسماعيل»، ووضعوا اسم «إسحاق» بدلًا منه، وقاموا أيضًا بحذف الوصف الخاص بإسماعيل «ولدك الوحيد» لإنكار وجوده.

وقام النصارى بتحريف من نوع آخر، فغيروا ترجمة كلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر مغاير: وتفصيل ذلك أن الأصل في خطاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام قوله: (لأنك يا إبراهيم قبلت أن تضحي بابنك الوحيد من أجلي، فسوف أزيد وأضاعف من ذريتك).

ولكن المسيحيين عندما قاموا بترجمة هذه الكلمة العبرية التي تعني «وفير» أو «كثير» من الفعل **Para** ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو «الحمار المتوحش».

وعندئذٍ يبدي هذا العالم دهشته الممتزجة باللوم والسخط على هذا الفعل ويتساءل: (أليس من العار والكفر أن يُنعت إسماعيل بهذا اللفظ وهو النبي الذي كرَّمه الله فنعته بصاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد؟)[2].

وقادته دراسته في علم اللاهوت، وتبحره في تاريخ الأديان، ومعرفته بالكتاب المقدس ونبوءاته إلى الإقرار بالحقيقة التي لا محيد عنها، وهو أن محمدًا ﷺ هو الهادي، وهو روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام[3].

واعتنق الإسلام عن اقتناع تام بعد كثيرة البحوث والقراءات والمقارنات، ثم أعلن في تواضع: إني لا أعزو اعتناقي الدين الإسلامي لأي سبب غير التوجيه الإلهي الكريم

---

(١) وتظهر آخر صور التحريف في العصر الحديث بواسطة إسرائيل، حيث قامت بإصدار الطبعة المحرفة لأسفار العهد الجديد عن «دار النشر اليهودية بالقدس سنة ١٩٧٠م» على ضوء وثيقة التبرئة التي أصدرها البابا بولس السادس في ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٥م، فحذفوا كلمة «اليهود» وكل ما يتعلق بمسئوليتهم عن «صلب» المسيح عليه السلام وتحميل مسئوليته على الرومان... ص٤٥/ ٤٦ من كتاب «إسرائيل .. حرفت الأناجيل» اللواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة بمصر سنة ١٩٧٢م.

(٢) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، ص٦١.

(٣) المرجع نفسه ص٣٤.

الذي هداني للإسلام، بغير هذا الهدي الإلهي فقد يُصاب الإنسان بالحيرة والضلال من تعدد التعاليم الدينية، ومن كثرة الجهود المضنية التي تجابه الإنسان في سبيل البحث عن الحقيقة[١].

أما الإسلام، فهو الدين الذي يحقق الهدوء داخل العقل وداخل البيت مهما كانت الاضطرابات التي تهددنا[٢].

وفي وصف شامل للإسلام ورسالته وصبغته الفريدة، ومدى صداه في نفوس خصومه يعرفه بأنه: (لا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسمًا أو وصفًا أفضل وأشمل وأكثر هيبةً وسموًا من الإسلام، فالدين الحق لله الحق لا يمكن أن يسمى باسم أي من عباده ولا أن يدعي باسم شعب معين أو اسم بلد معين، إن هذه القداسة والعصمة لكلمة إسلام هي التي توقع الرعب والخوف والاحترام في قلوب أعدائه، حتى عندما يكون المسلمون ضعافًا وخانعين)[٣].

ودفعه إيمانه ذو الجذور العميقة في نفسه إلى إعلان اكتشافاته العلمية على الملأ، بل الدعوة إلى الإسلام أيضًا؛ لأنه بعد الفحص والتمحيص ثبت لديه أنه الدين الحق.

لقد أراد البروفيسور عبد الأحد إذن بوحي من إيمانه العميق إثبات تحريف الكتاب المقدس لنصوص النبوءات، فأتى بالنصوص المحرفة[٤] بسبب الترجمة وطابقها مع ما يقابلها مكتوبًا باللغة الأصلية، وعندئذٍ أذهله أن كل النصوص المعنية بالنبوءات تنصب على رسول الله ﷺ، وهذا لم يكن يتوقعه قطُّ بحكم عقيدته السابقة ونشأته على النظر إلى الإسلام ونبيه ﷺ بعين ملؤها الحقد والكراهية، أو عدم الإنصاف على أقل تقدير.

ولا يتسع المجال لعرض بحوثه تفصيلًا؛ ولكن يعنينا فقط الإلمام بطريقة التحريف

---

(١) المرجع نفسه ص٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص١٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) يرى الأستاذ محمد إبراهيم حجاج أنه لكثرة البشارات بمحمد ﷺ وتفرقها في كتبهم لم يستطيعوا إخفاءها كلها، وإن اجتهدوا لتمويهها وتأويلها، فلا تزال تدل على محمد ﷺ. ص٨٦ من كتاب «مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ» المكتبة الإسلامية، عمان ١٤٠٣هـ.

المتبعة، والتي بواسطتها ينكرون نبينا محمدﷺ.

وسنتدرج لنبين منهجه أولًا ثم نصل إلى تطبيق هذا المنهج على بعض النصوص الدالة في أصلها على الرسولﷺ.

فمن معالم منهجه أنه أخذ يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة[1]، فوقف على أهم الحقائق التي غابت على القساوسة ولو حاول القساوسة اللاهوتيون النصارى معرفة حقيقة كتبهم المقدسة التي وردت أصلًا باللغة العربية بدلًا من ترجمتها، كما يفعل المسلمون الذين يقرءون قرآنهم بنصه العربي، لاتضح أن الله تعالى هو نفس الاسم القديم السامي للكائن الأعلى الذي أوحى وكلم آدم وجميع الرسل من بعده[2]، وفي ضوء هذا المنهج مضى ليتحقق من أن النبوءات الواردة بالكتاب المقدس تحققت بالحرف الواحد وصدقت على محمدﷺ، وسنكتفي بعرض ثلاث منها بإيجاز:

النبوءة الأولى

ما ورد في التوراة «سفر التثنية الفصل الثامن عشر الجملة ١٨»: **(أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه).**

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن هذه الكلمات ما لم تنطبق على محمدﷺ فإنها تبقى غير متحققة، فالمسيح عليه السلام نفسه لم يدع أنه النبي المشار إليه، وكذلك يتطلع حواريوه إلى عودته؛ لكي تتحقق النبوءة وحتى الآن، فإنه من الثابت غير المنقوص أن الظهور الأول للمسيح لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة (أقيم لهم نبيًّا مثلك)، وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات، وأن المسيح -كما تؤمن به كنيسته- سوف يظهر كقاضٍ وليس كمقدم للتشريع، بينما «الموعود» هو الذي يجيء حاملًا (الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى)[3].

---

(١) محمدﷺفي الكتاب المقدس ص٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص٣٧.

(٣) المرجع نفسه ص٣١.

النبوءة الثانية

الكلمات الواردة في التوراة في الفصل ٣٣ الجملة «٢» تنص على ما يلي: (وجاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير وتلألأ قدمًا من جبل فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم.

ومن الثابت في رأي البروفيسور عبد الأحد أنه لم يكن لأحد من الإسرائيليين بمن فيهم المسيح عليه السلام أية علاقة بـ «فاران»، فإن «هاجر» مع ولدها «إسماعيل» هما اللذان سكنا في قفار «فاران»[1]، وكذلك فإن (بيت الرب الذي يمجد اسمه فيه) المشار إليه في الإصحاح «٦٠ الجملة ٧»، هو بيت الله الحرام في مكة وليس كنيسة المسيح، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون.

وبحكم معرفته الواسعة بالتاريخ وتفاصيله، ووقوفه على أعداد المسلمين الذين دخلوا مكة المكرمة لفت نظره تحديد عدد العشرة آلاف فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة بقفار «فاران» فإنك لا تجد أية حادثة أخرى غير هذه أمامك، وهي أنه عندما فتح النبي ﷺ مكة دخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه في المدينة، ثم يعود إلى «بيت الله» **وبيده اليمنى الشريعة التي حولت جميع الشرائع الأخرى إلى رماد**[2].

النبوءة الثالثة

وتحتوي على جملتين كل منهما تنص على اسم «أحمد» أو «حمدا **Himda**».

أ- الجملة الأولى (وسوف يأتي أحمد لكل الأمم -سفر حجي ٢-٧). والترجمة المحرَّفة لبعض الكتب المقدسة في الإصحاح الثاني من سفر حجي هكذا تقول: (ويأتي مشتهى كل الأمم)[3].

---

(١) المرجع نفسه ص٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص٤٩.

وذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء ص٣٩٧/٣٩٨» أنه سأل زميله المستشرق نيلّينو أثناء زمالتهما بدار العلوم بالقاهرة عن معنى «الفارقليط» فأجابه: القسيس يقولون: إنه المعز، ولما ضيِّق عليه الخناق باعتباره خبيرًا باللغة اليونانية أقرّ أنه أفعل التفضيل من فعل «حَمَدَ».

ب- الجملة الثانية ونصها: (ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا **Himda** لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد.. كذلك قال رب الجنود، ولي الفضة ولي الذهب هكذا يقول رب الجنود، وإن مجد ذلك **البيت الأخير** يكون أعظم من مجد الأول هكذا يقول رب الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام هكذا يقول رب الجنود).
الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧-٩

ويرى البروفيسور عبد الأحد خطأ ترجمة كلمتي «حمدا» و«شالوم» من أنهما **«الأمنية والسلام»**[١]؛ لأن النبوءة على ضوء هذه الترجمة تصبح لا شيء أكثر من همس غامض مبهم ولا يفهم معناه، ثم يقول: (ولكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة «حمدا» بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة **«شالوم»** بأنها ليست حالة مشروطة؛ بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها، وعندئذٍ لا بد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها **مطابقة لشخصية «أحمد» وبعثته بالإسلام**؛ ذلك لأن كلمتي «حمدا» و«شالوم» أو«شلاما» تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتي «أحمد» و«الإسلام»[٢].

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن اسم «أحمد» هو أول اسم علم عرف بهذه الصيغة في تاريخ البشرية، وهو بحسب اعتقادي أعظم معجزة جاءت لصالح الإسلام[٣].

---

(١) ويقول البروفيسور: (ولقد قمت بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل الذي كان بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عم لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة حينذاك؛ ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت عن الأصل العبري «حمدا» إلى «الأمنية» وكلمة «شالوم» إلى السلام. ص٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص٥٠ ويقول ص٥٢: (أما فيما يتعلق بأصل هذه الكلمات وتاريخها ومغزاها «شالوم» و«شلاما» بالعبرية، وفي العربية «سلام» وإسلام، فإنه لا حاجة بي لأن أعيق تسلسل القارئ في تفكيره؛ فأجره إلى تفاصيل لغوية؛ لأن أي عالم في السامية يعرف تمامًا أن «شالوم» و«إسلام» هما كلمتان مشتقتان من أصل واحد، وتعنيان نفس المعنى، وهو السلام والإذعان أو الاستسلام).

(٣) المرجع نفسه ص٥٤، وقد برهن على أن الفقرة ٢/ ١٣ من إنجيل «لوقا» (المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة) أصلها هكذا: (المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد) في الترجمة اليونانية. ويُنظر تعليق عبد الوهاب طويلة بكتاب «الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية» للحبر إسرائيل بن شموئيل الإسرائيلي، ط. دار القلم بدمشق ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

هذا وقد سبق أن قلنا في الفصل الأول: إنه لا بد من القدوة الكاملة في اجتياز طريق الحياة الإنسانية، وقد تحقق ذلك في الإسلام باعتباره خاتم الأديان ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وخص الله ﷻ محمدًا ﷺ وحده -كخاتم النبيين- بوصفه «الأسوة الحسنة» فقال سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ونعود ههنا لاستكمال إحدى الحلقات في موضوع النبوة، فنظهر البراهين الدالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ مستخدمين في ذلك طريقتي عالمين من علمائنا؛ أحدهما شيخ الإسلام ابن تيمية (فيما بين القرنين السابع والثامن الهجريين: ٦٦١-٧٢٨هـ) والثاني الأستاذ محمد لطفي جمعة في العصر الحديث.

ونلاحظ أن الأول استخدم مصطلحات عصره المنطقية «المسلك النوعي- الشخصي»، بينما استخدم الثاني علوم العصر كالاجتماع والأخلاق والنفس في صد حملات التهجم والتشكيك، مستمسكًا ومعتزًا بعقيدته الإسلامية، ومتحديًا كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى وتلاميذهم من المتغربين والمفتونين والملحدين العصريين، كذلك لا بد من التنويه بمنهج العالم الفرنسي موريس بوكاي الذي عرضنا بعض لمحاته بأحد فصول الكتاب، وهكذا تبقى طرق الاستدلال العقلية والعلمية متاحة في كل العصور متضافرة لتجلية الحق.

المدخل العقلي لصدق نبوة محمد ﷺ

لقد حضَّ القرآن الكريم على التفكير في أمر النبي ﷺ، واستخدم ميزان العقل للتثبت من صدق نبوته عليه الصلاة والسلام؛ تدبروا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: أي قيامًا خاصًّا لله بلا محاباة ولا مراءاة اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا «ثم تتفكروا» أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر السموات والأرض، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرءوسين رغبة في

الإخاء والمساواة إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أي: جنون. مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقل كافٍ في ترجيح صدقه ... والتعبير عنه ﷺ بـ «صاحبهم» للإيماء إلى أن حاله معروف -مشهور بينهم؛ لأنه نشأ بين أظهرهم- بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو عذاب الآخرة والمآل[1].

كذلك الرسول ﷺ أيضًا عندما أعلن نبوته عقب صدور الأمر الإلهي إليه، استند إلى دليل عقلي، فقد ألقى إليهم سؤالًا أولًا -كما سيأتي- حتى يقروا بأمانته وصدقه ... أي المقدمة التي سيبني عليها النتيجة، فلما أقروها أعلن عليهم النبأ.

فقد نفذ الأمر الإلهي ﷺ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فصعد على الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فسألهم: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، كنتم مصدقيَّ؟**». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[2].

والحديث عن نبوة محمد ﷺ يتشعب بنا إذا لم نحصر حديثنا في جانب واحد من السيرة؛ لأنها أجلّ وأعظم من أن يحاط بها مؤلف أو مؤلفات على سعتها، فما من مؤلَّف من مؤلفات السيرة إلا جاء معبرًا عن أحد جوانبها دون الإحاطة بها جميعًا. وفي نطاق بحثنا المحدود سنختار مقتطفات من الأدلة على صدق نبوته ﷺ، منها وأولها معجزة القرآن الكريم التي عجز البشر وسيعجزون حتى قيام الساعة أمام التحدي الإلهي ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ [البقرة: ٢٤].

وإننا واجدون في إثبات النبوة نفس الطريقة التي يمكن بها أن نثبت أنواعًا من العلماء في البشر كالأطباء والفلكيين والأدباء والشعراء والنوابغ في ميادين المعارف

---

(١) القاسمي: محاسن التأويل، جـ١٤ ص٤٩٦٦، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، وعيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ابن الوزير اليماني: الذب عن سُنَّة أبي القاسم صلوات الله عليه جـ٢ ص١٣١ المطبعة السلفية.

والعلوم المختلفة، فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، والنبوة مشتملة على أشرف العلوم والأعمال)[1].

والمسالك للاستدلال على النبوة بالأدلة العقلية، نختار منها مسلكين، ومصدرنا شيخ الإسلام ابن تيمية مع الاختصار:

الأول: المسلك النوعي

وبه استدل النجاشي على نبوته ﷺ، فإنه لما استخبر الصحابة القادمين عليه فرارًا بدينهم من قريش عما يخبر به، واستقرأهم القرآن قال بعد سماعه لبضع آيات من سورة «مريم»: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ أي أنه عرف أن طبيعة الكلام تدل على وحدة المصدر، وبنفس الطريقة سبقه إلى ذلك ورقة ابن نوفل، عندما هرعت إليه السيدة خديجة ﵂ تسأله عن حقيقة ما حدث للنبي ﷺ فأجاب قائلًا: (هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى ﵇).

الثاني: المسلك الشخصي

وبه استدل هرقل ملك الروم عندما وجه أسئلته إلى أبي سفيان وهو حينئذٍ من أشد الناس بغضًا وعداوة للنبي ﷺ وموجز هذه الأسئلة هي:

- هل كان في آبائه ملك؟ فأجاب بالنفي.
- هل قال هذا القول أحد قبله؟ فأجاب بالنفي.
- هل هو ذو نسب فيهم؟ فأجاب بالإيجاب.
- هل يتهمونه بالكذب؟ فأجاب بالنفي.
- هل اتبعه ضعفاء الناس؟ فذكر أن الضعفاء اتبعوه.
- هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكر أنهم يزيدون.
- هل يرجع أحد عن دينه سخطة له؟ فأجاب بالنفي.

---

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص٨٢ وما بعدها.

➢هل قاتلوه؟ فأجاب بالإيجاب.

➢ما طبيعة الحرب بينهما؟ فأجاب بأنه يدل على أعدائه المرة والعكس مرة أخرى.

➢هل يغدر؟ قال: لا.

وكان هرقل يسأل أبا سفيان طالبًا ممن معه من تجار قريش إن كذب أن يكذبوه، فوجدهم موافقين له في إجاباته، وأخيرًا سألهم: بماذا يأمركم؟ قالوا: (يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة).

ثم بيّن لهم في النهاية دلائل أسئلته، فقد سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآه منتفيًا، وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة، إذ لو كان في آبائه ملك لقال رجل يطلب ملك أبيه، كذلك فإن تفرده ﷺ بدعوته يدل على أنه بخلاف ما هو معتاد من اتباع الرجل لعادة آبائه واقتدائه بمن كان قبله -وهذا يحدث كثيرًا في المجتمعات الإنسانية- أما إذا طلب أمرًا لا يناسب حال أهل بيته فإن هذا نادر في العادة؛ لكنه قد يقع، ولهذا أردفه بالسؤال عما إذا كانوا يتهمونه بالكذب، فلما علم صدقه قال: إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق، فمن علامات الرسل اتباع الضعفاء لهم.

وسألهم هل يزيدون أم ينقصون، فقالوا: بل يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألهم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه، وأيقن من إجابتهم بالنفي أنه نبي؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون؛ لأن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر فيرجع أصحابه عنه، فالمتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة.

وفي الحرب علم أنه تارة يغلب كما غلب يوم بدر وتارة يُغلب، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون العاقبة لها فإن سُنَّة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء؛ لينالوا درجة الشر والصبر، كما علم من إجابتهم أنه لا يغدر فكذلك الرسل فإنها لا تغدر أصلًا إذ الغدر قرين الكذب، وتعرف على صدقه أيضًا من أمره ﷺ بعبادة الله وحده والصلاة

والصدق والعفاف والصلة، وينهاهم عما كان يعبد آباؤهم وهذه صفة النبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: (وقد كنت أعلم أن نبيًّا يُبعث، ولم أكن أظن أنه منكم ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما يقول حقًّا فسيملك موقع قدمي هاتين)[١].

ونضيف إلى ذلك أن الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية -وما لها ارتباط بعلم النفس والاجتماع والأخلاق- كلها تؤيد أنه النبي الصادق حقًّا، وإن كان هذا يتطلب دراسة قائمة بذاتها كما فعل كثير من كبار علمائنا[٢] إلا أننا نختصر هنا الكلام اختصارًا؛ لكي نبرهن على أن المدخل العقلي للعقيدة الإسلامية يتجلى في آياته القرآنية، وصدق رسوله ﷺ إذا ما نظرنا إليه بعين الإنصاف والتجرد للبحث عن الحق.

كما تحدثنا من قبل عن تعذر الإحاطة بسيرة الرسول ﷺ في كتاب، فما بالنا بعدة صفحات؟

ومع هذا فإنه مما يتصل بدراستنا فحص الآراء التي يلف حولها بعض كتاب الإفرنج ويدورون، لنخرجهم من هذه الدائرة المضللة إلى نور الحق وضيائه، وهذه الآراء لا تخرج في مجملها عن محاولتهم -بطريقة فجة، بل مضحكة- إما اصطناع صلة بينه ﷺ وبين الأديان والثقافات السائدة حينذاك في بيئته أو المساس بالقرآن الكريم أو النيل من صفاته الشخصية ﷺ.

وبمراجعة صفحات كتب السيرة، سنجد -بحمد الله تعالى- ما سبقنا به علماؤنا من مواجهة حاسمة مفحمة لكل ما دندن حوله أعداء الإسلام، وكانت نتيجة المواجهة في صالح الحق والعدل.

---

(١) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية من ص٨٢-٨٦، مطبعة الكردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ.

(٢) منهم الأستاذ محمد لطفي جمعة -الذي رجعنا إليه في هذه الصفحات- مع العلم بأن كتابه في السيرة يمتاز بأنه نتاج اطلاع واسع وغزير جدًّا -يكاد لا يبارى في العصر الحديث- مع عمق دراسته تحليلًا ومقارنة وردًّا على علماء الإفرنج، ويقع كتابه في نحو ١٠٥٧ صفحة من القطع الكبير، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م بعنوان: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله.

وسنعرض لهذه الآراء بحسب ترتيبها:

١ – الثقافة في البيئة المكية.

٢ – اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث.

٣– خلقه ﷺ

ا- الثقافة في البيئة المكية

ومن هذه الأدلة أن العرب كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم، ومبادئ التشريع وعلوم الفلسفة، وأن مكة عاصمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخر بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب، لم يكن بها مدرسة ولا مكتب ولم يوجد بها كتاب مخطوط، فكيف يهيأ لرجل مثله، وفي مثل هذه البيئة الجاهلة، أن يجيء بدين تام وكامل، وشرع عادل عام[1].

إن الدراسة المقارنة للعقائد والأديان والنظم تصل بالباحث إلى سمو المعتقدات والأحكام والعبادات والآداب التي جاء بها محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يصل إليها عقله وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون ذلك بوحي من الله تعالى، ثم إن ما جاء به من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم كان أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحيًا.

ولو كانت النبوة أمرًا كان يرجوه محمد ﷺ، وكان قد أتم استعداده له باختلائه وتعبده -كما يزعم ذلك بعض المستشرقين- ما كان قد حدث له ما حدث من رجفة هائلة ولما عاد إلى زوجته مرتجفًا تصطك أسنانه وترتعد فرائصه ويسيل عرقه، بل كان ينزل إلى أهله فرحًا طروبًا متشجعًا غير هياب ولا وجل، مثل كل رجل يجد الأمر الذي يسعى إليه ويطلبه.

ولكن الذي حدث أنه بعد نزول سورة «العلق» انقطع عنه الوحي ثلاث سنوات

---

(١) محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، ص٥٤٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

تباعًا، وكان في هذه الأعوام الثلاثة -وهي التي يسمونها فترة الانقطاع- ساكنًا هادئًا لم يتل فيها على الناس سورة ولا آية، ولم يدع أحدًا إلى شيء ولا تحدث إلى أهله ولا إلى أصدقائه بشيء؛ لأنهم لم ينقلوا عنه شيئًا، فهذا السكون وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

أما قصة بحيرا الراهب فقد ضعفها بعض العلماء -أمثال عبد العزيز بن راشد النجدي ورشيد رضا ومحمد لطفي جمعة- لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أن محمدًا ﷺ سمع من بحيرا شيئًا عن عقيدته أو دينه، ولم يكن بحيرا -إن وجد حقيقة- ساذجًا إلى درجة أنه فاتح صبيًّا صغيرًا بمثل هذه الأسرار العليا.

ومن أبعد الروايات عن الإقناع، ادعاء خصوم الرسول ﷺ أنه تلقى ما تلقاه من حداد رومي بمكة، فمن المضحك ألا يجد النبي ﷺ معلمًا إلا في شخص الحداد، ولعل محمدًا كان يراه في السوق فيقف عليه ليرى صنعته، ولم يفقه لغته ولا يمكنهما التفاهم؛ ولذا جاء في القرآن ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وبالجملة لم يجد النُّقَّاد شخصًا يليق في مكة بأنه يكون أستاذًا لمحمد؛ لأن مكة بها يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لسادتهم العرب؛ لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لأحد من ذوي الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا في مكة، وهي حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم، وإن كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم؛ لأنهم في حاجة إليهم، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة؛ ولكنهم جهلاء ولا يُتصور أن محمدًا ﷺ يتنزل أو يتدلى إليهم ليتتلمذ أو يتلقى عنهم رسالته[1].

ومما يدحض أيضًا هذه المفتريات الصادرة عن خيالات كتابها أن ندرس تاريخ رسالة الأنبياء عليهم السلام منذ إبراهيم عليه السلام مع التخلص من الروح العنصرية في البحث؛

---

(١) وينظر د/ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم -دار القلم بالكويت ص٦٤/ ٦٥ ط ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

لذلك فإن استيعاب هذا التاريخ بنظرة شاملة كلية يتطلب -كما يرى جارودي- التخلي عن النزعة الغربية الإقليمية الضيقة واستيعاب ما جاء به الأنبياء عليهم السلام الذين أكملوا رسالة إبراهيم، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويستطرد فيلسوفنا قائلًا: وحينئذٍ يتاح لنا أن نفهم أسباب استبدال المسيحية الناهضة باليهودية المتحجرة، كما يتاح لنا أن نفهم السبب الذي من أجله أصبحت المسيحية خيالية مشوهة، بفعل سياسة الإمبراطور قسطنطين، تلك السياسة التي قلبت المسيحية رأسًا على عقب، إن مفهوم نظام الكهنوت الروماني المنشأ، والذي صُنع فيها بعد بصيغ يونانية ثم أقره مجمع «نيقيا» كعقيدة روحية لاهوتية، والذي سرعان ما تصدَّع وتشظَّى إلى شيع عديدة لم يستطع أن يقاوم البديل التاريخي وهو الإسلام[1].

أي: إنه ﷺ جاء بعقيدة ليصحح العقائد التي انحرفت على أيدي اليهود والنصارى بعد إبراهيم عليه السلام.

فكيف يقال إنه جاء مقلدًا لهذه الانحرافات، آخذًا عنها؟

٦- اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث

يقول أحد كتاب السيرة المعاصرين: إني أتخذ من الاختلاف في الأسلوب بين القرآن والحديث دليلاً علميًّا وعقليًّا وأدبيًّا على صحة الوحي، ويشرح ذلك بالرد على الزاعمين انتحال الرسول ﷺ القرآن لنفسه، إذ لو فعل ذلك؛ لكان أدعى إلى الفخر والمباهاة والشهرة وذيوع الصيت؛ لدلالته على القدرة الباهرة في نظم الكلام وتأليفه والاطلاع على علوم الأولين والآخرين، وأيضًا الوقوف على أسرار الكون والعالم بما لم يسبق لأحد من الحكماء والمشرعين من قبل؛ ولكن هذا الكذب لا تقبله نفس محمد ﷺ ولا ترضاه سريرته ولا يتحمله ضميره فضلًا عن أنه لو كان القرآن هو كلامه ما تمكن من التفكير في أسلوب آخر ينطق به في أوقات أخرى؛ خصوصًا أن القرآن كان يأتيه ويهبط عليه في أحوال شاذة من كرب وضيق وعرق ورجفة، وقد تواتر الصدق في رواية صفته عندما كان يجيء الوحي على هذه الحال، وهي حال استثنائية لا يمكن فيها للكاتب أو المفكر أو

---

(١) جارودي: ما يعد به الإسلام ص٢٤٠.

الشاعر الذي أحوج ما هو إليه أن يملك زمام نفسه واعتدال مزاجه، في حين أن حديثه وجوامع كلمه ومواعظه ونصحه كان ينطق بها وهو على أشد ما يكون راحةً وهدوءًا وسلامة بدن وسكون بال[١].

ويقرر الأستاذ محمد لطفي جمعة -بعد الاستشهاد بأقواله وخطبه وحكمه التي ملأت الآفاق وأصبحت من السنن التي شرعها الله تعالى على يديه -أن من أقوى الحجج على صدق الوحي المحمدي وأوضحها وأجلاها وأظهرها أن حديث النبيﷺ الصحيح وجوامع كلمه وحكمه الوجيزة الصائبة وأجوبته المقنعة -وقد سارت كلها مسير المثل، وقيلت بجملتها عفو الساعة- دالة على حضور بديهته وصفاء نفسه وقوة ذهنه، كانت جميعها تختلف اختلافًا بيّنًا عن ألفاظ القرآن ومعانيه[٢].

٣- خلقه ﷺ

فإذا صعَّدنا النظر إلى خلقهﷺ سحرتنا الآيات الباهرات بحيث يصدع لها كل إنسان سليم الفطرة، خلا قلبه من الدغن وشهوات الهوى والزيغ، وابحث في سيرته فلا تجد إلا كل خُلق عظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقد تفرَّد بهذا الوصف بلا منازع دون الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا- وعن الرحمة في قوله ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال: هذا خُلق محمدﷺ، نعته الله ﷻ وسُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: القرآن[٣].

وسنختار في هذا الحيز ثلاثة نماذج فقط من بين مئات الشواهد الدالة على خلق النبوة الحقة، وهي التي أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»:

١- جلست جاريات يضربن بالدف في صبيحة عرس، وجعلن يذكرن آباءهن شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غدٍ فقالﷺ: «**لا تقولي هكذا،**

---

(١) انظر محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياءﷺ ص٥٤٧- ٥٥٠- ٥٥٨، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م.

(٢) نفس المصدر ص٥٧٤.

(٣) الأصبهاني: أخلاق النبيﷺ وآدابه ص٢٠. تحقيق أحمد محمد موسى، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢م.

وقولي ما كنت تقولين» رواه الإمام البخاري، ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٢- وكان عبد الله بن أبي السرح، أحد النفر الذين استثناهم النبيﷺ من الأمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام، فلما جاء النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان ﷺ ثلاثًا، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: هلا أومأت لنا يا رسول الله. فقالﷺ: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**». رواه أبو داود والنسائي.

٣- ولما توفي عثمان بن مظعون ﷺ قالت أم العلاء «امرأة من الأنصار»: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله فقالﷺ: «**وما يدريك أن الله أكرمه؟**». فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: «**أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي**». قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا. رواه البخاري والنسائي. ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

لم يتخفَّ إذن وراء الدهاء أو السياسة ولم يسمح لنفسه بأن يقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، أو حكم التاريخ عليه، إذ منعه خُلقه العظيم وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

ومهما جال الباحث في صفحات السيرة النبوية فلن يعثر إلا على الصفاء والصدق والإخلاص في كل قول من أقوالهﷺ، وفي كل فعل من أفعاله، بخلاف سيرة صنوف البشر جميعًا، إذ نرى الناس يدرسون حياة أساطين الفكر والأدب والفن والشعر، فتعطينا صورًا معبرة عن عقائدهم وعوائدهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم، ولا يمنعهم زخرف الكلام والشعر وطلاؤه عن استنباط دخائلهم والكشف عن حقيقة سرائرهم، ذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان فتُقرأ بين السطور وتعرف في لحن القول، ومهما تصنَّع الإنسان العادي فلا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه، ما

عدا سيرة النبي الصادقﷺ، إذ كان الناظر إليه إذ حسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه، ولو لم يتكلم أو يعمل؛ ولهذا شرح الله صدر الكثيرين دون أن يسألوه، منهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته: قالت له السيدة خديجة عند بدء الوحي تطييبًا لنفسه المكروبة بهذه الكلمات الدالة على صدق حدسها فوصفت خلاصة أخلاقه: (أبشر يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وكذلك منهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه، قال عبد الله بن سلام ﷺ: (لما قدم رسول اللهﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: «قدم رسول الله، قدم رسول الله» فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول اللهﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب) رواه الترمذي بسند صحيح[1].

* * *

---

(١) انظر د/ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص٣٢: ٣٥، دار القلم، الكويت «نظرات جديدة في القرآن» ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.



الفصل الثامن

مجمل البرهان على ظهور الإسلام

جاء بكتاب «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣] قوله: يصح أن يكون من البروز وأن يكون من المعاونة والغلبة أي: ليغلبه على الدين كله[١].

وفسَّر الشيخ عبد الجليل عيسى الظهور في الآية الكريمة بأن: يعليه بقوة البرهان، وسلامة التعاليم[٢].

وسيتضح الظهور بالبرهان بأوضح بيان إذا ما ختمنا بحثنا باقتطاف بعض ثمراته بعد المقارنة بين الإسلام والأديان بمنهج موضوعي.

ونلخص أوجه البرهان في المزايا التالية[٣]:

أولًا: التوثيق العلمي للمصادر

ظهرت في القرن التاسع عشر بأوروبا ثورة ثقافية سُمِّيت بظهور فن النقد الأعلى «Higher Cristisism» والأثر المباشر لهذا الفن كان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخيًا[٤].

إن كل مَن يتتبع خطوات وإجراءات حفظ القرآن حفظًا في الصدور وكتابةً وتدوينًا يستطيع أن يستوثق بشكل كامل أنه لا توجد ثغرة ينفذ منها أي طاعن.

يقول مايكل هارت: والقرآن الكريم نزل على الرسولﷺ كاملًا، سُجِلت آياته وهو ما يزال حيًّا، وكان تسجيلًا في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد، وليس في

---

(١) المفردات جـ٢ ص٤١٤ مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) المصحف الميسر، الشيخ عبد الجليل عيسى، دار الشروق سنة ١٣٩١هـ ط.٥.

(٣) وقد سبق نشرها بكتابنا «أضواء على ثقافة المسلم المعاصر» ط. دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، نعيدها ههنا لصلتها الوثيقة بعلم مقارنة الأديان.

(٤) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، وحيد الدين خان، ص٢٥٧ ترجمة د/ سمير عبد الحميد، دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

المسيحية شيء مثل ذلك، فلا يوجد كتاب واحد مُحكَم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم[١].

ومن هنا فلا سبيل أيضًا إلى تشبيهه -كما يقرر الدكتور حسن ظاظا العالم المتخصص في دراسة اليهودية -من قريب أو بعيد بالنصوص المقدسة التي بين أيدي اليهود، فالعهد القديم استغرق أجيالًا من الأنبياء المتعاقبين على طيلة ألف سنة تقريبًا، كذلك المشنا والتلمود استغرقتا ألفي سنة وهي فترة لا يمكن تصويرها مجتمعين متشابهين، أحدهما يلي طرفها الأول والثاني على طرفها الأخير[٢].

ولا تسلم الأناجيل أيضًا من المطاعن باستعمال منهج النقد العلمي من حيث اتصال السند والتوثيق، فإن الإنجيل الأول المنسوب إلى «متَّى» كُتب أولًا باللغة «الآرامية»؛ ولكن ليس لدى النصارى منه إلا الترجمة اليونانية بلا معرفة للمترجم وبلا سند كامل متصل: (وإنما يأخذون بالظن فيقولون: لعله فلان أو فلان ويتمسكون بِقَرائن لا تجزئ، مثل اتفاق هذه الكتب في بعض مضامينها وشهادة بعض تابعي الحواريين بوجود بعضها في القرن الأول والثاني، ثم اشتهارها في أواخر القرن الثاني وابتداء القرن الثالث، وهم يعتذرون عن ذلك بأنها كتبت في ظلال السرية؛ بسبب الاضطهادات التي حلَّت بأسلافهم)[٣].

أما «لوقا ومرقس» فلم يريا المسيح عليه السلام أصلًا، أما «متَّى ويوحنا» فمُختَلَف في رؤيتهما له، والمحققون يُرَجِّحُون عدم الرؤية[٤].

وقد اتفق كُتَّاب المسائل النصرانية بدائرة المعارف الفرنسية -على أن التحقيق

---

(١) «الخالدون مائة، أعظمهم محمد ﷺ» ترجمة: أنيس منصور ص١٧، المكتب المصري الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٤م.

(٢) الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه ص١٣، د/ حسن ظاظا، دار القلم، دمشق دار العلوم والثقافة، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، عبد الوهاب طويلة ص١٣٢/ ١٣٣، ط. دار السلام بالقاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٤) نفسه ص١٣٤.

العلمي والتاريخي يؤكد أن هذه الأناجيل كتبها أشخاص غير الحواريين والتابعين الذين نُسِبَت إليهم [١].

ثانيًا: خلوّ الإسلام من الكهنوت

يرجع ظهور الكهنة تاريخيًا إلى مرحلة ظهور الأنبياء عند اليهود، فقد اشترك الكهنة مع الأنبياء حينئذٍ بادعاء الوحي وتقديم النصائح.

ولكن الفرق بينهما هو بُعد الأنبياء عن المعابد، وانقطاع صلاتهم بالهيكل أو القرابين، ويتضح التمييز بأن الكهانة وظيفة تعارض النبوة في كثير من الأوقات[٢]، كما كان النزاع بينهما قائمًا دائمًا، حيث كان الكهنة يحقدون على الأنبياء؛ لتدخلهم في الشئون الدينية محاولين الانفراد بهذا المنصب (وليس الخلاف الذي حدث بين عيسى عليه السلام وكهنة الهيكل إلا حلقة من حلقات مماثلة بين الأنبياء والكهنة)[٣].

وينتسب الكهنة إلى أبناء ليفي -أحد أبناء يعقوب عليه السلام- ولا يَصِلُون إلى الكهنوتية إلا بعد تدريبات ومعرفة الطقوس والأسرار الدينية لإثبات الاستحقاق لهذا المنصب، ومن طريقهم تُقَدَّم القرابين كما تُقَدَّم لهم العشور من نتاج الضأن، وأصبحت ثروتهم مقدسة وشخصيتهم الوسيلة إلى الله، فصاروا أقوى من الملوك في كثير من الأحوال[٤].

هذا، وقد كان المجتمع الكهنوتي الذي يدير شئون اليهود الواسطة بين الناس وبين الله، فلا تُقبَل التوبة ولا القرابين إلا إذا باركها الكاهن، وقد جاء عيسى عليه السلام للقضاء على نفوذهم؛ ولكن للأسف أصبح القساوسة بعده يمثِّلون نفس الدور الذي مثَّله كهنة اليهود من قبل.

وجاء الإسلام ليُبطِل ذلك كله، واستقرت في العقيدة الإسلامية حقيقة النبوة الصادقة، حيث أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء والرُّسُل وصفاتهم وأخلاقهم

---

(١) نفسه ص١٣٥.

(٢) أبو الأنبياء عليه السلام للعقاد، كتاب اليوم ١٩٥٣م.

(٣) اليهودية د/ أحمد شلبي ص٢٠٢ مكتبة النهضة ١٩٨٨م.

(٤) السابق ص٢٠٣ باختصار.

ورسالاتهم، وتحققت في شخصية الرسول ﷺ صفات النبي الخاتم.

وبحسب اصطلاح أحد الدارسين لعلم مقارنة الأديان، يرى أنه (في الإسلام، كل إنسان هو كاهن نفسه، بمجرد أن يكون مسلمًا، هو الإمام والخليفة في عائلته، وهذا انعكاس للجماعة الإسلامية كلها)[١].

ثالثًا: المنهج الاستدلالي للإسلام مستمد من مصادره

بناءً على الدراسة المُسْتوعَبَة للأدلة بالكتاب والسُّنَّة يستخلص ابن تيميَّة أن القرآن اشتمل على أصول الدين وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية، والرسول ﷺ أُنزل عليه الكتاب والحكمة؛ والحكمة كما فسَّرها غير واحد من السلف: هي السُّنَّة، أو هي معرفة الدين والعمل به؛ لذلك فإن الكتاب والسُّنَّة وافيان بجميع أمور الدين[٢].

ويعتمد ابن تيمية في استنتاجاته على آيات من الكتاب؛ لأن الله تعالى علَّم الإنسان البيان، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] والبيان: بيان القلب واللسان، كما أن الصمت والبَكَم في القلب واللسان، كما قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

والميزان التي أنزلها الله مع كتابه ميزان عادلة، تتضمن اعتبار الشيء بمثله، وخلافه فتسوى بين المتماثلَين وتُفرِّق بين المُخْتَلِفَين، بما جعله الله في فِطَر عباده وعقولهم من معرفة التماثُل والاختلاف.

ولذلك يوصف هذا المنهج بأنه شرعي عقلي باعتبار أن الدليل الشرعي مستمَد من الشرع، وأنه متَّفق مع العقل أيضًا، هذا فضلًا عن الصفة الجامعة للشريعة لمصالح الدنيا والآخرة، فهي جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي (كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات

---

(١) الإيمان والإسلام والإحسان في مقارنة الأديان، فرتجوف شيئون ص٧٢ ترجمة نهاد خياطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ١٩ ص١٦٩ وما بعدها باختصار.

والأعمال والقياسات والأحكام والولايات والعطيات[١] وظلت هذه القاعدة المنهجية ثابتة لم يمسَّها تقلب الأزمان أو تعاقب العصور حتى عصرنا هذا، فقد قام في العصر الحديث موريس بوكاي «الطبيب النفسي الفرنسي» بدراسة مضامين الآيات القرآنية المتصلة بظواهر كونية، كخلق السموات والأرض، أو خلق الإنسان وأطوار حياته، منذ كونه جنينًا في بطن أمه، أو ممالك النبات والحيوان والطيور والحشرات أو الأرض بجبالها ووديانها وأنهارها ومحيطاتها وبحارها. واستخلص بوكاي من دراسته توافق القرآن مع معطيات العلم الحديث، مستبعدًا تمامًا اتصالها بمعلومات عصر التنزيل، ومؤكدًا بالأدلة أنها تتضمن ما عرفه العلماء المتخصصون -كلٌّ في مجاله- في العصر الحديث، وبذلك أصبح الاستدلال بالقرآن الكريم نفسه من أنسب الطرق -بل أفضلها- للنفاذ إلى عقول أهل العصر الحاضر، الذي احتل فيه العلم ومنجزاته النصيب الوافر في حياة الإنسان.

يقول بوكاي: (إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان وعالم النبات والتناسل الإنساني، وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ.

وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسان كيف استطاع في القرن السابع الميلادي من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟[٢] أما الدارس لتاريخ النصرانية العقائدية فسيقف على منهج مخالف تمامًا، إذ اعتمد رجال الكنيسة على الفلسفة اليونانية لشرح العقائد النصرانية؛ ففي كتاب «سقراط إلى سارتر» يقول المؤلفان: فالكتب المقدسة أصبحت تؤيدها تعاليم أرسطو «ذلك المسيحي الميتافيزيقي الذي لم يسمع بالمسيحية قطُّ»، ويقصدان بذلك أن المسيحيين -وفي مقدمتهم القديس توما الأكويني- ألبسوه ثوب العقيدة، أو أنهم غلَّفوا العقيدة النصرانية بفلسفته، وهذا بالضبط ما عنياه بقولهما في الفقرة التالية من الكتاب نفسه. (لقد

---

(١) السابق ص٣٠٨.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م. ويُنظر الصفحات من ١٦٣ إلى ١٧٤ من هذا الكتاب.

جيء بفلسفة أرسطو من العالم الوثني إلى العالم المسيحي لتثبيت العقيدة الأساسية للفقه الكاثوليكي... إن الأقنوم الثاني «الكلمة» قد تجسَّد في المسيح، فالصورة عند أرسطو هي ألوهية المسيح، والمادة عند أرسطو هي «لحمه» ويؤكد وجود الله «تعالى» لا عن طريق الإيمان القلبي بل عن طريق العقل ... إنه الفيلسوف القدِّيس يذود عن الدين بقوة البراهين الفلسفية)[(١)].

كذلك يذكر بارتولد أن مبشري النصارى اضطرُّوا إلى استخدام الأدلة الفلسفية في نزاعهم مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية (فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة كان أعظمها في الإسكندرية وأنطاكية، فأما الذي في أنطاكية فيعتمد على أرسطو وأما الذي في الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون)[(٢)].

رابعًا: المسلمون دينهم واحد

ويعني بذلك اتفاقهم على معرفة أصوله وأركانه وفرض العمل بها، وربما لا يعرف المسلمون هذه الميزة في دينهم إلا إذا قارنوا بين تصورهم لدينهم وتعريفهم له مع اختلاف مذاهبهم الفقهية وبين عقائد النصارى، فقد ظلت الحضارة الغربية محصورة وراء قضبان المفاهيم الدينية التي عرفتها منذ اليونان وهي:

١ - دين اليونان والرومان.

٢- النصرانية.

٣- دين الإصلاح، وهو وصف لما أدخله لوثر على النصرانية.

٤- الدين الطبيعي، من اختراع أوجست كونت[(٣)] وسُمي أيضًا بمذهب الألوهية الطبيعية، أي إقامة عقيدة على الأساس الطبيعي بالاستغناء عن الوحي والتعاليم المنزَّلة.

---

(١) من سقراط إلى سارتر، هنري توماس ص١٠٠، ١٠٤، ١٠٧ ترجمة عثمان نويه، الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ف. بارتولد ص٤٧، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م.

(٣) الإسلام تشكيل جديد للحضارة، الأميني ص٣١، ٣٤، ترجمة د/ مقتدى حسن ياسين، مراجعة د/ عبد الحليم عويس دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

وقد انعكست آثار هذا الخليط على التصورات والمفاهيم للدين مما يجعله مجموعة من الأفكار والنظريات تتزاحم فيه الموروثات من المجتمعات الوثنية اليونانية، وزادها غموضًا اختلاف النصارى في تصورهم للألوهية، والقصور في تعريف النبوَّة وتقديرها حق قدرها، ثم الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة مارتن لوثر وكالفن وتعدد الأناجيل.

ولا نعثر على تلك العقبات في طريقنا للبحث في الإسلام، إذ لو أزاح الباحث عن نفسه عقبات العقائد الموروثة، ونحَّى عنها التعصب الديني وتحرر للبحث عن الحقيقة بإخلاص فسيسهل عليه الوقوف عليها من أكثر الطرق؛ لأنه بالرغم من تنوُّع طرق المسلمين ومذاهبهم -كما يذكر ابن تيمية- إلا أن دينهم واحد، كلٌّ منهم يعتقد ما يعتقده الآخر، ويعبده بالدين الذي يعبده، ويسوِّغ أحدهما للآخر أن يعمل بما تنازع فيه من الفروع ... وتلخيص الأمر في هذا المقام إنما هو تفضيل قول وعمل على قول وعمل، بالأقوال والأعمال المختلفة لا بد فيها من تفضيل بعضها على بعض عند جمهور الأمة[١].

ونأتي بشهادة نصر بن يحيى «المهتدي للإسلام، وكان قسيسًا» إذ تحقق بنفسه أن اختلاف المسلمين يقتصر على فروع الدين، بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم، وأنه ﷻ واحد لا شريك له ولا ولد له، خالق الخلق كلهم، ثم اتفاقهم على نبيهم محمدﷺ وعلى القرآن المجيد، وأنه كتاب الله المنزَّل على نبيه ﷺ، لا يختلفون في ذلك (فإذا صحَّ اتفاقهم على هذه الأصول كان ما سواها سهلًا لا يقع معه كفر ولا يبطل به دين، وإنما البلاء العظيم الاختلاف في المعبود)[٢].

خامسًا: ازدهار العقيدة الإسلامية في ضوء الاكتشافات العلمية

أحدث المذهب المادي -بسبب سلطان النظام الماركسي- بعض البلبلة الفكرية في نظرية المعرفة، إذ افترض أن المادة الظاهرة أمامنا هي الحقيقة النهائية أو الوحيدة ولكن

---

(١) دقائق التفسير جـ٢ ص٣٢٦ جمع وتحقيق: د/ محمد الجليند، دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢) النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى، ص٥٥، تقديم وتحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

سرعان ما أسفرت البحوث العلمية عن تهافت هذا الفرض أمام عدَّة براهين، نكتفي منها باثنين:

١ - تطور الوسائل العلمية في البحث، واستخدام المخترعات الحديثة التي ضاعفت قدرات الأسماع والأبصار -كاللاسلكي والتلسكوب والمجهر- فتضاعفت الموجودات ما كان يعرفها الإنسان بإدراكاته الحسِّية الفطرية وحدها، وفي هذا المجال يقول د/ أحمد زويل: (يقسم علماء الكيمياء والفيزياء الكائنات إلى كائنات مرئية وكائنات غير مرئية؛ الكائنات المرئية هي التي يمكن رؤيتها رغم اعتراف العلم بوجود حياة في هذه الكائنات لوجود أثر تدل عليه، فهي تتحرك وتتناسل وتموت...) إلى أن يقول: (استطعت تصوير حركة «الجُزِيء» التي تثبت بها لا يدع مجالًا للشك أن الجُزِيء كائن حي يعيش ويتنفس ويتحرك)، أي: إنه أثبت وجود حياة الجُزِيء باعتباره أهم مكونات الحياة وأصل «المادة»[(١)].

وبهذا البرهان القطعي تحوَّلت المادية إلى «خرافة»!

كذلك أثبت العلماء المتخصصون بتجاربهم: (أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة، ويمكن أن تُستنبط مظاهرها فقط)[(٢)]، ويقرِّب لنا أحد العلماء هذا التصور بما تنص عليه الحقيقة الخامسة في ميكانيكا الكم أن (العالم يخضع لنوع من التفسير المنطقي مغاير للتفسير البشري له)[(٣)].

٢ - الاتجاه الملاحظ في التاريخ العلمي، وخلاصته أن القضايا العلمية أخذت منذ بداية هذا القرن طابع العموميات، وأصبحت النظريات المعتمدة سابقًا على الفرضيات والإدراكات الحسِّية حالات خاصة ضمن نظريات أعم وأكثر شمولية، ويقول

---

(١) مقال بعنوان «العالم المصري أحمد زويل يعيد أمجاد حضارة العرب الزاهرة» اكتشف زمنًا غير زماننا المعهود، حصل به على أكبر وسام علمي في العالم، بقلم محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني، ص٣٠ مجلة التصوف الإسلامي محرم ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام، وحيد الدين خان ص٢٤٦.

(٣) الحقيقة المطلقة، الله والدين والإنسان، ص١٢٣ د/ مهندس محمد الحسيني إسماعيل، مطابع الأهرام ١٩٩٥م.

الدكتور/ محمد الحسيني بعد سرده للتاريخ العلمي للنظريات: (فهناك إيمان الآن يكاد يكون مشتركًا بين جميع علماء الفيزياء بأننا نتجه بُخطى واضحة نحو نظرية شمولية واحدة كافية لتفسير جميع الظواهر أو الحقائق الكونية بل أصبحت تأخذ طابعًا غيبيًا بدرجة كبيرة)[1].

وما دام العلم قد أثبت استحالة مشاهدة الحقيقة في شكلها الأخير فإن ذلك يقوِّض دعائم المذهب المادي من أساسه، ويعضد عقيدة الإسلام بالإقرار بأن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله ﷻ أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا.

ونأتي أخيرًا بشهادة أحد علماء الفيزياء المرموقين، حيث يشرح فكرة الخلق من العدم بأسلوب علمي، فيقرر أن عددًا متزايدًا من علماء الكونيات يعتقدون اليوم أن القيمة الأكثر احتمالًا لكثافة المادة والطاقة في الكون هو القول بأن كتلة الكون تنتهي في مجموعها إلى الصفر على وجه التحديد، ويضيف إلى ذلك أنه (إذا كانت كتلة الكون هي الصفر فعلًا وهي يمكن التحقق منها إمبريقيًا «تجريبيًا» فإن الكون يشارك حالة الخواء؛ أي خاصية «انعدام الكتلة» وظهر منذ عشر سنوات استقراء جود الذي يعتبر أن الكون عبارة عن تقلبات كمية للخواء، وهي حالة من اللاشيئية في المكان والزمان خُلِقَت من العدم)[2].

وهكذا جاءت الكشوف العلمية كالبينات تفتح أعيننا على هذه الحقائق، وتمد العقائد الإسلامية بما يؤهلها للنفاذ إلى عقل الإنسان وهو يستقبل القرن الواحد والعشرين لها.

سادسًا: حقيقة النبوة ودلائل صدق نبينا محمد ﷺ

وسنتوسع في شرح الاستدلال على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، لكن نشير فقط هنا إلى أمرين:

---

(١) نفسه.

(٢) المسلمون والعالم، د/ محمد عبد السلام «حائز على جائزة نوبل» ترجمة د/ ممدوح كامل الموصل، كتاب الغد بالقاهرة ١٩٨٦م.

(أ) إحدى بشارات الكتاب المقدس

فقد ورد في إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام قال: (إن أركون العالم سيأتي، وليس لي شيء).

والأركون بلغتهم -كما يذكر ابن تيمية- عظيم القدر، فقول المسيح عليه السلام: «أركون العالم» إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم، وكبير العالم.

(ب) دوره ﷺ في تغيير العالم

ومن المعلوم باتفاق أهل الأرض -كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية- أنه لم يأتِ بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهرًا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته، في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا أحد غير محمد ﷺ، فإن الملوك يطاعون ظاهرًا لا باطنًا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعةً يرجون بها ثواب الله في الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله في الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء، وربما يأتي معارضون ليقولوا: إن وصف ابن تيمية صحيح في عصره وما قبله حيث ساد المسلمون العالم عسكريًا وحضاريًا وثقافيًا ونفوذًا، فأين هم الآن؟

وقد أجاب ابن تيمية ضمنًا على هذا التعليق في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

ورأى شيخ الإسلام أن ظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان، إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل عن محمد ﷺ من آياته التي هي الأدلة، وشرائعه التي هي المدلول، والمقصود بالأدلة، فهذا قد أظهره الله علمًا وحجةً وبيانًا على كل دين، كما أظهره قوةً ونصرًا وتأييدًا على كل دين[1].

أما قوله: (لم يأتِ بعد المسيح من ساد العالم، باطنًا وظاهرًا وانقادت له القلوب والأجساد... إلخ. فقد تأيد بالمنهج الذي اتبعه الباحث الأمريكي مايكل هارت بكتابه «الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ» حيث أجاب بدوره على الدهشة التي سيُبديها البعض بوضعه للرسول ﷺ على رأس القائمة فقال: (وربما شيئًا غريبًا حقًا أن يكون الرسول ﷺ

---

(١) الجواب الصحيح جـ٤ ص٢٤٣. ابن تيمية.

في رأس هذه القائمة، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين، وربما غريبًا أن يكون الرسول عليه السلام هو رقم واحد في هذه القائمة، بينما عيسى عليه السلام هو رقم ٣ وموسى عليه السلام رقم ١٦).

ولكن لذلك أسباب؛ من بينها أن الرسول ﷺ كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في الديانة المسيحية، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق وهو أيضًا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب «العهد الجديد».

أما الرسول ﷺ فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصوله الشرعية والسلوك الاجتماعي والأخلاق وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية، كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده، وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم[1].

والكلام عن النبوة متشعب المسالك والطرق يقتضي الحديث عن التعريف بأنبياء الله تعالى ورسله وأدلة صدقهم وطبيعة رسالتهم وشرائعهم والحكمة من بعثهم والتمييز بينهم وبين الأنبياء الكذبة أو الكهنة وغير ذلك من قضايا أخذت مكانتها في كتب علماء المسلمين كأحد المداخل الرئيسية لمنهج دراسة الأديان والعقائد.

ولعل المختصر الذي أورده نجم الدين البغدادي «٧١٦هـ» يغنينا عن الإسهاب حيث عالج فيه:

١- حقيقة النبوة، فإنها وحي صادق، نافع للناس، تكشف عن الغيب الذي يعجز الإنسان بقدرته وملكاته الذهنية عن معرفته.

٢- وجودها: فلا منازع فيه عند أهل الملل الثلاث حيث إن الله تعالى أنعم على عباده بالنعم الكثيرة، وكلها دالة على رحمته وحكمته وعنايته، كوضع الحواس الخمس وباقي الأعضاء في جسم الإنسان مثلًا، فإن إرسال من يهديهم إلى طريق السعادة الأبدية، ويكف شر بعض بني آدم عن بعض لينظم أمرهم-أوْلى.

(١) ص١٧ من كتاب «الخالدون مائة» ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٤م.

وما دلَّ عليه التواتر أن جماعة من الرجال أعلنوا أنهم رسل الله تعالى وأيدوا ذلك بمعجزات ظهرت على أيديهم.

فإذا ثبت بهاتين الحجتين إثبات نبوة الأنبياء والرسل فهما بعينهما تثبتان نبوة محمد ﷺ.

ويضيف إلى ذلك البغدادي قوله: (أما الأولى فلأنه بُعث على فترة من الرسل طويلة، وقد أكل العالم بعضه بعضًا -خصوصًا العرب في جاهليتها وغاراتها- وكانوا يعبدون الأوثان، والنصارى: الصلبان، والفرس: النيران، وغير ذلك من المنكرات، فأزال الله به ذلك وأبدل الناس به خير ما ينبغي ...

وأما الثانية: فلأنه ثبت بالتواتر الكامل الشروط أنه عليه السلام ادعى للنبوة وظهرت على يديه معجزات خارقة ... ثم تُوفي ﷺ على أوضح سنن، وأظهر طريقة، وأزكاها وأزهدها في الدنيا، ودعا الناس إلى ذلك ...)[1].

وقد عرض ابن تيمية للمعاني المتعددة لكلمة «الفارقليط»، ليستخلص منها أنها كلها تنطبق على نبينا ﷺ.

فإن معنى «الفارقليط» إن كان هو الحامد أو الحمَّاد أو الحمد أو المُعز، فهذا الوصف ظاهر في محمد ﷺ فإنه وأمته الحمَّادون الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته ومفتاح صلاته.

وأما من فسَّره بالمعز فلم يُعرف قطُّ نبي أعز أهل التوحيد لله والإيمان كما أعزهم محمد «لله» فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلِّص، فهو أيضًا ظاهر فيه فإن المسيح هو المخلص الأول، كما ذكر في الإنجيل، وهو معروف عند النصارى أن المسيح -صلوات الله عليه- قد سُمي مُخَلِّصًا، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول، وقد بشَّر بفارقليط آخر فإنه قال: (وأنا أطلب من

---

(١) الانتصارات الإسلامية -في علم مقارنة الأديان- نجم الدين البغدادي الطوفي، ص٤٩، دراسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا، دار البيان بمصر سنة ١٩٨٣م.

الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر، يثبت معكم إلى الأبد) فهذا بشارة بمخلص ثان يثبت معهم إلى الأبد، والمسيح هو المخلص الأول)[١].

سابعًا: إعادة الإنسان إلى وضعه الصحيح بعد انحرافات العقائد والفلسفات الأخرى

فمع التأكيد على عظمته وكرامته، فإن الإسلام يقرّ بواقعيته وحقيقته، فلا يحاول أن يجعل منه ملاكًا، بل جعل الإنسان إنسانًا (مع تحقيق التوازن في الغرائز، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح، بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية -هكذا من خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والنضال والتوسط- يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان)[٢].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

تم الكتاب بحمد الله تعالى وتوفيقه

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح لابن تيمية جـ٤ ص١٦ ط. المدني بمصر.

(٢) ص٣١٣/ ٣١٤ من كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» الرئيس علي عزت بيجوفيتش.

ثبت المراجع

(أ)

١- ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق د/ حامد ربيع، دار الشعب بالقاهرة ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٢- أبو المجد حرك، الفيلسوف المسلم، دار الفتح، مدينة نصر القاهرة ١٩٨٥م.

٣-د/ أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة ١٩٧٦م.

ـــــــ المسيحية ـــــــ ١٩٦٥م.

ـــــــ اليهودية ـــــــ ١٩٧٢م.

ـــــــ الحروب الصليبية ـــــــ ١٩٨٦م.

٤- الراغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، سلسلة الثقافة الإسلامية ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.

٥- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، مراجعة وتقديم طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٦- الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، طبعة الحلبي ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.

٧- أنيس منصور، ديانات أخرى، دار الشروق ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٨- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م.

٩- رسالة سيرة النبي الأمين ﷺ، إلى إنسان القرن العشرين، دار حراء، المحلة الكبرى ١٣٩٩ هـ.

١٠- أحمد ديدات، العرب وإسرائيل، شقاق أم وفاق؟ ترجمة علي الجوهري، دار الفضيلة بمصر ودبي ١٩٩٠م.

١١- أحمد عبد الغفار عطار، الديانات والعقائد في مختلف العصور.

١٢- أحمد ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله؟

١٣- ترجمة نورة أحمد النومان، مكتبة أبو القاسم، جدة.

١٤- المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان «بين الشيخ ديدات والقس سوجارت» جمع وترتيب د/ أحمد حجازي السقا، وتقديم الشيخ الغزالي، مكتبة زهران بالأزهر ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٥- أحمد إدريس، تاريخ الإنجيل والكنيسة، دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

١٦- المهندس أحمد عبد الوهاب، النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠هـ- ١٩٧٩م.

١٧- أنور الجندي، المخططات التلمودية اليهودية والصهيونية، دار الاعتصام ١٩٧٧م.

١٨- إبراهيم خليل أحمد، محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، مكتبة الوعي العربي بمصر.

١٩- إبراهيم خليل أحمد، إسرائيل فتنة الأجيال، مكتبة الوعي العربي سنة ١٩٧٠م.

٢٠- د/ إبراهيم فؤاد عباس، الماسونية تحت المجهر، دار الرشاد جدة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٢١- ابن تيمية، الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية، تحقيق/ صلاح عزام، دار الشعب بالقاهرة، فبراير ١٩٧٦م. النبوات، المطبعة السلفية بمصر.

٢٢- ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، مطبعة المدني بالقاهرة، بدون تاريخ.

٢٣- بُغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، تحقيق د/ موسى بن

سليمان الدويني، مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٢٤- ابن مفلح، مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، تحقيق/ علي رحمي، دار مرجانة للطباعة بمصر ١٩٨٠م.

٢٥- أبو الحسن الندوي، بين الدين والمدينة، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
الأركان الأربعة، دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٨٧م.

٢٦- أسعد التميمي، زوال إسرائيل حتمية قرآنية، ط. المختار الإسلامي بمصر.

٢٧- اسينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي، ومراجعة د/ فؤاد زكريا المطبعة الثقافية ١٩٧١م.

٢٨- ابن حزم، الفصل الأول في الملل والنحل، مكتبة المثنى، بغداد.

٢٩- ابن الجوزي، صيد الخاطر، تحقيق/ عبد القادر عطا، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٩م.

٣٠- العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق د/ أحمد عبد المجيد غراب، دار الكاتب العربي بمصر ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

٣١- السموءل بن يحيى المغربي، إفحام اليهود، تقديم وتحقيق د/ محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية بمدينة نصر ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣٢- القرافي، الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاخرة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(ب)

٣٣- برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، ترجمة نبيل صبحي، كتاب المختار، بدون تاريخ، سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية.

٣٤- بسام سلامة، الإيمان بالغيب، مكتبة المنار بالأردن ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(ت)

٣٥- د/ توفيق الطويل، أسس الفلسفة. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.

(ج)

٣٦- جامع الرسائل، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، نقض المنطق، تصحيح محمد حامد الفقي، مكتبة السُّنَّة المحمدية بالقاهرة، فتاوى ابن تيمية «الرياض» الرد على المنطقيين، تحقيق عبد الصمد شرف الدين «المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٣٧- جوستان لوبون، سر تطور الأمم، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة المعارف بمصر ١٣٣١هـ- ١٩١٣م.

٣٨- جوستان لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠م.

٣٩- د/ جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصة، إعداد وتقديم، د/ عبد الحميد صالح حمدان، ط. دار الغد العربي سنة ١٩٩٦م.

(ح)

٤٠- د/ حامد ربيع، الإسلام والقوى الدولية، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨١م.

٤١- د/ حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي، أطواره ومذاهبه، دار القلم بدمشق ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م ودار العلوم بيروت.

(خ)

٤٢- خميس البكري، د/ رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر، مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

(ر)

٤٣- رحمة الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق د/ محمد أحمد ملكاوي، الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية بالرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٤٤- رجاء جارودي، الإسلام دين المستقبل، ترجمة عبد المجيد بارودي، دار الإيمان بيروت، دمشق سنة ١٩٨٣م.

٤٥- د/ رشدي فكار، الشباب وحرية الاختيار، كتاب المختار، بدون تاريخ، رقم «٤» سلسلة نحو طلائع إسلامية واعية.

٤٦- ريجينا الشريف، الصهونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي. ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، الكويت «رقم ٩٦» ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

(ز)

٤٧- د/ زغلول النَّجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تقديم أحمد فرَّاج، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٤٨- د/ زينب عبد العزيز، تنصير العالم «مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني»، دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(س)

٤٩- سعد بن منصور بن كمونة اليهودي، كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، تقديم د/ عبد العظيم المطعني ط. دار الأنصار بالقاهرة.

٥٠- سعيد أيوب، المسيح الدجال، قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى، دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨٩م.

٥١- سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، المطبعة السلفية.

٥٢- سليمان مظهر، قصة الديانات، دار الوطن العربي، بدون تاريخ.

٥٣- سهيل ديب

أ- التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

ب- التوراة، تاريخها وغايتها، دار النفائس ١٤٠٦هـ.

(ع)

٥٤- عبد الأحد دواد، محمد ﷺ في الكتاب المقدس، ترجمة فهمي شما، مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥٥- د/ عبد الحليم محمود، أوروبا والإسلام، ط. دار الشعب بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٥٦- د/ عبد الرحمن بدوي

١- الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله.

٢- الدفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر بالقاهر، ١٩٩٩م.

٥٧- عبد الله الترجمان «القس أنسلم كورميدا»، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تقديم وتحقيق وتعليق د/ محمود على حماية، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

٥٨- د/ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة كتاب عالم المعرفة، الكويت «رقم ٢٣٢». ذو الحجة ١٤١٨هـ، إبريل ١٩٩٨م.

٥٩- د/ عبد الواحد وافي، الأستار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ط. مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٦٠- د/ عبد الودود شلبي، رسالة إلى البابا بولس السادس، ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٧م.

٦١- عرفات كامل العش، رجال ونساء أسلموا، دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

٦٢- د/ عبد الستار فتح الله سعيد، معركة الوجود بين القرآن والتلمود.

٦٣- علي بن ربن الطبري، الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

(ف)

٦٤- فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي، حقيقة اليهود، دار القسَّام بالكويت، رجب ١٤٠٦هـ.

٦٥- د/ فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، ط. دار الكتاب العربي، بالقاهرة،بدون تاريخ.

٦٦- كارين آرمسترونج

١-معارك في سبيل الله «الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام» ترجمة د/ فاطمة مصر، و د/ محمد عناني، ط. سطور ٢٠٠٠م.

٢- محمدﷺ، نفس المترجمين، سطور ١٩٩٨م.

(ك)

٦٧- كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، أعداء الحياة الإنسانية، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٩م.

٦٨- كولن ولسن، ما بعد اللامنتهى، ترجمة يوسف شور، منشورات دار الآداب، بيروت، أبريل ١٩٨١م.

(ل)

٦٩- ليفي بريل، فلسفة أوجست كوين، ترجمة د/ محمود قاسم، ود/ السيد بدوي، مكتبة الأنجلو، بدون تاريخ.

(م)

٧٠- محمد أبو زهرة، الديانات القديمة، دار الفكر العربي ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

٧١- محمد أسد، الإسلام على مقدمة الطرق، ترجمة د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين ببيروت.

٧٢- د/ مهندس محمد الحسيني إسماعيل، الحقيقة المطلقة؛ الله والدين والإنسان، مطابع الأهرام ١٩٩٥م.

٧٣- محمد تقي العثماني، ما هي النصرانية؟

٧٤- د/ محمد جابر عبد العال، في العقائد والأديان، الأديان الكبرى المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١م.

٧٥- محمد جلال كشك، المواجهة الأبدية بين الإسلام والغرب، مجلة رسالة التوحيد، ربيع ثان ١٤٠٦هـ، القاهرة.

٧٦- د/ محمد جمال الفندي، السموات السبع، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م.

٧٧- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، تقديم عباس محمد العقاد.

٧٨- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، المطبعة السلفية.

٧٩- محمد عبد الله السمَّان، مفتريات اليونسكو على الإسلام، المختار الإسلامي ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

٨٠- مصطفى حلمي، ابن تيمية والتصوف، دار الدعوة بالإسكندرية.

٨١- محمد عبد الرحمن عوض، الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦م.

٨٢- د/ محمد علي البار، المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، دار السعودية، جدة

١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٨٣- د/ محمد عبد الله دراز، الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم بالكويت ١٣٩٠هـ.

٨٤- محمد عزت الطهطاوي، محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦م.

٨٥- د/ محمد علي أبو ريان، أسلمة المعرفة، العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٧م.

٨٦- محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٨٧- د/ محمد يحيى، في الرد على العلمانيين، ورقة ثقافية، الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٨٨- د/ محمود حماية، ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.

٨٩- د/ محمد قاسم، كتاب مبادئ علم الاجتماع لروجيه باستير ١٣٧٠هـ- ١٩٥١م.

٩٠- محمود أبو الفيض المنوفي، الدين والفلسفة والعلم، دار الكتب الحديثة، بالقاهرة بدون تاريخ.

٩١- د/ مصطفى حلمي

١- الصحوة الإسلامية، عودة إلى الذات، ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

٢- الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، دار الدعوة الإسكندرية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٩٢- محمود عباس العقاد

١- ما يقال عن الإسلام، ط. دار الهلال بمصر ١٩٧٠م.

٢- الصهيونية العالمية، مكتبة غريب، القاهرة ١٩٦٨م.

٣- الله، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، دار المعارف بمصر ١٩٤٩م.

٩٣- د/ محمود عبد الله، موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري، كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.

٩٤- د/ محمود حمدي الجريس، الإسلام يتحدى المذاهب والأديان، ط. دار التراث العربي ١٩٧٦م.

٩٥- د/ مصطفى محمود، سقوط اليسار، دار المعارف بمصر ١٩٩١م.

٩٦- موسى جار الله، الوثيقة في نقد عقائد الشيعة، ط. لاهور، باكستان ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٩٧- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد، ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

(ن)

٩٨- نجم الدين البغدادي الطوفي «٧١٦هـ»، كتاب الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان، تحقيق د/أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣م.

٩٩- نديم الجسر، القرآن في التربية الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

(هـ)

١٠٠- هادفيلد، علم النفس والأخلاق، ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم ومراجعة د/ عبد العزيز القوصي، مكتبة مصر ١٩٥٣م.

١٠١- د/ هادي حسين جمود، منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، مطبعة عصام ببغداد ١٩٨٤م، دار القادسية.

(و)

١٠٢- ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة أحمد الشيباني منشورات المكتبة الأهلية، بيروت.

١٠٣- واصف الراعي، كنت نصرانيًّا، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٠٤- وحيد الدين خان

١- الإسلام يتحدى، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين.

٢- قضية البعث الإسلامي، المنهج والشروط، ترجمة محسن الندوي، ومراجعة د/ عبد الحليم عويس ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

١٠٥- وجيه أبو ذكري، الإرهابيون الأوائل، جيراننا الجدد، المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٧م.

(ي)

١٠٦- يواكيم برنز، بابوات من حي اليهود، ترجمة خالد عيسى دار حسَّان. بدمشق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.



الموضوع	صفحة

المـوضـــوع صفحة

الفصل السادس
النصرانية

الفصل السابع
النبوءات بمجيء الرسول ﷺ في الكتاب المقدس

الموضوع | صفحة

الفصل الثامن
مجمل البرهان على ظهور الإسلام

